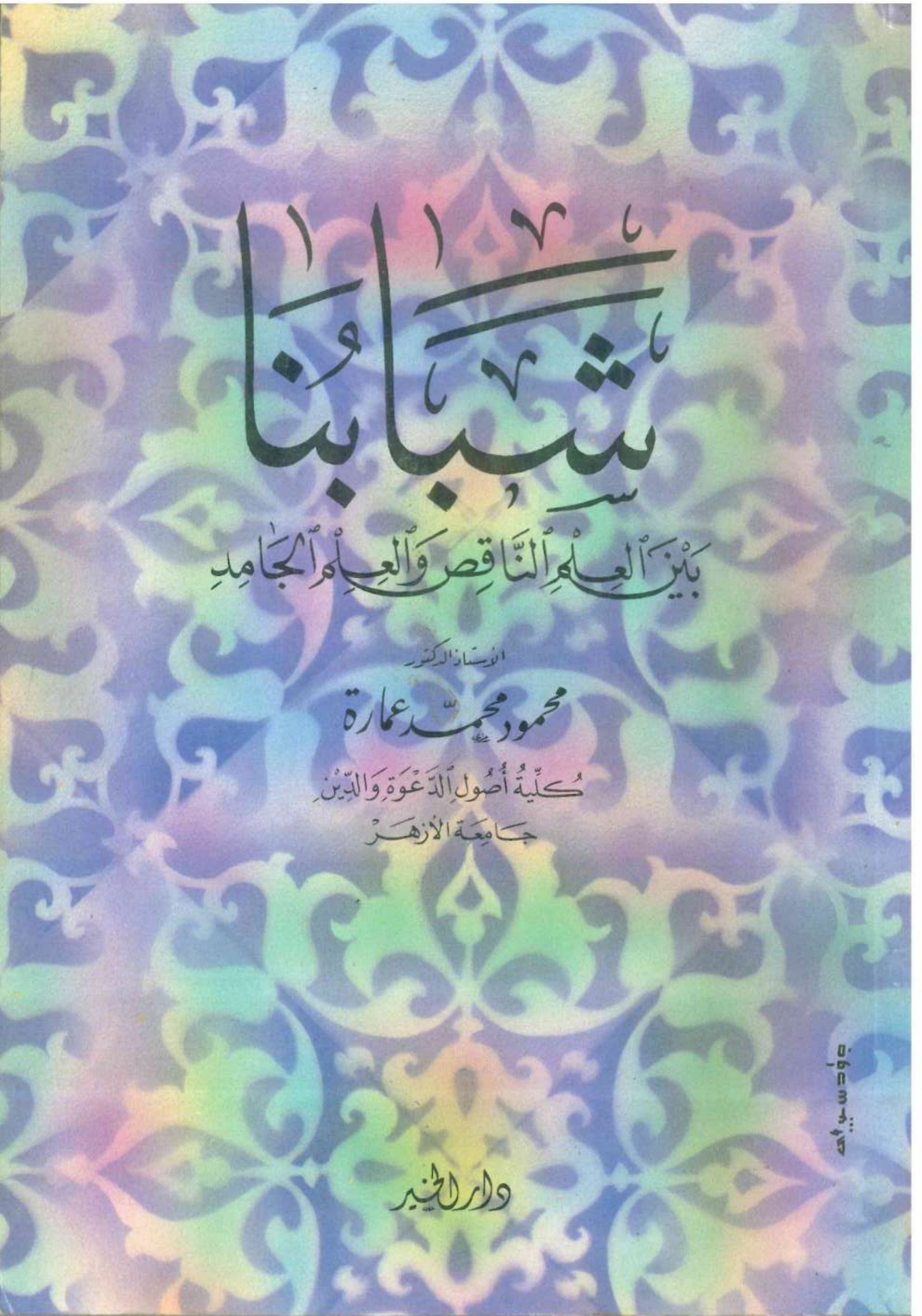

شبابنا
بين العلم الناقص والعلم الجامد
الأستاذ الدكتور
محمود محمد عمارة
كلية أصول الدعوة والدين
جامعة الأزهر
دار الخير

بسم الله الرحمن الرحيم



الأستاذ الدكتور
محمود محمد عمارة
كلية أصول الدعوة والدين
جامعة الأزهر

دار الخير

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م



بيروت - قريطم - جنوب سيار الدرك - بناء الشامي
هاتف: ٨١٠٥٧١ - ٨٦٥٦٩٧ - ص. ب: ١١٣/٥٦٣٠
فاكس: ٨٦٥٦٩٧ - تلكس: ٢١٦٣٢

دمشق - حلبوني - جادة الشيخ تاج
هاتف: ٢٤٥٨٢٢ - ٧٥١٩١٥ - ص. ب: ١٣/٤٩٢
تلكس: سامتل سي: ٤١١٣٧٣

الفصـــل الأول

في بيان أهمية العلم

تمهيد :

في بيان أهمية العلم نقرأ قوله تعالى :

﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق** ﴾[1] .

وقوله عز وجل : ﴿ **ن والقلم وما يسطرون** ﴾[2] .

لقد جاء الأمر بالقراءة براعة استهلال للرسالة الخاتمة . . ثم جاء القسم بآلة تحصيلها وهو القلم ـ بعد الإشارة إليها في سورة العلق ـ . . جاء دعوة إلى القراءة . وحضا عليها . وبيان شرفها الذي نوهت به آيات الكتاب العزيز الكاشف عن شرف العلم . وعزة العلماء :

أ ـ فالعلم . . قبل الإيمان :

يقول سبحانه وتعالى :

﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله . .** ﴾[3] .

وإذا كان الحق سبحانه قدم الإحكام على التفصيل في قوله تعالى :

﴿ **كتاب أحكمت آياته ثم فصلت . .** ﴾[4] . . تقديراً للحكمة السابقة على التفصيل الذي يجيء في دائرة من الإحكام توثيقاً للآيات . . إذا كان الحق تعالى قدر

---

(١) العلق ١/٢ .

(٢) القلم ١ .

(٣) محمد ١٩ .

(٤) هود ١ .

ذلك . . فقد يجوز لنا أن نقول مع القائلين . . أن تقديم العلم على الإيمان يعني أن يستقبل المؤمن حقيقة الإيمان بعقله الواعي . وقلبه الحساس . . لتتألق في كيانه على مثل ضوء النهار .

ب ـ ومن هنا شرف الحق تعالى العلماء حين أهلهم ليكونوا معه سبحانه ومع الملائكة في تقرير حقيقة التوحيد : وذلك قوله سبحانه :

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾[١] .

جـ ـ ولم تكن حقيقة التوحيد في عقولهم معرفة مجردة . . لكنها انتقلت إلى القلب خشية . . ثم إلى الإرادة عملاً ونتاجاً وسلوكاً . .

وذلك قوله تعالى :

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ .

د ـ وبهذه الخصائص صاروا متميزين . . متربعين على القمة العليا التي حرمها الجاهلون الذين لا يقاسون بهم أبداً :

يقول تعالى :

﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾[٢] .

إنه الاستفهام المنكر أن يستوي العالمون والجاهلون . . المحرض في نفس الوقت على طلب العلم من المهد إلى اللحد فراراً من الجهل ووصولاً إلى الكمال .

* * *

جاء في بصائر ذوي التمييز :

(العلم أشرف ما ورث . عن أشرف موروث) .

وكفاه فضلاً . وحسبه نبلاً . قوله تعالى :

﴿ الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن . . لتعلموا ﴾[٣] . وبين قوله تعالى : **﴿ ذلك لمن خشي ربه ﴾**[٤] . قوله تعالى :

---

(١) آل عمران ١٨ .
(٢) الزمر ٣٩ .
(٣) الطلاق ١٦ .
(٤) البينة ٨ .

﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾[1] . أنه ليس للجنان . ومنازل الرضوان أهل إلا العالمون . وأمر أعلم الخلق وأكملهم . وأعرف الأنبياء وأفضلهم بطلب الزيادة من العلم في قوله :

﴿ **وقل رب زدني علماً** ﴾[2] .

* * *

من معاني القراءة :

وإذا كان العلم أشرف مطلوب . . وإذا كانت القراءة سبيل تحصيله فنحن إذن مأمورون بالقراءة .

قراءة الكتاب المسطور . . وقراءة الكون المنظور . .

وبعد أن نعرض المسطور والمنظور على أبصارنا . . تجيء الخطوة التالية وهي :

عرضه على بصائرنا . . تفكيراً واعتباراً . . لنعود من رحلة التفكير بهذه الحقيقة :

إن الله تعالى هو الذي ربى . .

وهو الذي خلق . .

وهو الذي علم بالقلم . .

وتلزمك هذه النتيجة بآثارها المترتبة عليها :

أن تؤمن به مشرعاً . . بعد أن آمنت به خالقاً . . معلماً . .

وإذا كان الحق تعالى : لا خالق سواه . . ولا مربي سواه . . فكذلك وبنفس الأهمية : لا آمر سواه .

أما هؤلاء الذين يؤمنون به سبحانه خالقاً . . ثم يهجرون شريعته . . فهم متناقضون مع أنفسهم . . ولكن ما هو مقصود القراءة في مفهوم القرآن ؟ .

* * *

---

(١) فاطر ٢٨ .

(٢) طه ١١٤ .

بين القراءة . . والتفكير :

(ما أكثر ما نقرأ . . وما أقل ما نفكر . .

لقد حدثونا عن « ديمقرطس » الفيلسوف اليوناني : أنه قلع عينيه . . لئلا يشغله النظر عن التفكير . والقراءة عن التأمل .

وحدثونا حديثاً أخف فظاعة من هذا عن « فيثاغورث » أنه كان يقضي ليله في التفكير العميق في أحداث يومه .

ولسنا نتطلب هذا ولا ذاك . ولكنا نطلب تفكيراً يعادل القراءة . . وتأملاً يوازن النظر) .

* * *

ومن لطائف المعاني التي قيلت في القراءة :

القراءة : دمع أزهار .

والتفكير : تأليف طاقة .

القراءة : جمع خرزات . والتفكير نظمها في عقد . .

القراءة : جمع أزهار وحشائش . وضم حجر كريم . إلى حجر كريم .

بينما التفكير : اختيار الصالح . واختيار المناسب . واستبعاد الفاسد . واستبعاد غير المناسب .

القراءة : ضم عقيم . إلى عقيم .

والتفكير : قدرة على الاستيلاء . . حتى من العقيم .

قراءة الكتاب . وحفظه : زيادة نسخة مطبوعة منه .

والتفكير : نفخ الحياة في الصورة . ورد الحياة إلى الميت .

كثرة القارئين في الأمة : زيادة مكتبة جامعة فيها . .

وعقل مفكر واحد : باعث الروح . ونور الظلام . وحافزا الهمم . وهادي الطريق .

وإذن . . فالقراءة المأمور بها : فهم عميق مستوعب . . يزداد به الإيمان .

* * *

المسؤولية المشتركة :

ويتحمل العالم والمتعلم المسؤولية . . حق يحقق العلم ثمرته :

يقول ﷺ :

« ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم . ولا يعلمونهم . ولا يعظونهم . ولا يأمرونهم . ولا يفهمونهم .

وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم . ولا يتفقهون . ولا يتعظون . والله ليعلمن قوم جيرانهم . ويفقهونهم . ويعظونهم ويأمرونهم . وينهونهم .

وليتعلمن قوم من جيرانهم . ويتفقهون . ويتعظون . أو لأعاجلنهم العقوبة »[1] .

والحديث دعوة إلى لون من التكافل الاجتماعي عن طريق العلم ـ إلى جانب ما قرره الإسلام من تكافل عن طريق الزكاة ـ وهذا التواصي بالعلم لا يقف عند حد التلقين . . إنما يضيف إلى التلقين مسؤوليات أخرى تتضح من تأملنا هذا الحديث الشريف حيث تأكد لنا أن مسؤولية العالم لا تقف عند حد تزويد الطالب بالمعرفة تلقيناً . .

بل ـ إلى جانب ذلك ـ مطالب بأن يمضي على الطريق خطوات يعزز بها وظيفة التعليم . . بوظيفة التربية .

مطالب بأن يعلم الحكم ثم يحيط الطلب علماً بحكمة التشريع وهو الفقه الذي يستشعر فيه حكمة الخالق سبحانه فيما شرع لينتقل بعد ذلك إلى التربية . . بالوعظ الذي هو متابعة . . ومراقبة يلاحق فيها التلميذ بالنقد والتمحيص ليخرج من الدرس عالماً . . عاملاً . . وكذلك كان سلفنا الصالح :

يحفظون الآيات . . ثم يفهمونها . . ثم لا يغادرونها إلى آيات ثانية إلا بعد أن يطبقوها علمياً ! .

والتلميذ ـ مثل أستاذه ـ مكلف باستشراف هذه الغاية . . وإلا . . فإن مجرد التلقين . . يعرض المسؤول لعقاب رادع .

صرح به ﷺ في الحديث حين أقسم . . وبلفظ الجلالة . . بالعقوبة . . والعقوبة العاجلة . . لكل من لم يؤد رسالته على هذا النحو الشامل . والذي يعطي

---

(١) رواه الطبراني في الكبير .

المعلم في نهاية المطاف سلطة تنفيذية بالأمر الجازم . إذا بدت بوادر العناد والمشاكسة .

إن غاية العلم هي : التربية . .

وأحق الناس بالتربية أهل العلم . لأنهم ورثة الأنبياء .

* * *

ولقد فهم أسلافنا هذا المعنى جيداً :

قال ابن سيرين :

(كانوا يتعلمون الهدى . كما يتعلمون العلم) .

وما الهدى إلا السلوك الحسن . والسيرة العطرة . المحققة لمعنى التربية بمعناها العملي . . والتي كان لها في خطة الدراسة أولوية عظمى تعطشت إليها النفوس : وقد تكفلت السنة المطهرة بأخذ العلماء بأخلاق الإسلام العالية .

بقدر ما نأت بهم عن رذائل النفس . لا سيما الغرور :

روى أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال :

« قام موسى النبي خطيباً . في بني إسرائيل .

فسئل : أي الناس أعلم ؟

فقال : « **أنا أعلم** » .

فعتب الله عليه . إذ لم يرد العلم إليه .

فأوحى الله إليه . أن عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك . . الحديث » .

* * *

دور الأسرة :

وفي بيان غاية العلم قالت أم سفيان الثوري لابنها . وهو في العاشرة من عمره :

(يا بني : خذ هذه عشرة دراهم . وتعلم بها عشرة أحاديث . فإذا وجدتها تغير في جلستك[1] . ومشيتك . وكلامك مع الناس فأقبل عليه . وأنا أعينك بمغزلي هذا . . وإلا فاتركه . فإني أخشى أن يكون وبالاً عليك يوم القيامة) .

* * *

---

(1) الجلسة بالكسر : للنوع والحالة . وبالفتح : للمرة .

نحن أمام بيت بسيط . . تديره أرملة تكدح إلى ربها كدحاً . . لم تكن قضيتها أن يذوب قلبها أسفاً على الراحل العزيز . . ولا أن تطير بها الأوهام إلى المستقبل بحثاً عن نصفها الضائع . . وإنما كانت قضيتها الأولى ولدها الصغير . . الذي صار كما قالت الأرملة الفلاحة : لقد صار ابني . . أبي . . وزوجي . . وأخي . . فرصدت حياتها له . . رمز وفاءٍ للراحل العزيز . . ولقد حملت مغزلها في يدها . . ويبدو أنه كان مورده الوحيد . . وكان الظن أن تستبقي طفلها إلى جانبها يواجه معها شظف العيش . . لكنها لم تفعل . . ودفعت به إلى مجالس العلم . وهي من ورائه نعم المعين .

وفي موقفها ذلك (عبرة للنساء . وأمل لمن ابتليت بالفقر من الزوجات . وإثبات لمن يحتقر النساء . . أن المرأة قد تكون أعقل وأنبل من الرجال .

وبيان لمن لا يريد بالمرأة إلا أن تكون متعة لا هم لها إلا زينتها وتبرجها . . أنها قد تترفع عن زخارف الأزياء . وألاعيب النساء . حتى تكون ركناً في بناء الأمة . وعوناً على تحقيق مثلها العليا).

* * *

لم تتعلق آمال الأم هنا بنوع الشهادة التي يحصل عليها ولدها . . ولم تحترق أعصاب الأسرة في حمى السباق المجنون في سبيل الحصول على شهادة لا تؤهل الولد ليؤدي دورة العملي بنجاح .

ولكنها تقتطع من ميزانية البيت هذه الدراهم العشرة . . لتعينه على طلب العلم . . العلم الذي يحقق ثمرته من التربية العملية . . في نفسه وفي معاملته للآخرين . . لم تطلب منه أن يحفظ هذه الأحاديث . . فالحفظ وحده لا يكفي . . ولم تكلفه بفهمها . . فالفهم وحده أيضاً لا يكفي . . وحتى إذا تعلمها . . وأدرك مراميها . . فإن دوره لا ينتهي وإنما غايته الكبرى أن يحس بأثرها العملي في سلوكه . .

فإن وجد آثاره ظاهرة في حياته . . فليواصل رحلة العلم . . وهي من ورائه تشد من أزره . .

وإلا فمهما كان ذكياً فاهماً متقدماً على أقرانه . . دون تغير في سلوكه . . فهو يجري وراء السراب .

* * *

ولاحظ أن المرأة قرآنية النزعة وهي تحدد مسير ولدها . . لأنها تنطلق من وصايا لقمان لابنه في القرآن الكريم :

(ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور .

واقصد في مشيك واغضض من صوتك أن أنكر الأصوات لصوت الحمير)[1] .

* * *

التربية تؤتي أكلها :

ولقد كان « سفيان الثوري » عند حسن ظن أمه . . وأكد ما يمكن أن تفعله الأسرة بولدها ليكون من بعد رجلاً نافعاً . .

قال رضي الله عنه وهو يحكي أعز ذكرياته :

(لو رأيتني ولي عشر سنين :

طولي خمسة أشبار . ووجهي كالدينار . وأنا كشعلة من نار .

ثيابي صغار . وأكمامي قصار . وذيلي بمقدار . ونعلي كآذان الفار !

أختلف إلى علماء الأمصار : كالزهري . وعمرو . وابن دينار :

أجلس بينهم كالمسمار .

محبرتي كالجوزة . . فإذا أتيت قالوا :

أوسعوا للشيخ الصغير . ثم ضحك !!)[2] .

* * *

ثم صار الغلام الصغير أمة في العلم . . حتى روي عنه عشرون ألفاً . . كانوا قنوات ارسال . . تنشر علمه في كل الدنيا .

* * *

معلمة الرجال :

وهكذا كانت « أم سفيان الثوري » معلمة الرجال :

---

(١) لقمان ١٨ : ١٩ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٨/٤٠٤ .

لقد أثبتت (أن المرأة يمكن أن تكون أعلم من الرجال . حتى يتعلموا منها . وأن تكون سياسية . وأن تكون محاربة . وأن تخلف في التاريخ دوياً تتناقل أصداءه العصور .

لم تتخرج من الجامعة . فلم تكن في أيامها جامعات) .

لكنها كانت ولا تزال .

ينهل العلماء من توجيهاتها التي خلفتها من بعدها . . وعلى أساسها انطلق المربون ينسجون على منوالها :

قال الحبيب بن الشهيد لابنه :

(يا بني :
اصحب الفقهاء والعلماء .
وتعلم منهم . وخذ من أدبهم .
فإن ذلك أحب إلي من كثرة الحديث) .

* * *

وفي هذا رد حاسم على هذا السباق المجنون بين الآباء كما أشرنا من أجل حصول الابناء على شهادة . . وبتفوق ـ جاهلين ـ في حمى السباق ـ أن هناك مجالاً أخطر من ذلك لابد أن يتنافس فيه المتنافسون .

ـ بل هو أولى ـ وهو مجال التربية تخلقاً بكل جميل من القول والفعل . . وأن التفوق في الشهادة ـ برغم أهميته ـ سيصل محتاجاً إلى خلق جميل يجعل له قيمة في دنيا الناس . . فنحن كما سبق :

(أحوج إلى كثير من الأدب منا إلى كثير من الأحاديث) .

بل أن نسبة العلم المجرد . . إلى تطبيقه عملاً ـ قد تصل إلى : ١ : ٧٠ !
وذلك فيما يقول فيما قال بعض السلف وهو يعظ ولده :

(يا بني : لأن تتعلم باباً من الأدب . أحب إلي من أن تتعلم سبعين باباً من أبواب العلم) .

* * *

من آثار مجالس العلماء :

روي (جالس العلماء تعرف في السماء . ووقر كبير المسلمين تجاورني في الجنة) الديلمي عن أنس .

من آداب طالب العلم :

لابد من آداب يتحلى بها طالب العلم . . ليتمكن الأستاذ من أداء دوره : (إنما ينتفع المتعلم بكلام العالم إذا كان في المتعلم ثلاث فضائل :

التواضع في نفسه . . والحرص على التعلم . . والتعظيم للعالم .

فبتواضعه ينجح فيه العلم .

وبحرصه يستخرج العلم .

وبتعظيمه يستعطف العلماء[1] .

فإذا لم يؤد الطالب حق العالم عليه . . فهو المسؤول أولاً عن نتيجة مهد لها . بإهماله أو بإعراضه .

* * *

من صور التواضع :

قال الإمام الغزالي :

(لا ينال العلم إلا بالتواضع . وإلقاء السمع) .

وقال الربيع :

(والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إلي هيبة له) .

ولقد كان الشافعي جديراً بهذا الاحترام لأنه دين يرد إليه كفاء تواضعه هو مع أساتذته .

وفي ذلك قوله :

(كنت أصفح الورقة بين يدي « مالك » صفحاً رقيقاً . لئلا يسمع وقعها »[2]

ولما عوتب الشافعي في هذا التواضع الذي يوشك أن يكون ذلة . . قال لنقاده :

أهين لهم نفسي ـ فهم يكرمونها ... ولن تكرم النفس التي لا تهينها

* * *

---

(١) بستان العارفين .

(٢) المرجع والموضع السابق .

وعلى جلالة قدر الإمام أحمد فقد كان أيضاً في قمة التواضع :
قال يوماً لخلف الأحمر :
(لا أقعد إلا بين يديك . . أمرنا أن نتواضع لمن نتعلم منه)[1] .

* * *

ويبلغ ابن عباس بالتواضع منتهاه فيما روى عنه :
حين أخذ بركاب زيد بن ثابت وقال :
(هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا) .
ولقد حقق بهذا التواضع بغيته فيما حكي عنه :
(ذللت طالباً . . فعززت مطلوباً) !

* * *

وعندما يفقد العالم حقه في التواضع له . تتسع الهوة . . ولا يكون لقاء في طلب العلم . .

بل أن الذي لا يعرف للمدرس حقه لا يتمتع بشرف الانتساب إلى الأمة الإسلامية على ما يقول ﷺ :

« **ليس من أمتي من لم يبجل كبيرنا . . ويرحم صغيرنا . . ويعرف لعالمنا حقه** »[2] ذلك بأن النفس المنبسطة المطمئنة يستقر العلم في إطارها كالغيث . . لا يستقر إلا في شعاب الوادي . . بينما يزايل قمم الجبال . .

ولا يأخذ العلم سبيله إلى القلوب إلا على أجنحة من السكينة والتواضع والوقار . (تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة وتواضعوا لمن تعلمون منه)[3] .

* * *

حضر أولاد الخليفة المهدي عند شريك . فاستند الأمير إلى الحائط . وسأله أحدهم عن حديث . فلم يلتفت إليه شريك . ثم عاد ، فعاد شريك بمثل ذلك .

فقال ابن الخليفة :

---

(١) النصوص بين القوسين هنا عن كتاب تربية الأولاد في الإسلام .
(٢) رواه أحمد والطبراني والحاكم عن عبادة بن الصامت .
(٣) رواه الطبراني في الأوسط .

تستخف بأولاد الخلفاء ؟ هذا الاستخفاف ؟!

قال : لا . .

ولكن العلم أجل عند الله من أن أضيعه .

فإذا كان من حق الطالب أن يسأل . . فمن واجبه أولاً أن يتواضع لأستاذه !

وإذا كان الحق مع العالم في رفضه الجواب فإن ذلك لم يخرج به عن سمته الوقور . . ولم يزد على أن قال : لا . .

ثم لقنه درساً لا ينسى . .

فرغم جدية التلميذ في تكرار سؤاله إلا أن العالم غير مستعد ليضيع علمه في كيان غير مستعد للتلقي !!

* * *

مع الفيروز بادي :

وحتى يحقق العلم غايته في عالم الضمير وعالم الواقع . . نرى البصراء يضعون له من الضوابط ما لا بد منه . . ليثمر في النهاية ثمرته[1] ونذكر منها :

١ ـ على طالب العلم أن يقصد إلى العلم الذي يميل إليه طبعه . وتقبله نفسه .

ويفرض عليه ذلك : ألا يتكلف غيره . حتى لا يضيع طاقته سدى . فليس كل الناس صالحاً لتعلم العلم . . وليس كل صالح لتعلمه . . صالحاً لتعلم جميع العلوم . وكلٌ ميسر لما خلق له .

٢ ـ أن يعلم مدى أهمية العلم الذي يقصده . . وما هي مقاصده . . وهل يستحق ما يبذل فيه جهده ؟

٣ ـ أن يسير في دراسته مبتدئاً بتصور مسائله . . ثم محاولة فهمها . . ثم توثيقها بالبراهين .

٤ ـ (أن يقرأ على شيخ مرشد . ناصح . أمين .

ولا يستبد طالب بنفسه . اتكالاً على ذهنه .

والعلم في الصدور لا في السطور .

---

(١) الشروط : عن بصائر ذوي التمييز ج ١ / ٥٠ وما بعدها بتصرف .

وهذا أبو علي « ابن سينا » مع صفاء ذهنه . وما كان عليه من الذكاء المفرط . والحذق البالغ . . لما اتكل على نفسه . وثوقاً بذهنه . لم يسلم من الخطأ) .

٥ ـ وأن يذاكر مسائل العلم مع الاقران والنظراء طلباً للتحقيق والتعاون على الفهم . لا المغالبة والمكابرة .

٦ ـ إذا حصّل الطالب علماً ما . صار أمانة في عنقه . لا يهمله ولا يضيعه ولا يكتمه وهذا واجبه الأول . قال ﷺ :

« من علم علماً نافعاً . وكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار »[١] .

أما واجبه الثاني ألا يهين العلم ببذله إلى غير مستحقيه . فقد ورد في كلام النبوة الأولى :

« لا تعلقوا الدرر في أعناق الخنازير » .

وروي :

« لا تطرحوا الدرر في أفواه الكلاب » .

٧ ـ أن يظل طالب العلم حلقة في سلسلة العلماء :

(فيثبت في الكتب لمن يأتي بعده ما عثر عليه بفكره . واستنبطه بممارسته وتجاربه . مما لم يسبق إليه . كما فعل من قبله .

فمواهب الله تعالى لا تقف عند حد) .

٨ ـ أن يتجنب الغرور فيحسب أنه حصل من العلم بالقدر الذي لا مزيد عليه .

فإن ذلك جهل يوجب الحرمان . وقد قال سيد المرسلين ﷺ :

« لا بورك لي في صبيحة لا أزداد فيها علماً »[٢] .

٩ ـ ومن واجب الطالب أن يعترف بالفضل لمن علمه . .

ورسوخ هذه القيمة ـ قيمة الاعتراف بالجميل ـ تنعكس على المجتمع تقدماً وازدهاراً . . بقدر ما يكون التطاول على العلماء . . نكسة يراد بها أن يصبح الناس فوضى لا قيادة لهم . .

---

(١) الجامع الصغير . وهو ضعيف .

(٢) ضعفه الحافظ العراقي .

وقد يحلو لبعض الناكرين للجميل أن يتطاولوا على العلماء .. مع أن العلماء هم الذين أسسوا للأخلاق .. ووضعوا قواعد التقدم .. وأصلوا الأصل . فلهم الفضل .

لأن المؤسس أكثر بلاء ومعاناة .. ممن بنى على هذا الأساس من الجيل الجديد . ولكن بعضهم كالصاروخ المهزوز .. لأنه يرتد على قاعدته التي انطلق منها ليدمرها :

تطاول واحد على السلف .. فقيل له :
هل أنت ممن قال الله تعالى فيهم :
(للفقراء المهاجرين ..
ـ لا ..
ـ هل أنت مما قال تعالى فيهم :
(والذين تبؤوا ..
ـ لا ..
ـ ولا أنت ممن قال فيهم (والذين جاءوا ..
(ولو كنت موجوداً لقلت :
حذار أن تكون من الصنف التالي مباشرة :
(ألم تر إلى الذين نافقوا) ؟ !!

* * *

من واجبات الأستاذ :

ومن شأن الأستاذ الكامل أن يرتب الطالب الترتيب الخاص بذلك العلم . ويؤدبه بآدابه .

وعليه أن يصور له المسائل . ويذكر له أحكامها . مؤيدة بالدليل .

هذا بالنسبة للمبتديء .. ولا داعي لذكر ما يعرض من شبهات . لأن هذه مرحلة تليق بالمستوى الأعلى .

* * *

(في مقدمة كتابه الشهير كتب ابن خلدون فصلاً تحت عنوان : وجه الصواب في تعليم العلوم وطرق إفادته ، يقول فيه : « وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا

العهد الذي أدركناه يجهلون طرق التعليم وإفادته ، ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة في العلوم ، ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها ، ويحسبون ذلك مراناً على التعليم وصواباً فيه ، ويكلفون وعي ذلك وتحصيله ، ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها ، وقبل أن يستعد لفهمها . . فإن قبول العلم والاستعداد لفهمه ينشأ تدريجياً ، ويكون المتعلم في أول الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة إلا في الأقل ـ وعلى سبيل الأمثال الحسية والتقريب والإجمال ـ ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلاً بمخالطة ذلك الفن وتكرارها عليه ، والانتقال فيهما من التقريب إلى الاستيعاب الذي فوقه ، حتى تتم الملكة في الاستعداد والتحصيل ويحيط هو بمسائل الفن ، وإذا ألقيت عليه الغايات في البدايات ـ وهو حينئذٍ عاجز عن الفهم والوعي وبعيد عن الاستعداد له ـ كَلَّ ذهنه عنها وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه فتكاسل عنه وانحرف في قبوله وتمادى في هجرانه ، وإنما ذلك من سوء التعليم) .

إن الشدة في التدريب . . ضغط على القلوب :

١ ـ لا يقربها من الله تعالى .

٢ ـ تبديد للطاقة .

٣ ـ لا تتعلم الحب . . ولا تعرف التسامح .

وقد لخص الإمام علي رضي الله عنه حقوق العالم في كلمات باقيات :

من حق العالم عليك :

أن تسلم على القوم عامة . . وتخصه بالتحية .

وأن تجلس أمامه .

ولا تشيرن عنده بيدك .

ولا تغمز بعينيك غيره .

ولا تقولن : قال فلان ، خلاف قوله .

ولا تغتابن عنده أحداً .

ولا تطلبن عثرته .

وإن زل . . قبلت معذرته .

وعليك أن توقره لله تعالى ، (لا للشهادة والتقدير !) .

وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته .
ولا تساور أحداً في مجلسه .
ولا تأخذ بثوبه .
ولا تلح عليه إذا كسل .
ولا تشبع من طول صحبته ، (أي إن أطال في الدرس مثلاً) .
فإنما هو كالنخلة :
تنتظر متى يسقط عليك منها شيء .

* * *

وقفة تأمل :

ولو تأملنا وصايا الإمام لانتهى بنا التأمل إلى صورة مجلس التعليم ـ كما يجب أن تكون ـ ممثلة فيما يأتي :

١ ـ مجلس تحفه الهيبة لا تسمع فيه همساً . . ولا ترى فيه حركة . . بريء من كل بادرة تعكر صفوه ليظل وافر العطاء دائماً .

٢ ـ طلاب كلهم آذان صاغية ، يجلسون بين يديه في نظام . . ومواجهة يتحقق بها التجاوب حين يرونه . . ويراهم . .

٣ ـ عالم مكفول الرزق يتنافس في خدمته المتنافسون ، ليتفرغ لمهمته الجليلة .

٤ ـ قلوب تعينه على أمر الله : فلا تتلمس زلة . . ولا تلاحقه بالسؤال . . بل وتتغاضى عن زلته . . فهو مثلهم بشر .

٥ ـ مصابرة على مشقة التعلم فلا يفرض التلميذ على المعلم أن يجود بما عنده قسراً ، وفي وقت محدد . .

والمفروض ألا تشبع من طول صحبته . . ولا تنظر إلى ساعتك استعجالاً . . فليس هذا مما تجود به قرائح العلماء . .

فلا تعجل عليه أيها التلميذ . . وتأمل الطبيعة من حولك تنبئك بالخبر :
فأنت لا تهز النخلة ابتغاء رطبها . . وإنما تنتظر حتى تسقط عليك رطباً جنياً !
والزارع ينتظر مصطبراً من الربيع إلى الخريف ليجني ثمرة جهده . .

والثمار . . لا تسقط إلا بعد أن يتم نضجها . . وتستكمل حلاوتها!

* * *

العلم مسؤولية الإيمان :

كانت استجابة السلف الصالح مخلصة لتحصيل العلم . . وتعليمه . كثمرة من ثمار الإيمان : والأخبار الصادقة كاشفة عن نماذج فذة في هذا الباب . . نذكر بعضها تبصرة وذكرى :

ابن الجوزي . . والعمر المبارك :

رأى ابن الجوزي أن العمر شرف يجب أن يصان من الضياع . متأثراً بقوله ﷺ :

« إن الله يكره العبد البطال : لا في عمل دنيا . ولا في عمل أخرى » .

وقد حدث قال :

« رأيت خلقاً كثيرين يجلسون معي . فيما اعتاده الناس من كثرة الزيارة .

فلما رأيت الزمان أشرف شيء . كرهت ذلك . وبقيت معهم بين أمرين :

إن أمسكت عليهم . وقعت الوحشة نظراً لقطع المألوف .

وإن تقبلت ضاع الوقت وساعات العمر . فصرت أدافع اللقاء جهدي . فإذا غلبت .

أقللت من الكلام لأعجل الانصراف ـ انصرافهم ـ ثم أعددت أعمالاً لأوقات لقائهم .

لئلا يمضي الزمان فارغاً .

فجعلت لوقت لقائهم :

قطع الورق . وبري الأقلام . وحزم الدفاتر . لأن هذه الأشياء لا بد منها .

وهي لا تحتاج إلى فكر وحضور قلب .

فأرصدتها لأوقات زيارتهم . لئلا يضيع شيء من وقتي بغير فائدة . أو يذهب شيء من عمري بغير ذخيرة للقاء الآخرين » .

* * *

وابن رشد :

وإذا كان الحق تعالى قد علم رسوله ﷺ ـ وهو أشرف الخلق ـ أن تظل الرغبة

في الاستزادة من العلم في نفسه قائمة دائمة . . فكم تكون مسؤولية الأمة على ما بينها وبينه من الفارق العظيم ؟

وقد وعي العلماء العارفون قدر أنفسهم هذه الحقيقة فتناسوا فيها . . وها هو ذا « ابن رشد » يعشق مجالس العلم . . التي كانت حياته . . حتى أنه لم يترك هذه المجالس في عمره الطويل إلا مرتين . . فقط :

ليلة عرسه . .

وليلة وفاة والده !

بل أن بعضهم ليكون في محاضرته . . ثم لا يقطعها . . حتى في اللحظة التي علم فيها بوفاة ولده . . فانظر كيف يترك العالم البيت . . وفيه ولده المريض . . وكان الظن أن يذهب إلى حلقة العلم تاركاً قلبه مع ولده في البيت . . ولكنه ذهب إليها بعقله . . وقلبه . . معاً !

* * *

الإمام الشافعي على الطريق :

قيل للإمام الشافعي :

كيف شهوتك إلى العلم ؟ قال :

أسمع بالحرف . مما أسمعه . فتود أعضائي أن لها أسماعاً تتنعم به . بمثل ما تنعمت به أذناي !

فقيل له : فكيف حرصك عليه ؟ قال :

حرض الجموع . المنوع في بلوغ لذته للمال .

فقيل له : فكيف طلبك له قال :

طلب المرأة المضلة ولدها ـ التي ضاع ولدها ـ وليس لها غيره !

* * *

وهكذا . . تمنى الشافعي أن لو كان كيانه كله أذاناً صاغية . ليستقبل بكل مداركه المسألة من العلم . . هياماً بها . وشوقاً إليها . .

فإذا حصل المسائل كان أحرص عليها أن تتفلت منه من البخيل الذي جمع مالاً وعدده . . وذلك بمدارستها . . ومذاكرتها . . استعلاء على آفة العلم وهي النسيان . .

وسيظل أبداً كالنحلة الهائمة وراء رزقها وكالأم الوالهة . . ضاع ولدها فلم تبق اللهفة في قلبها سواه .

*   *   *

العلم . . لذات العلم :

ولم يكن الشافعي يطلب العلم لمجرد الحصول على شهادة عليا . . وإنما ليسري إلى كل راغب فيه . . وإن لم ينسب إليه :

قال وهو مريض . بعد ما ذكر ما جمع من كتب :

(وددت لو أن الخلق تعلموه . ولا ينسب إلى منه شيء .

وددت لو أن كل علم أعلمه . . يعلمه الناس : أوجر عليه . ولا يحمدونني)

*   *   *

وهذا الإخلاص النادر . . أثمر في قلب الرجل من المروءة وعزة النفس ما حمله على أن يقول لولده يوماً :

يا بني : والله . لو علمت أن الماء البارد يؤثر في مروءتي شيئاً ما شربته إلا حاراً .

وفي رواية : ما شربته .

وهو معنى قوله :

همتي همة الملوك ونفسي   نفس حر ترى المذلة كفراً

*   *   *

« والفيروزأبادي » حفظ القرآن الكريم . وهو ابن سبع سنين . وكان سريع الحفظ . واستمر له ذلك في حياته . وكان يقول :

« لا أنام حتى أحفظ مائتي سطر » .

*   *   *

وتأمل كيف يحرص طالب العلم على حفظ ما يساوي بحثاً مكتوباً . . كل يوم . . وقبل أن ينام . .

نقول : يحفظ . . ولا يكتفي بالقراءة . . ثم تصور إلى أي درك سقطت همة

بعض الطلاب اليوم . . لما أضاعوا نهارهم وليلهم في نشاط سطحي لا يخدم قضية الإيمان . . وكيف جرفهم الانفعال فلم يبق لهم لحظات يحفظون فيها حتى أجزاء من القرآن الكريم .

* * *

من أجل ذلك . . ظل أمثال « الفيروز بادي » في ضمائرنا أحياء .

(خزان المال . ما تواهم أحياء . والعلماء باقون ما بقي الدهر .

وإن ماتوا فأعيانهم مفقودة . وأمثالهم في القلوب موجودة .

وإذا مات العالم انثلم بموته ثلمة في الإسلام)[1] .

قال ﷺ :

« **تناصحوا في العلم . . فإن خيانة في العلم أشد من خيانة في المال** »[2] .

* * *

المحابر . . إلى المقابر :

(إن العلم لا يضبط باللجام . ولا يصطاد بالسهام . ولا يورث عن الآباء والأعمام .

إنما هو : اقتحام المخاطر . واحتضان الدفاتر . واصطحاب المحابر إلى المقابر) .

وفي الحرص على العلم :

يروى أنه قيل لبرز جمهر ، بم نلت ما نلت ؟

قال : (ببكور كبكور الغراب ، وتملق كتملق الكلب ، وتضرع كتضرع السنور ، وحرص كحرص الخنزير ، وصبر كصبر الحمار) .

* * *

وملاك ذلك كله الصبر على تحصيل العلم صبراً ينسى به طالب العلم حظ نفسه ليمحض جهده كله للتلقي . . ثم لهضم ما تلقاه . . لتبدأ مهمته في نشره .

* * *

---

(١) بصائر ذوي التمييز ج ١/٤٣ .
(٢) البيهقي وأبو يعلى .

وكان الخليل ابن أحمد إذا خرج من بيته يقول :

إذا وجدت رجلاً أعلم مني بمسألة . . فهذا يوم الفائدة .

وإذا رأيت مساوياً لي . . فهذا يوم المذاكرة .

وإذا رأيت من هو أقل مني . . فهذا يوم الثواب .

* * *

ويعني ذلك سريان الروح العلمية في كيان الرجل الذي يقضي يومه متعلماً . . يتعلم ممن فوقه . . ويذاكر مع مثله . . أو يعلم جاهلاً . . مدفوعاً في كل حال بعواطف التقدير لمن علمه . . وعواطف الاشفاق على من يعلمه هو .

وبمثل هذه الروح تتم المنفعة فصولاً . .

* * *

وكان بعض العلماء يفت الخبز في الماء . . ليزدرده سريعاً . . توفيراً للوقت الذاهب في المضغ لو كان يابساً !

ثم يقول :

فإذا شغل لساني عن المذاكرة أو المناظرة . . وانصرف بصري عن مطالعة أو قراءة . . أعمل فكري في حال راحتي . فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره . وإن حرصي على العلم في عشر الثمانين أشد مما كنت أحبه وأنا في العشرين !

وكان ينشد :

يا ويحَ وإنِ تقضّى عمره لعبا والله باعثه جدا وسائله
لَينـدَمَنْ حيث لا تجدي ندامته عليه شيئاً ولا تغني وسائله

* * *

العلم حياة :

إن الحق تعالى . . بالخَلْق : أوجد الإنسان من عدم . . فصار بشراً سوياً . . ثم هو بالعلم . . خرج من ظلمات الجهل . . فتم وجوده كمالاً . .

* * *

الرحلة في طلب العلم :

تظل المعاني المجردة أطيافاً في الذهن لا تستقر . . ولا تمسك بها الذاكرة طويلاً .

ومن هنا كانت رحلة الطلاب الميدانية سبيلاً إلى ترسيخ هذه المعاني والتمكين لها في العقول والقلوب .

ويعني ذلك : الأخذ في الاعتبار ما لرحلات الطلاب الموسيقية من فائدة علمية :

تتجاوب مع فطرة الإنسان المولعة بالمعرفة والتي تستجيب لرغبة النفس في السياحة ترفيهاً وتنشيطاً للمدارك .

ثم تستقر بها المعاني حين يرى الطالب وعلى الطبيعة ما يقرأه مسطوراً بين دفتي الكتاب المدرسي . يراه بين يديه واقعاً ملموساً .

وإذن . . فلا بأس من ادخال الرحلات كعنصر أساس ضمن مناهج التربية . . على أن تكون إلى المواطن المهمة ـ لا لمجرد الترفيه ـ تلمساً للعبرة . . وطلباً للخبرة .

ولذلك يوصي ابن خلدون أن تكون الرحلة في طلب العلم إلى الأمكنة الحافلة بالمعارف الجديدة يقول : « إن الرحلة في طلب العلم . لا بد أن تكون إلى الأمصار المستبحرة . شأن الصنائع كلها » .

* * *

ومهما تكن الرحلة طويلة . والتكاليف باهظة إلا أن المردود العلمي يكون خير عوض . يقول أبو الدرداء :

« لو أعطيتني آية من كتاب الله تعالى . فلم أجد أحداً يفتحها علي . إلا رجل ببرك الغماد[1] . لرحلت إليه » .

ولم يكن أبو الدرداء مبالغاً . . ولا راكباً شططاً . . وهو الكاسب في النهاية . . عكس ما يظنه الكسالي .

وذلك ما يقرره الشعبي في قوله :

« لو أن رجلاً سافر من الشام إلى أقصى اليمن ليسمع كلمة حكمة . ما رأيت أن سفره ضاع » .

ومن الأمثلة التي تذكر لرحلات العلم في هذا الباب ، وهي قليل من كثير ،

---

(١) مكان بأقصى اليمن يضرب به المثل في البعد .

رحلات الخليل ابن أحمد ، والكسائي ، والأصمعي ، وأبو عمرو بن العلاء ، وأبو زيد الأنصاري وهم من اللغويين ، فقد كانوا يرحلون إلى البوادي ، ويسمعون اللغة ، والأدب من الأعراب ، ثم يدونون ما يسمعونه وهذا الإمام البخاري في مطلبه للحديث ، يضرب آباط الإبل ، ويتحمل وعثاء الرحيل ، ويتقلب في البلاد ، بين خراسان والجبل ، وأمصار العراق ، وبين الحجاز والشام ومصر .

ومسلم صاحب الصحيح ، لا يقل عن صاحبه البخاري ، ولا يقصر عن شأوه ، في احتمال مشقات السفر ، بين نيسابو ، والحجاز ، والشام ، ومصر . . استقصاء لما يروى من الأحاديث وتلقياً لها من أفواه المحدثين الثقاة . .

وقد بلغ من شدة حرص المحدثين ، على تلقي الأحاديث ، أنهم كانوا يعملون المطايا ويتحملون مشقات السفر ، ووعثاء الطريق ، في سبيل الحصول ، حتى على حديث واحد فقط ، من أحاديث النبي ﷺ . . فهذا جابر بن عبد الله ، يشتري راحلة ، فيشد عليها رحاله ، ويغذ بها السير شهراً كاملاً ، حتى يقدم الشام ، للوقوف على حديث بلغه عن رجل من الصحابة ، كان مقيماً بالشام . .

وجاء في جامع بيان العلم . أن مسروقا المحدث ، كان يرحل في طلب حرف واحد . . وأن أبا سعيد كان كذلك يرحل في حرف واحد . .

وكذلك يروي ياقوت : أن أبا زيد أحمد بن سهل البلخي . . سافر من بلخ إلى أرض العراق وبقي بها ثماني سنين ، يتلقى العلم على أعلامها ، وطوف بالبلاد المتاخمة لها ، وحصل علوماً جمة ، وبحث عن أصول الدين ، وتعمق في الفلسفة ، وتخرج فيها على أبي يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي ، كما برز في علوم الطب ، والتنجيم ، والهيئة ، والطبائع . .

وغير ذلك من الأمثلة والشواهد التي تدل على جهاد هؤلاء العلماء الأعلام ، وارتحالهم في سبيل العلم ، مع صعوبة الأسفار ، وبعد المسافات .

ويقول الكاتب الإسلامي أحمد أمين في ذلك . . « ترى العلم في المشرق . . فإذا هو في الأندلس ، إذا هو في العراق ، وفيما هو في العراق ، إذا هو بمصر والشام ولا يعوقهم فقر ، ولا يفت في عزمهم صعوبة الطريق ، وأخطاره ، سواء عليهم الصحراء وحرها ، والبحار وأمواجها ، إذ تغلغل في نفوسهم ، أن طلب العلم جهاد . فمن مات في سبيله . مات شهيداً . هذا إلى أن العلم عند كثير منهم أصبح مقصداً لا وسيلة يقصد لذاته ، سواء انتج فقراً أو غنى ، أو حياتاً أو موتاً .

* * *

مسؤولية الشباب :

يتجه إلى الشباب تنبيه خاص أن يستغلوا فترة الخصوبة في تحصيل العلم . . وليكن في وعيهم دائماً هذه الأسئلة التي لا مفر من الاستعداد للإجابة عنها :

سوف يسأل كل إنسان : عن العمر . . فيم أفناه . .

وعن شبابه . . فيم أبلاه . .

وعن ماله . من أين اكتسبه . وفيم أنفقه .

وتأمل كيف كان الشباب مندرجاً في رحلة العمر . . لكنه خص بالذكر لأن المسؤولية عنه أكبر وأخطر .

* * *

مثل من حياتنا المعاصرة :

وهذا مثل للإدمان . . إدمان القراءة الواعية الكاشفة عن أسرار الكون . . نضربه لشبابنا ليكون لهم قدوة ينسجون على منواله :

إن القراءة : للمتعة الذهنية . . ثم لتغيير السلوك إلى الأفضل كما أشرنا . . ثم للكشف عن سنن الله تعالى في الكون ترقية للحياة التي كان من أولى مسؤوليات المسلم عنها . . أن يستعمرها :

كتب أمين مكتبة المنصور شهادة أعطاها للتلميذ أنيس منصور فيها :

تشهد مكتبة المنصورة أن الطالب أنيس محمد منصور استطاع أن يقرأ كل ما في المكتبة من كتب وعددها ١٤٣٥ كتاباً . .

وكان حينئذٍ في الخامسة عشرة من عمره !

ويقرر أنه حتى سنة التخرج لم يشغل نفسه بمطالعة مجلة مصوّرة . ولا قرأ كتاباً للتسلية . . بل هي القراءة الجادة المفيدة . إلى جانب أنه لم يدخل « سينما » حتى تخرج من الجامعة !

* * *

وكان قبل ذلك قد تزود بحفظ القرآن الكريم الذي منحه طلاقة في التعبير . وتذوقاً لمعانيه الجليلة الجميلة . وما زالت القراءة هوايته حتى اليوم . .

* * *

وفي حديث له بالأهرام . . كشف النقاب عن أبعاد القراءة والكتابة وكيف أخذ

الإنسان بالقراءة والكتابة طريقه إلى الخلود بنقل تراثه من جيل إلى جيل . .

وحتى خيال الشعراء الطليق . . كان مفتاحاً لتلك النهضة الكبرى . التي يعيشها العالم اليوم :

قال : ليست القراءة حشو الدماغ . . كحشو المعدة بالطعام . . ولكن المهم هو المتعة . .

وكما أن الإنسان لا يعيش ليأكل . . بل يأكل ليعيش . . فكذلك هو يقرأ ليعيش . . ولا يعيش ليقرأ . .

وعندما ذهب نابليون إلى المنفى . كان ينتظر السفينة القادمة من فرنسا المحملة بكتب جديدة . وقد قرأ في منفاه سبعة آلاف كتاب . بل أنه كان في الجبهة حريصاً على القراءة . ولا يكاد يفرغ من كتاب حتى يلقيه من نافذة عربته . .

* * *

يكتبون والأغلال في أيديهم :

و (هناك مؤلفون كبار . ارتفعوا فوق جدران السجون والسلاسل . فكتبوا وهم في الأغلال . ولا يوجد ظلم لا يستطيع الإنسان أنْ يتعالى عليه باحتقاره .

والأديب الأسباني « سرفنتس » كتب روايته الرائعة في السجن . .

و « أوسكار وايلد » كتب « من الأعماق » في السجن .

والعقاد كتب « عالم السدود والقيود » في السجن) .

* * *

وتخرج الكتب من هذه المضايق لتكون « مصابيح تهدي . . وسلماً يرفع . وأطواق نجاة تنقذ الإنسان من طوفان اليأس وخيبة الأمل .

* * *

من الخيال إلى الحقيقة :

(جاءت كتب الخيال العلمي فانتشلت الإنسان . . حيث أنعشت عقله ووجدانه . . ثم طارت به إلى عوالم أخرى هرباً من هذا العالم :

وهذه الكتب هي التي دفعت العلماء إلى تحقيق أحلام الأدباء والشعراء . . فقبل أن يدخل عصر الرحلات الفضائية منذ دخله الكاتب الفرنسي « جيل فرن » والكاتب الأنجليزي هـ . ج . ولز . . . وكان الشعراء أسبق الجميع إلى القمر .

ولكن شاعراً واحداً لم يفكر في السفر إليه أو الهبوط فوقه . . وإنما عشق القمر من بعيد لبعيد . . الذين أشعلوا النار في خيال العلماء هم الأدباء الذين اخترعوا سفن الفضاء ووسائل الهبوط عليه والإقامة هناك لمحاربة سكان المريخ والكواكب الأخرى !

فالأدباء هم الذين ارتادوا الكواكب المجهولة قبل أن يصلها العلماء . ولكن العلماء جميعاً يعترفون بأن الفضل الأول في شجاعتهم مصدره الأدباء الذين تخيلوا وصمموا سفن الفضاء وخططوا للبقاء والقتال والعودة إلى الأرض ثم استئناف الرحلات إلى الكواكب الأخرى حتى هذه الرحلات الفضائية ليست إلا نوعاً من الهرب من هذه الأرض . . ولكنه هرب ليس تاماً . فالذين يهربون إلى الكواكب الأخرى . أو يحاولون . هم الكافرون بالأرض . . فليكن . المهم أنهم وجدوا أماكن أخرى لاستئناف نوع جديد من الحياة . . تماماً كما انتقل المجرمون من بريطانيا للإقامة في أستراليا . . وكما هرب المضطهدون والمعذبون من أوروبا إلى أمريكا من خمسة قرون . . وفي ذلك توسيع لمجال الحياة الإنسانية ونجاح لتحديات الإنسان واستئناف للقتال والصراع والإبداع ولكن بصورة أخرى . . وهي فرصة لكتب جديدة تتخيل حياة من نوع جديد في كواكب أخرى !

* * *

الجوهري . . النحوي . . الطيار ! :

كان لإسماعيل الجوهري باعه الطويل في علم النحو وأصول اللغة . وقد بدأت رحلته في طلب العلم مبكرة :

استدعاه خاله ـ الفيلسوف الفارابي ـ من حجرته . فلم يرد عليه . . لأنه كان مستغرقاً في القراءة رغم صغر سنه . . فلما أيقظته أمه من سباحته العميقة في بحر من بحور المعرفة جاء ومثل بين يدي خاله . . الذي وجهه إلى بغداد .

ولما وصل إلى بغداد . سأل عن أعلم النحاة هناك . فقيل له :

إن السيرافي . . فقال :

جئت لأطلب العلم من . . .[1] .

فقال له صاحبه لا تكمل . . فإنما هو العالم النحرير . . وقد أخذ عنه وتعلم منه .

* * *

---

(١) سرف من باب : تعب : جهل أو غفلة . فهو سرف .

ثم سار إلى الحجاز وقال لشيخه هناك : أريد أن أتعلم اللغة . . لغة ربيعة ومضر . . فوجهه شيخه إلى هناك قائلاً : اذهب واسمع منهم .

* * *

ولقد خلف من ورائه كتباً كثير في : النحو . واللغة . والأدب . ومع ذلك فقد شوهد في آخر حياته فوق سطح بيته . . أو فوق سطح المسجد . . يحاول الطيران .

وتزاحم الناس مشدوهين مما يرونه . . ولما نبهوه مذعورين إلى خطورة ما يصنع قال لهم :

إن الطير لا يطير وحده . . ولكن لو فعلنا مثله لطرنا أيضاً !

وقد أخذ لوحين من باب داره . . وصنع منهما جناحين له . . ثم حاول الطيران . . ولكنه سقط ومات . .

ولكن التجربة لم تمت . . وكانت شاهداً شاخصاً أمام الباحثين الذين طوروا الفكرة . ثم كانت على ما هي عليه الآن .

والأصل فيها : عالم مسلم . لم يحبس نفسه في سجن من القواعد والمصطلحات . ولم يجعل من طلب العلم سبيلاً إلى الشهرة أو المال أو المنصب . .

ولكنه جعل من العلم . . علم النحو واللغة على جفافه . . مدخلاً إلى حركة علمية تسعد الحياة . .

* * *

أقول هذا . . ومن بين يدي . . ومن خلفي . . شباب جمدوا روح الابتكار فيهم زاعمين أنهم بالحماس وحده يخدمون دينهم وأوطانهم . .

وعليهم أن يرفعوا أبصارهم نحو هذه القمم العالية . . ليتأكد لهم أن أحدهم بالنسبة لهذا العالم الجليل كما قيل :

إن طالب اليوم يتنقل . . أما الجوهري فيتقدم . .

وحياة طالب اليوم : رؤى في الأحلام . . بينما علم الرجل رؤية على الطبيعة . .

= ويقال : طلبتهم فسرفتهم : أخطأت أو جهلت .
ومعنى كلام «الجوهري» أنه جاء يطلب العلم من جاهل ؟!! .

طالب اليوم قلب صغير . . بينما الجوهري عقل كبير . .

إنه بالقراءة . . إنسان . . وأنت بالغفلة . . ذكرى إنسان . . وهو عزم أكيد . . لو أقسم على الأرض لكفت عن الدوران . .

وبعد :

فأنت من قراءتك المتعجلة الضحلة تمسك في يدك شمعة . . بينما هو من قراءته العميقة العريضة يمسك بالنجوم . . بل بالشموس !!

* * *

مسؤولية الدولة :

والدولة مسؤولة أن توفر للعالم . . وللمدرس هذا الجو المهيب ليؤدي مهمته بنجاح . . لقد تعرض المدرس عبر القرون ـ ومدرس اللغة العربية والدين بالذات ـ لحملة من السخرية ، هز الشخصية التي تهتز تبعاً لها مادته !

وهكذا وصى المستشرق « زويمر » في محاولة ماكرة لعزل الشباب عن دينه . وواجب الدولة أن تتصدى لمثل هذه الحملات . . إذا كانت تريد التمكين للخلق الكريم في قلوب الناشئة .

* * *

وتزداد مسؤولية الدولة إذا ما علمنا أن طبيعة التدريس ذاتها لا تشجع على المضي فيها . .

والذين يمارسون اليوم ـ أو أغلبهم ـ إنما تحملهم الضرورات على ركوب الصعب !

وإنهم لينظرون إلى إخوانهم في المواقع الأخرى فيجدون الفارق الضخم . . والذي يخص غيرهم بالرزق الواسع . . والمنصب الكبير . . دونهم . . مع أنهم الذين خرجوهم . . وعلموهم !

فالمعلم على الصعيد الدولي ـ يجد نفسه محدود الفرص للترقي ، محدود الفرص للكسب المادي ، محدود التقدير الاجتماعي أيضاً ، وذلك بمقارنته برفاق دراسته ، ممن عملوا في مجالات أخرى ، وهنا يدرك بأن مهمته هذه ، إنما هي مهنة على درجة من التواضع ، والمكانة الاجتماعية المتدنية ، مما يزيد بشعوره بالتعاسة ، وبأنه أفسد حياته بمنغصات المهنة التي يمارسها عن عزوف وعدم رغبة ، بينما ، هي في حقيقتها لا تقل نبلاً عن أي مهنة أخرى ، إن لم تكن في مقدمتها جميعاً .

وربما يكون في مقدمة الأسباب التي يلتمسها الشباب في عدم تقبلهم لمهنة التدريس ، وضعف إقبالهم عليها ، هو أنهم يرون غيرهم ممن يعملون في مجالات أكثر صلة بجماهير الناس ، يحظون بالكثير من التقدير والمكانة الاجتماعية .

ونحن ، نلمس ذلك بأنفسنا ، ومن واقع حياتنا ، فالطبيب ـ مثلاً ـ عندما يقوم بفحص المريض ، ويكتشف سبب علته ، ثم يتابعه بالعلاج ، فيقضي على ما كان يشكو منه ، من ألم وسقم ، هنا يجد الجزاء الفوري من هذا المريض أو من أقاربه أو معارفه ، يجده في صورة تقدير ، أو إعجاب أو إفاضة في الأجر ، أو ارتياح في النفس ، أو غير ذلك .

والمهندس . . الذي يقيم المشروعات ، فيبني أو يشيد ، أو يصمم ، أو ينفذ ، أو يشق الطريق ، أو يكهرب المدن ، أو يستخرج البترول . . إلى غير ذلك من نوعيات مهنته ، يحس الناس ـ خلال وقت قليل ـ بنتيجة عمله ، فيقدرون عمله ، وإنتاجه ، تقديراً فورياً وملموساً .

ورجل الجيش الذي يدافع عن أمته عادية الأعداء ، أو يسهر على حمايتها ، أو يجاهد في سبيل تحريرها ونصرتها ، فيقتل ، أو يقتل ، أو يحرز لوطنه النصر ، يجد جزاءه كتقدير اجتماعي عاجل .

ورجل الشرطة ، الذي يؤمن سلامة مواطنية في حياتهم اليومية . ويشعرون بالحفاظ على ما يمتلكون ، ويجدون في عمله ، تيسيراً لبعض أمورهم ، أو تعاملهم ، أنه أيضاً ينال تقدير الناس وإعجابهم .

والصانع ، الذي يقدم للناس ما ينتجه فكره ويده : من أجهزة ، أو آلات أو معدات يجدون فيها ما يعد متطلبات حياتهم ، واحتياجات معيشتهم ، يحظى برضا الناس وتقديرهم ، ومن ثم يشعر بأهميته إلى دنياهم .

ثم هناك من يحترف حرفة ، قد تكون على جانب قليل من المهارة الفنية ، ولكن الناس يجدون في عمله نفعاً عاجلاً في حياتهم اليومية ، فذلك أيضاً ، ينال تقديرهم لأنهم يشعرون بحاجتهم إليه .

والزارع ، الذي يقوم على فلاحة الأرض ، فيستخرج مما تنبته ما يستمتع به الناس من صنوف الطعام ، وألوان الشراب ، ما يجعلهم يقدرون على عمله وجهده ، يجد هو أيضاً جزاءه في هذا التقدير .

وهكذا ، تبين ـ دون شك ـ أن التقدير ، أو الجزاء ، موقوت بفاعلية العمل ، أو الخدمة وظهور نفعها العاجل أو القريب الملموس . .

أما المعلم، فهو برغم ما يبذل من جهد ، وفكر ، وما يكون عليه من خلق ، وعلم ، وإدراك لمتطلبات مجتمعه إلا أن عمله ـ كإعداد للأجيال ـ لا تظهر نتيجته بالسرعة التي تظهر بها نتيجة عمل كل من تناولناهم بالذكر .

فعائد عمل المعلم ، مؤجل ، قد يكون على مدى جيل كامل ، أو على مدى سنوات ، أو في أقرب الاحتمالات ، على مدى شهور ، وفرق بين عاجل ، وآجل ، بالإضافة إلى ذلك فإن المعلم بمثابة فرد ضمن فريق متكامل يضم مجموعة أفراد ، كل له نصيب في عمل هذا الفريق[١] .

إن الصلة وثيقة بين الرزق والنجاح في أداء العمل . . وما لم يكن الرزق مكفولاً . . والهيبة محفوظة . . فلن تكون هناك تربية ولن يكون هناك تعليم . .

إن الفلاح في حقله قد يشق صدر الأرض . . ثم يبذر ، ولو أثقلت رأسه هموم ثقيلة . . لأن مهنته في ساعده !! ولا يهم كثيراً أن يفرغ باله !

أما المدرس فإن مهنته في رأسه . . فإذا شغل هذا الرأس بهموم العيش ، فأنى له النجاح وقد تعطلت وسيلته ؟

لقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه :

لو احتجت بقلة . . ما فهمت مسألة !

وكان أحد ملوك فارس يستدعي العلماء ليستشيرهم في أمور الدولة . فإذا لم يصيبوا في آرائهم استدعى مسؤول التموين . وأوجعه ضرباً . لأن نقصان العقل من ورائه نقصان الرزق .

* * *

من ثمرات العناية بالمدرس :

إن العلم هو :

ركيزة النجاح . ومن ثم فالثقة به . وحب الطلاب له . هما المنطلق الوحيد

---

(١) د . عرفات ـ التربية .

لهذا النجاح . ذلك بأن المباديء تأخذ قيمتها من قيمة المربي فإذا كان محل ثقة طلابه .

وإذا كان جديراً بحبهم . . كان لدروسه نفس التقدير .

فإذا توفر الدرس :

أ ـ العناية المادية :

ب ـ والتقدير الأدبي .

إذا توفر له ذلك أعطى جهده ووقته وخبرته لدولة لم تبخل عليه يوماً .

* * *

المدرس بين الواقع . . والمتوقع :

ولكن واقع المدرس كان على غير ما يريد . . ونريد له :

فقد فرض عليه وضعه المادي الهابط . . ثم ضياعه في زحمة زملائه في مواقع أخرى من الدولة سبقوه إلى الثروة والمنصب . .

فرض عليه ذلك أن يخترع ما يسمى « بالدروس الخصوصية » وبهذه الدروس اهتزت ركيزة الاصلاح . فقد تبددت الثقة بمعلم يجهد نفسه في الدرس الخاص . . على حساب درسه في المدرسة . ثم غاض معين الحب . . حين أرهق تلاميذه من أمرهم عسراً . . فباعوا أثاث البيت ليغطوا نفقات الدروس .

* * *

هذا إلى جانب طوائف أخرى من المعلمين لا تمنحهم طبيعة المواد المنوطة بهم ميزة التدريس الخاص . . فكان أن وقع المدرس بين شقي الرحى . .

وجمدت ملكة الابتكار لدى طلاب العلم بعد ما اعتمدوا على المدرس الذي باتت وظيفته تجارية بحتة . . ولم يعد يعنيه أن يمتد نهر الحياة من بعده .

وكيف تأخذ العملية التعليمية سمتها اللائقة في جو: لا يسمح بالحوار الحر . . كما لا يدع لدى المدرس المرهق فرصة لتنمية المدارك لدى طلابه .

* * *

إنقاذ ما يمكن إنقاذه :

وفي محاولة للقضاء على هذه الظاهرة نقترح أن تضاعف رسوم دخول

الطلاب . . لتغطي نفقات التعليم . . بحيث ينال المدرس منها نصيب الأسد . . حتى يتفرغ لمادته وطلابه . .

إن أقل بيت في مصر يدفع مئات الجنيهات ثمناً للدروس الخصوصية :

فلماذا لا تتدخل الدولة لترفع هذه الرسوم بمقدار النصف مما يدفعه أولياء الأمور مثلا . .

لماذا نصر على الدفع سراً . . ونأباه علانية ؟!

ربما كان الدافع هنا هو الاصرار على بقاء شعار « مجانية التعليم » ولا يهم بعد ذلك أن ينهار صرح التعليم .

* * *

اعتراض :

ربما يقال : إن في الطلاب الذكي . . والأذكى . . والغبي . . والأغبى . . فلا بد من مزيد عناية بالضعيف حتى يلحق بالقوي . . وذلك عن طريق المدرس الخاص .

والجواب :

أولاً : أن أسلافنا العظام هدوا إلى تجاوز هذا المنعطف . باجتماع الطلاب في حلقات . . وفور تلقي الدرس . . ليتذكروا جميعاً ما تلقوه . . ولا شك أنهم مستويات متعددة :

فيهم صاحب الذاكرة الواعية . . وفيهم الذكي . . ضعيف الذاكرة . . إلى جانب مهاراتهم وقدراتهم التي تتكامل بالاجتماع . والأخذ والعطاء كما كنا نفعل ونحن طلاب . فنتخطى أعقد المسائل العلمية .

وإذا كان العلم لا يضيع بين اثنين . . فأولى ألا يضيع بين مجموعة متكاملة .

يقول الترمذي[1] :

(وينبغي للمتعلم أن يتدارس على الدوام . ويتذاكر المسائل مع أصحابه أو وحده) .

فقد روى يزيد الرقاش عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

---

(١) بستان العارفين ٢٠/ ٢١ .

كان رسول الله ﷺ يحدثنا بالحديث . ثم يدخل بيته فنتذاكر بيننا . فكأنما زرع في قلوبنا .

وذكر في قوله تعالى : ﴿ **يا يحيى خذ الكتاب بقوة** ﴾ يعني : بالدرس بجد ومواظبة . ويقال في المثل : عليك بالدرس . فإن الدرس هو الغرس .

وقيل لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما . بم أدركت هذا العلم قال ؛

(بلسان سؤول ، وقلب عقول . وفؤاد غير ملول) .

* * *

ولقد كانت مجالس المذاكرة تحت إشراف العلماء . . الذين تكلفت الدولة برواتهم . . فمحضوا أوقاتهم لطلابهم . . وإذا بدت من التلميذ في هذه المجالس بادرة غفلة يستغلها المشرفون العلميون فرصة للتصويب واستثمار الموقف لمزيد من الدروس .

قال أبو جعفر الصحاوي :

كنت عند أحمد بن أبي عمران . فمر بنا رجل من بني الدنيا . فنظرت إليه وشغلت به عما كنت في المذاكرة .

فقال لي :

كأنك قد فكرت فيما أعطي هذا الرجل من الدنيا . .

قلت له : نعم . قال :

هل لك أن يحول الله إليك ما عنده من المال . ويحول الله إليه ما عندك من العلم . . فتعيش غنياً جاهلاً . . ويعيش فقيراً عالماً ؟

فقلت : ما أختار ذلك :

فالعلم : غنى بلا مال . وعز بلا عشيرة . وسلطان بلا رجل .

* * *

ويلاحظ هنا ما يلي :

أ ـ وقوع طالب العلم تحت تأثير مظاهر الترف من حوله .

ب ـ الرقابة الواعية من قبل المشرف .

جـ ـ صدق الطالب في إعلان الحق . . والذي لم ينتحل لانشغاله أسباباً غير حقيقية .

د ـ صدق المشورة التي وافته بالدرس المفيد . المشتق من هذا الموقف .

هـ ـ نجاح عملية التربية موكول إلى :

ـ صدق الطالب مع نفسه ومع مدرسه .

ـ وصدق المشورة من المعلم المؤتمن عليه .

* * *

ثانياً : لا بد من مراجعة المناهج لتنسجم مع المستويات الطلابية . . فيبدأ فيها بالأسهل . . الخالي من التعمق . . البعيد عن الخلافيات . . في محاولات مكرورة تتودد بها إلى الطالب ليحب العلم . . ويحب المعلم . . ولا بأس إذا تطلب هذا أن تمتد المراحل التعليمية سنوات أكثر . . لا سيما وطوابير العاطلين تمتد سنوياً . . مما لايجعل لاختزالها قيمة عملية . .

* * *

يقول الإمام الغزالي محذراً من مغبة ذلك :

(ينبغي أن يحترز الخائضون في العلم في مبدأ الأمر عن الاصغاء إلى اختلاف الناس . . سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أو علوم الآخرة .

فإن ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه . ويفتر رأيه . ويؤيسه ذلك عن الادراك والاطلاع .

بل ينبغي أن يتيقن أولاً الطريق الحميدة الواحدة المرضية عند أستاذه ، ثم بعد ذلك يصغي إلى المذاهب والشبه) .

ثم يوصي الغزالي :

(ألا يخوض في، فن حتى يستوفي الفن الذي قبله : فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً . وبعضها طريق إلى بعض . والموفق من راعي ذلك الترتيب والتدرج) .

قال الله تعالى :

﴿ **الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته** ﴾ .

أي : لا يجاوزون فناً حتى يحكموه علماً وعملاً .

ويضرب الإمام الشاطبي بعض الأمثلة الموضحة بقوله :

(إن تعليم الشريعة . وبيان أمور الدين يجب أن يكون بما يليق بجمهور الناس . دون اللجوء إلى التعمقات الفلسفية العويصة) .

فإذا قيل : ما الملَكُ ؟ قيل : خلق من خلق الله يتصرف بأمره .
أو معنى الكوكب ؟ قيل : هذا الذي تشاهده بالليل .
وعلى هذا وقع بيان الشريعة كما قال عليه السلام :
« الكبر بطر الحق وغمط الناس . ففسره بلازمه الظاهر لكل أحد » .

الفصل الثاني

من مجالس العلم

فن السؤال في القرآن الكريم :

إذا كنا بصدد الحديث عن مجالس العلم في ضوء القرآن الكريم . والسنة المطهرة . . وإذا كان السؤال وسيلة فعالة في تحصيل العلم . . فيجدر بنا أن نمهد للقضية بالإشارة إلى آداب السؤال في الإسلام . ليكون في الالمام بها فائدة يظل بها الدرس مفيداً .

وعن فن السؤال نقرأ قوله تعالى :

﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾[١]

وتطالعنا الآية الكريمة بأمور منها :

١ ـ إن الله تعالى اصطفى من البشر أفضلهم ليكونوا رسله إلى عباده .

٢ ـ وإن هؤلاء الرسل كانوا رجالاً . . لا نساء . . ومن ثم فهم القادرون على استقبال الوحي الأعلى . . وتحمل تبعة البلاغ بما منحهم الله من مواهب رشحتهم لهذه المسؤولية العظيمة .

٣ ـ وإذن فعنصر الرجولة عامل مهم في نشر العلم . وتزويد الباحثين عن الحق بالجواب الشافي الكافي .

٤ ـ ولكن عملية السؤال والجواب تتم ضمن ضوابط أشارت إليها الآية

---

(١) الأنبياء ٧ .

الكريمة . . فيما يتعلق بأهمية السؤال . . وواجب السائل . . والمسؤول . . ومتى يكون السؤال ؟

بالنسبة للسؤال فنحن مأمورون به . بنص الآية الكريمة استكشافاً لآيات الله تعالى في الأنفس والآفاق .

ويتطلب ذلك :

أن يكون السؤال موضوعياً . يمثل حاجة حيوية من حاجات الأمة . متصلاً بحياة الناس اليومية . وإلا يكون ترفاً عقلياً يضيع الوقت والجهد فيما لا يجدي .

وألا يقصد به الإحراج . أو كسب معركة كلامية .

وأن يكون موضوع السؤال مما يدخل في قدرة العقل البشري .

وفيما يتعلق بالمسؤول :

فينبغي أن يتجه السؤال الجاد إلى أهل الاختصاص . من ذوي الخبرة والدراية في موضوع السؤال . وإلا . . فإن سؤال الجاهل جاهلاً مثله دوران حول النفس لا يضيف جديداً بل قد يزيد المسألة تعقيداً .

أما عن السائل نفسه . . فيجب أن ينزه نفسه عن السؤال فيما يعلم . . وإلا كان عابثاً أو مغرضاً .

ولذلك تقول الآية الكريمة :

﴿ . . إن كنتم لا تعلمون ﴾

وإذا كان مسترشداً حقاً فليحاول بالسؤال أن يفوز بصيد جديد . . وأن يستثمر الوقت قبل أن يضيع في تحصيل الحاصل في حركة مباركة يزداد بها علماً .

يقول سبحانه وتعالى :

﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وائتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون . وقاتلو في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾[1]

سبب النزول :

(سأل معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم فقالا :

---

(١) البقرة ١٨٩ : ١٩٠ .

ما بال الهلال يبدو دقيقاً كالخيط . ثم يزيد حتى يستوي ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ) . .

(وكانت الأنصار إذا أحرموا لم يدخلوا داراً ولا فسطاطاً من بابه . ويعدون ذلك براً .

فبين لهم أنه ليس وإنما البر : بر من اتقى المحارم والشهوات)[1] .

وقد نزلت الآية الكريمة مرشدة لهم . محتفظة للسائل بحقه في السؤال إلا أنها توجه إلى آدابه المحققة لفوائده :

فقد سألوا سؤالاً في الجغرافيا من لا يدخل في اختصاصه دراسة الجغرافيا !!

فسددت الآية خطاهم على الطريق :

يقول البيضاوي :

(لما سألوا عما لا يعنيهم . ولا يتعلق بعلم النبوة وتركوا السؤال عما يعنيهم ويختص بعلم النبوة . عقب بذكره جواب ما سألوه تنبيهاً على أن اللائق بهم أن يسألوا أمثال ذلك ويهتموا بالعلم بها)[2]

أي أن السؤال لم يعبر عن حاجة حيوية ضرورية لأمور معاشهم . ثم هو لم يدخل في نطاق ما كلف الرسول بإبلاغه . . فجاء الجواب معلماً لهم كيف يسألون . . ومن يسألون . . وعن أي شيء يكون سؤالهم .

إن السائل هنا مشغول بالسماء . . بينما هموم الأرض تطوقه وتقطع عليه طريقه . . ويفرض عليه الواجب أن يشغل نفسه بهمومه الملحة أولاً . . قبل أن يصعد في السماء !

ولقد تلقاهم الجواب القرآني بغير ما توقعوه . تعليماً لهم . ولفتاً لأنظارهم إلى ما يجب أن يسألوا عنه : وهو المقاصد والحكم التي منها :

(لتعلموا عدد السنين والحساب) . .

ثم تنبيهاً إلى سؤال المجربين . . فليس البر أن تسأل الجهال .

ولكن البر كل البر أن تستفتي العلماء .

(ولكن البر من اتقى وائتوا البيوت من أبوابها)

ومن حكمة الله تعالى أن يلفت أنظار السائلين إلى أن وظيفتهم الحقيقية هناك

---

(١) تفسير البيضاوي .

(٢) رواه ابن ماجة .

على جبهة القتال . . ولئن أباح الإسلام لهم أن يسألوا فإن مهمتهم الأساسية ليست هذا السؤال . . وإنما حمل السلاح دفاعاً عن الحق . وذلك قوله تعالى في الآيـة التالية :

﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾

ولنا في الشافعي أسوة : فلقد اجتهد في طلب العلم . . لكنه مع ذلك كان رامياً يصيب عشرة من عشرة !

[ولا يزال السؤال مستمراً]

وإذا كان معاذ بن جبل رضي الله عنه وزميله فهما الدرس . .

فإن ناساً من الفارغين ما يزالون يسألون على غير الطريقة التي وضع القرآن أصولها :

سأل سائل شيخه متعنتاً :

ما هو برج إبليس ؟ . أجابه الشيخ الجواب المفحم : اذكر لي يوم ميلاده . . لأجيبك عن سؤالك . . فبهت الذي سأل !!

والتعبير بالمضارع قوله تعالى : ﴿ **يسألونك** ﴾ إشارة إلى أن حَمْلة الأسئلة لن تنقطع . . وأن حاجتنا إلى التصحيح ما تزال مستمرة كذلك . . مواكبة لهذه العلة التي تؤتى الدعوة من قبلها .

من قبلها .

مثال :

سأل أحد المستشرقين الإمام محمد عبده قائلاً :

يقول القرآن : ﴿ **ما فرطنا في الكتاب من شيء** ﴾ .

فهل في القرآن عدد الأرغفة المصنوعة من أردب القمح ؟!

فقال له الإمام : أمهلني وقتاً . .

وذهب الإمام فسأل خبازاً فأخبره بعدد الأرغفة . فلما طالبه المستشرق بآية تدل على ذلك صراحة .

قال له الإمام :

إن القرآن الذي يقول : ﴿ **ما فرطنا في الكتاب من شيء** ﴾

هو نفسه

الذي يقول : ﴿ فاسألوا أهل الذكران إن كنتم لا تعلمون !! ﴾

صورة من القرية :

عبر إذاعة البرنامج العام سأل سائل عن حكم ركعتين قبل المغرب ، حيث انقسمت القرية إلى حزبين متناحرين .. في معركة ساخنة .. ولن يضع المناضلون البواسل أسلحتهم قبل أن يفتيهم الشيخ بالحق في موضوع النزاع !

وقلت في نفسي :

كنت أتصور أن يكون اختلاف أهل القرية مثلاً حول قضية جوهرية كقضية ارتفاع سعر طن القمح عالمياً ـ من مائة واثني عشر دولاراً .. إلى مائة وخمسة وستين .. ثم ما هي أفضل الطرق للتعامل مع الأرض .. واستغلال كل شبر .. وكل لحظة .. وكل حيلة لزيادة الانتاج .. لنتحرر بهذه الزيادة من تحكم الغير في أقدارنا .. ثم لنكسر حدة الغلاء الذي يوشك أن يغرق السفينة بما فيها ومن فيها ..

ولكن الفرسان المغاوير اختاروا الأسهل :

أقاموا المتاريس داخل المسجد .. ثم شحذوا أسلحتهم .. في معركة وهمية .. وذهب صغارهم إلى المدينة يجلبون رغيف العيش ، وحزمة الخضار .. بينما العاطلون بالوراثة يطحنون الهواء ! وفي القرية التي شأنها صناعة الرغيف لتصدره إلى المدينة .

وقالت نفسي :

فليقتتل هؤلاء الناس ما شاء لهم أن يقتتلوا .. ولكن ليعلموا أنهم لا يتحدثون باسم الإسلام .. وأنهم أبعد ما يكون عن سنة رسول الله .. بل أنهم ليمضون في الاتجاه المعاكس لسنته ﷺ حين عطلوا فريضة إصلاح ذات البين .

من أجل سنة اشتجرت حولها الآراء !

وإلا فأن رسول الله ﷺ في التسامح .. وسعة الصدر .. ومرونة التطبيق شيء غير هذا تماماً ..

* * *

أصدقاء الداء ! :

إن انقسام القرية على نفسها من أجل ركعتين معناه :

١ ـ لو كان في القرية راغبون في اعتناق الإسلام .. لتراجعوا حين يرون صورة

الإسلام من خلال أتباعه قاتمة .

٢ ـ سوف يصبح ذلك الخلاف خدمة كبرى نقدمها للأعداء حين كفيناهم مؤونة الكيد لنا . . بعد أن تكلفنا نحن بهذا الكيد .

٣ ـ ويا للعقيدة القوية يملكها مخلصون وعليهم أن يرتفعوا إلى مستواها . . ليقدروها قدرها . . وعندما يسيء المريض استعمال الدواء . . يرتد عليه وبالاً . . والأعداء من حوله يضحكون .

* * *

حتى يحقق السؤال ثمرته :

وبما كان من المفيد أن يكون السائل ظاهراً . . لزملائه . . وذلك بإلقاء السؤال قائماً . .

ونستأنس بما روي عن أبي موسى قال :

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال :

يا رسول الله :

ما القتال في سبيل الله ؟ فإن أحدنا يقاتل غضباً . ويقاتل حمية .

فرفع إليه رأسه (قال . وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائماً) فقال : **« من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا . فهو في سبيل الله عز وجل »** .

* * *

واجب الزملاء في الفصل :

وواجب التلاميذ ألا يستغلوا فرصة الحوار بين زميلهم ومدرسهم . . ليتحدثوا . . بل عليهم الإنصات إتاحة لفرصة يستوعبون فيها ما غاب عنهم .

لأن السؤال سوف يفجر قضية ربما لم يذكرها المدرس في كتابه المقرر .

وعن أهمية الإنصات يروي أبو زرعة عن جرير :

أن النبي ﷺ قال له في حجة الوداع :

(استنصت الناس) فقال :

« لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » .

* * *

من فقه الشافعي :

قد يكون السؤال :

أ ـ استدراجاً للعالم .

ب ـ إثارة لفتنة .

جـ ـ رياء .

د ـ مداهنة للسلطان .

وعندئذٍ :

فهو مخالف لمقصود الشرع .

وللعالم الامتناع عن الإجابة .

ولذلك قالوا :

(يجب معرفة المآلات قبل الإجابة عن السؤالات) .

* * *

وقد كان مجلس الإمام الشافعي مدرسة يتعلم فيها طالب العلم : فن السؤال . وأدب الحوار :

قال المزني : سألت الشافعي عن مسألة في الكلام فقال :

سلني عن شيء : إذا أخطأت فيه قلت : أخطأت .

ولا تسلني عن شيء إذا أخطأت فيه قلت : كفرت !

فقد خرج الشافعي بالسائل من مخاضة علم الكلام . وما فيه من مزالق قد تفضي إلى التراشق بتهمة الكفر . . ثم أرشده إلى البحث عن سؤال يدور حول قضية حيوية . لا يخرج الخطأ فيها من دائرة الإيمان .

* * *

فإذا كان السائل مسترشداً . . أجابه بلطف . مشيراً إلى سبب خطئه . .

قال ابنه يوماً :

ما سمعت أبي يناظر أحداً قط . فيرفع صوته :

سأله غلام فأجابه . ثم سأله فأجابه . فلما قال الغلام للشافعي : أخطأت . . فلم يثر الإمام ولم يطرده من المجلس رغم قسوة الموقف . . ولكنه نبهه إلى أنه فعلاً

أخطأ حسب المذكور فيما قرأه الغلام من كتب غير موثقة . . أما بمنطق الحق فهو لم يخطيء .

ذلك قوله :

أخطأت يا ابن أخي ما في كتابك . وأما الحق فلا !

وهكذا يتلطف بالغلام الصغير . . دافعاً له من طرف خفي إلى مراجعة ما قرأ . . مخاطباً إياه بما يستميله : « يا ابن أخي » !

* * *

أما إذا كان السائل متعنتاً . . فإنه لا يجيبه :

سأله سائل عن مسألة متعنتاً . . فلم يجبه . . إلا بعد شهر . ثم بين له أنه لم يجبه حينئذٍ إلا لأنه كان متعنتاً .

* * *

ومفتاح شخصية الإمام هنا هي : الولاء للحق . . الذي يحرص على ظهوره . . سواء كان الظهور على لسانه . . أو على لسان خصمه :

وعلى هذا الأساس تنوعت مواقفه . قال :

ما عرضت الحجة على أحد فقبلها إلا عظم في عيني . ولا عرضتها على أحد فردها . . إلا سقط من عيني .

ومن أدبه رضي الله عنه . أن امرأة جاءته . ومعها طفلها . فبكى الطفل . ولما اشتد بكاؤه . وضعت يدها على فيه خوفاً من أن يستيقظ الإمام لبكاء الطفل .

فلما أخبر بذلك . أقسم ألا ينام إلا والرحى يطحن بها عند رأسه !

فكان ذلك العالم المتراحب القلب : يسع السائل . . وصاحب الحاجة . .

بالإضافة إلى سعي دؤوب في طلب العلم . . لم ينسه دوره في التدريب على الرمي . . حتى كان في طليعة الرماة . كما كان في طليعة المربين . كما أشرنا إلى ذلك آنفاً .

* * *

بين يدي رسول الله ﷺ :

عن عبد الله بن عمرو (قيل يا رسول الله : أي الناس أفضل ؟

قال : « **كل مخموم القلب . صدوق اللسان** » .

قيل : صدوق اللسان نعرفه فما مخموم القلب ؟

قال : « **هو التقي النقي : لا إثم فيه . ولا بغي . ولا غل . ولا حسد** »[1]

في تربيته ﷺ لأصحابه . كانت له دروسه النظرية . . والعملية . وهذا واحد من مجالس العلم النظرية . والذي نحاول اليوم الاقتراب منه . تلمساً للعبرة . وتجلية للأسوة . . فماذا نرى ؟

١ ـ العلم يؤتى إليه :

إن السؤال هنا معناه : أن رغبة في المعرفة تتحرك في صدر طالب العلم . . فيفضي بها إلى أهل الذكر . . فيجاب إلى ما طلب .

وفي قصة ذي القرنين يأتي السؤال أولاً :

(ويسألونك عن ذي القرنين . .)

ثم يجيء الجواب استجابة للطالبين :

(قل سأتلو عليكم منه ذكرا)

فإذا جلس بعض الشباب اليوم في دورهم . . أو مساجدهم . . ثم اشترطوا على العالم ـ حتماً ـ أن يسعى هو إليهم . . فقد ضاع من العملية التعليمية عنصرها الفعال .

وهو إعلان الطالب عن رغبته في العلم أولاً[2] . . لتتحرك بالتالي همة المدرس إلى الشرح والتحليل .

٢ ـ قيمة السؤال :

ويبدو السؤال حيوياً عملياً . . حين لا يدور حول معنى مجرد للفضيلة تحتفظ به ذاكرة واعية . . ولكنه السؤال عن : ما هي أفضل النماذج العملية التي نعلق بها أبصارنا . . ونتلمس خطاها . . لنمضِ من ورائها . وعلى نهجها حتى نصل إلى مثل ما وصل السابقون ؟ إنه سؤال يتجاوز الثرثرة الكلامية . . إلى اللباب الآخذ بالأيدي إلى الكمال النفسي . . وما أكثر الذين يحفظون المؤون . . ثم لا يصلون إلى ما

---

(١) رواه ابن ماجه .

(٢) أحياناً كان ﷺ يبدأ بالتعليم بلا سؤال . وذلك في حالة ما إذا رأى من أصحابه رغبة واضحة وعلى كلٍ فالأمر متروك لتقدير المعلم .

يأملون . . حين ضاعت من حياتهم القدوة والمجسدة لحقائق الإيمان .

٣ ـ الجواب على قدر السؤال :

ويجيء الجواب مركزاً . وعلى قدر السؤال . .

وكان من الممكن أن يفصله الرسول ﷺ تفصيلاً منذ اللحظة الأولى . فيقول : أفضل الناس : التقي النقي . . الحديث . .

ولكنه ﷺ . . يجعل الكلام إجمالاً . . ليحرك في إعماق النفوس رغبتها إلى المزيد . .

فإذا طلبته . . أجابها . . وإن فترت الهمة إلى المزيد . . نأى المعلم بنفسه عن زيادة لا ثمرة لها . . إذ لا رغبة فيها !

٤ ـ فصاحة الجواب :

ولا يأتي الجواب « بلغة العوام » تملقاً لهم . . لم يكن مبتذلاً في نسقه حتى يرضي أذواقاً لا تفهم إلا الواضح المكشوف . .

وإنما اشتمل على اللفظ الذي يصعب فهمه وهو قوله : « **مخموم القلب** » ولم يكن اعناتاً وتحدياً لمشاعر القوم . . وإنما هو تحريك الرغبة لتسأل . . وتغوص في أعماق المراجع بحثاً عن الصعب الذي تفهمه اليوم . ليكون في رصيدها العلمي غداً . .

وهو رد على طلبة العلم الذين يثورون طالبين خطاباً بلغتهم الجاهزة . . ولو قد تملق المعلم عواطفهم . . لساعدهم على جمود يشل حركتهم العقلية فلا تأتي بجديد .

٥ ـ وينهض الطالب بمهمته :

ويبرز هنا دور طالب العلم في العملية التعليمية . . أنه لا يستقبل الدرس مثل آلة التسجيل . . لكنه يسأل ويناقش . . ولقد سأل هنا عن معنى مخموم القلب . . **وإذن** . . فقد استكمل درس التربية عناصر نجاحه : فقد أجاب المعلم على الوجه **الأمثل** . . وكان التلميذ معه أوفى صحته . . العقلية والنفسية . . فإذا كان العلم **يضيع** بين الحياء والكبر . . فقد تلافى طالب العلم ذلك المنزلق الخطر .

إذ لم يمنعه الحياء من السؤال . . كما لم يحجبه الكبر عن تلقي العلم . . وكان يدور مع المعلم في أفقه العالي . . سائلاً . . مناقشاً . . متجاوباً . .

٦ ـ مسك الختام :

وكان مسك الختام هذا التعريف الجامع المانع لأفضل النماذج الإسلامية : أنه التقي : الجامع لكل خصائص المسلم العملية والنفسية . كما يفيده معنى التقوى في القرآن الكريم . ثم هو من الناحية النفسية على جهة الخصوص : نقي . . نقاء الثوب الأبيض غسله البرد . . منزه عن خاطر السوء . . وإذا حام حوله هاجس الشر يوماً . فلا يترجمه إلى بغي وعدوان على الآخرين . . ويظل قلبه عامر بعاطفة الحب التي لا تعرف الغل . . ولا تمارس الحسد الناقم على الآخرين . .

إن أفضل الناس باختصار :

رجل طاهر القلب . . صالح العمل . .

وبهذه الطهارة وهذا الصلاح يعيش صحيح الجسم والنفس . . من حيث بريء من الانفعالات المتقلبة الباحثة عن المتاعب . . فكان دائماً معتدل المزاج . . فجاءت عبادته أيضاً على أوفى ما يكون الاعتدال .

وعلى المسلم أن يتعلم من الطبيعة حوله : أن الزهرة تغسل نفسها بالندى كل يوم . . وأنت تغسل وجهك أكثر من مرة . . أيضاً كل يوم . . فلماذا لا نتجه بحملة التطهير إلى داخل النفس بعد استكمال طهارة الظاهر ؟

إن الحق تعالى يقول : وثيابك فطهر . . وبعد ذلك يقول : والرجز فاهجر : صلة للرحم . . حباً للجار . . براً بالوالدة . . طاعةً للوالد . . فإن فعلت فإنك إذن من الصادقين الأبرار . . الذين صفت قلوبهم . . فصفت بهم الحياة . . على ما يقول أحدهم :

ملكت يدي عن كل سوء ومنطقي ... فعشت بريء النفس من دنس العذر
وأحسنت ظني بالصديق وربما ... لقيت عدوي بالطلاقة والبشر
فأصبحت مأثور الخلال محبباً ... إلى الناس مرضي السريرة والجهر

* * *

من النظر إلى التطبيق :

على كثرة دروس العلم النظري . . والتي كان ﷺ يعلمهم بها أحكام الدين، وآدابه . . إلا أنه ﷺ كثيراً ما كان يلفت أنظارهم إلى القدوة العملية التي تمثلت حقيقة الدين . .

ليقتربوا منها متأملين . . فيما يشبه أن يكون درساً عملياً تتجسد به المعاني على الطبيعة . . فإذا هم من ورائها سائرون إلى مرضاة الله تعالى .

عن أنس بن مالك قال :

كنا جلوساً عند النبي ﷺ فقال : « **يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة** » . فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه . وقد علق نعليه بيده الشمال . فلما كان الغد قال النبي مقالته أيضاً . فطلع ذلك الرجل على مثل المرة الأولى . فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضاً . فطلع ذلك الرجل مثل حاله الأولى . فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمر ـ أي الرجل ـ فقال له : « **إني لاحيت أبي ـ خاصمته ـ فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاث . فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت** » . قال : نعم .

قال أنس : فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالي فلم يره يقوم من الليل شيئاً . غير أنه إذا تعار ـ تقلب ـ في فراشه ـ ذكر الله عز وجل حتى ينهض لصلاة الفجر .

قال عبد الله : غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً .

فلما مضت الليالي الثلاث وكدت أحتقر عمله . ـ أي كاد أن يستصغره ـ قلت يا عبد الله لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر . ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول : ـ ثلاث مرات ـ « **يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة** » . فطلعت أنت الثلاث المرات . فأردت أن آتي إليك . فأنظر ما عملك فأقتدي بك . فلم أرك عملت كبير عمل . فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ ؟ قال : « **ما هو إلا ما رأيت . .** » .

فقال عبد الله : فلما وليت دعاني فقال : « **ما هو إلا ما رأيت** » . غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً . ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله أياه . فقال عبد الله : هذه التي بلغت بك[1] .

ونطالع أول ما نطالع من فقه الحديث « عبد الله بن عمر » والذي كان أحد شهود الدرس النظري الآنف . . ـ وهو الذي رواه ـ . . نطالعه في مقدمة المقبلين

---

(١) رواه أحمد .

على هذا الدرس العملي . . بل هو فارس حلبته الذي لم يكتف بالمعلومات يختزنها في ذاكرته . . بل أنه ليفتش عن رائد صفا قلبه . وحسنت سريرته ـ كما أفاد الدرس الأل ـ ليتخذ منه مثله الأعلى . ورائده الذي لا يكذب أهله . ولقد أثار الرسول ﷺ في نفسه الشوق إلى الكمال عندما قال : « **يطلع عليكم . . الحديث . .** » .

ولم يشأ عبد الله أن يجمع معلوماته عن الرجل المشهود له بالجنة من جيرانه أو زملائه في العمل . . فكثيراً ما تضيع الحقائق في دوامة التنافس بين القرناء . .

لكنه أراد أن يدرس الرجل بطريق مباشر . . وعن طريق معاشرته في بيته ثلاث ليالٍ ينكشف له فيها المخبوء من فضائله . . فكان أن اخترع هذه الحيلة . وقد صدقه هذا المسلم بفطرته الصافية البريئة من اللف والدوران .

* * *

معنى توجيه الرسول :

ونسجل أولاً حكمة الرسول ﷺ ـ وهو المعلم الأول ـ وكيف يثير في قلوب أصحابه الحماس إلى البحث عن النماذج العملية التي تتراءى لهم متمثلة محققة ذلك العلم النظري الذي تلقوه . .

أن المباديء التي يأخذونها عنه . . قابلة للتطبيق . . بل هي مطبقة فعلاً . .

وأن العلم النظري إذا لم تكن زكاته العمل . . فلا فائدة منه .

وإذا كانوا قد تصوروا قبل ذلك الرجل المثالي وهو : التقي النقي . . فعليهم الآن أن يأخذوا سبيلهم إلى مرحلة تالية إلى العمل . . عن طريق هذه القدوة الصالحة .

ولكن ما هي فكرة عبد الله عن الرجل المستحق للجنة ؟ باختصار : أنه يعتقد أن ذلك الرجل . . فارس بالنهار لا ينزل عن ظهر جواده . . في سبيل الله . . أو رائد من رواد الخدمة الاجتماعية لا يهدأ أبداً . . ثم هو بالليل راهب تتورم قدماه من قيام الليل !!

ولعل ذهن عبد الله رضي الله عنه كان مصروفاً إلى رجل مثل أبي بكر وعمر مثلاً . . أو إلى أحد من المبشرين بالجنة . . فهم دون سواهم أهلٌ للجنة . . أما أن يكون هذا الرجل بالذات فشيء يثير الاهتمام . . لأنه لم يكن معروفاً . إلى جانب أنه كان لا يحضر مجلس الرسول مبكراً . .

ونتساءل : ماذا رأى عبد الله ؟

لم ير عبد الله من صاحب الجنة شيئاً ملفتاً للنظر . . وكانت حياته ببساطة هكذا :

يؤدي الفرائض كعامة المسلمين . .

لا يتهجد بالليل . .

يذكر الله تعالى كلما استيقظ . .

يصلي الفجر في جماعة . .

ثم هو بالنهار . . لا يقول إلا خيراً . . غير فاحش ولا متفحش . .

ولم يجد عبد الله بن عمرو ـ الشاب المتحمس ـ لم يجد شيئاً ذا بال يضمنه تقريره عن الرجل ! فلما حانت لحظة المصارحة . . وضح له ابن عمر حقيقة أمره وهي : أنه سمع من الرسول ﷺ ما أغراه بدراسة حياته . . فما هو السر الأكبر في حياتك . . والذي كنت به من أهل الجنة . .

فلما أخبره الرجل . بأنه ما ترى . . بلا زيادة . . استدار عبد الله بن عمر مندهشاً . . وأحس الرجل بملامح وجهه تعكس مكنون أسراره فكشف له الغطاء عن السر الأكبر .

وكأنما يقول صاحب الجنة لبعض الشباب المتحمس في شخص عبد الله بن عمر : أعيدوا النظر في حساباتكم .

لا تسلطوا الأضواء فقط على ظاهر العمل المكشوف للعين . . فإن مظاهر العبادة . . لا تغني عن القلب السليم . . السودود . . المخلص . . فقليل من العبادة . . مع كثير من الأخوة أثقل في الميزان من عمل كثير وسوء ظن غزير !

ألم تر إلى المبلغ الزهيد تجود به . . فإذا هو أزكى عند عبد الله من صدقة كبيرة بلانية طيبة ولا رغبة في الاصلاح . . ما رأيكم دام فضلكم في قلب لا يحمل غشاً لأحد . . ويسعده أن تغمر النعمة عباد الله جميعاً .

أن أمة يحمل أفرادها مثل ذلك القلب السليم لقادرة على أن تفرض وجودها على أعدائها . وما تفرق المسلمون بدءاً إلا يوم زرع الشيطان الحقد في قلوب عذبتها الكراهية . فلم تسعد . . ولم تسعد غيرها . . وهذا ما اقتنع به عبد الله بن عمرو حين قال للرجل . هذه التي بلغت بك . .

وتنازل عبد الله عن تصوره الأول للمسلم المثالي . . ليدخل في حسابه عند تقدير الرجال ما يحملون من صفاء وحسن طوية . كهذا الرجل صاحب الجنة الذي

انطلت عليه حيلة عبد الله بن عمر فقبله ضيفاً . . ثلاث ليالٍ . . بلا تحقيق أو مناقشة !•

وإذا كنا لا نعلم باطن الإنسان . . فلنحس به الظن إحساناً . . ولا نحكم عليه حكماً نهائياً لا نملك حيثياته . .

وبعد

فإني أهمس في أذن الشاب الذي لم يرقه هذه الحديث إلا مشهد الماء تنطف به اللحية ليدخل في شجار مع زميل جفف بعد الوضوء وجهه . . فخاف بذلك السنه ؟!!

. . فلما غاص إلى الأعماق رأى عالماً من الأسرار يغري بالبحث والنظر . . ومن حق السنة المطهرة علينا أن نتجاوز السطور إلى ما وراءها . . وعندئذٍ فسوف تمنحنا الأعماق من لدنها . . اللؤلؤ . . والمرجان . . واللحم الطري !!

خير معلم :

يقول ﷺ :

« إنما بعثت معلماً »

في جوابه ﷺ عن سؤال : أي الناس أفضل . . وفي حديثه عن الرجل من أهل الجنة . . تبين لنا كيف كان ﷺ خير معلم .

يأخذ أصحابه بالتربية النظرية المنهجية . . ثم بالتربية العملية التطبيقية . . وفي ظل هذا المنهج المتكامل برزت روح الابتكار . لدى طلاب لا يلقنون المعارف تلقيناً . . وإنما لهم من حرية المناقشة والحوار ما يوقظ في أنفسهم ملكة الاستقلال . والرغبة في البحث والنظر . .

إلى جانب التركيز على القدوة الحسنة التي لا تأخذ الناس إلى الجنة بالوعظ المجرد . . بل بما توفر لها من عواطف الخير . وصالح العمل .

من أجل ذلك تحولت مجالس الرسول ﷺ إلى :

(نور يضيء العقل .

ويقين . يعمر القلب .

وضمير . يوجه السلوك)

قرأت بالأمس كلمة لكاتب يتباكى على ما وصل إليه الأجانب من مبتكرات

اقتحموا بها المجهول فحققوا المأمول . . بينما المسلمون ما يزالون يتصارعون على أمتار من الأرض . . أو يختلفون على حكم فرعي . .

وإذن فللقوم هناك عصرهم . . ولنا عصرنا . . عصرهم المتقدم . . وعصرنا المتخلف . . أو كما قال :

ونلفت النظر هنا إلى أن الذنب هنا ذنب المسلمين الذين لم يرتفعوا إلى مستوى الإسلام الذي جاء للنهوض بالحياة . .

ولم يستوعبوا منهج الرسول الكريم في التربية . . واكتفوا بالمعارف السطحية ـ والنظرة الخاطفة . . فثار غبار حجب الحقيقة . . ومن ثم لم يحسنوا التعامل مع القرآن الكريم . ولا مع السنة المطهرة .

مشى رجل مع زميله في سفر . . فلاحظ أنه لم يذق النوم شهرين كاملين . . فلما سأله عن السر قال : إنني أتأمل ما أقرأ من آيات القرآن فتنقلني الآيات من عجيبة إلى عجيبة . .

فأطارت عجائب القرآن النوم من عيني . .

أما نحن . . فقد نذكر الحكم . . وندرك المسألة . . فنتباهى . . بالقليل الذي عرفناه . . ظانين أننا قد أدينا مهمتنا . . ثم نغط في نوم عميق !

ولا نوافق الكاتب الفاضل على إطلاق الحكم في هذه القضية . . وإلا فما زالت نظريات التربية تترنح هناك . . وإن جاوز القوم المجموعة الشمسية :

قرأنا أخيراً (أن ثمانية طلاب يابانيين ومدرساً . قد انتحروا في أماكن متفرقة . بمناسبة بدء العام الدراسي الجديد) . وقال زملاء الطلاب المنتحرين :

أن سبب انتحارهم هو الخوف الشديد من الامتحانات التي يتوقف عليها مستقبلهم الدراسي في دخول الجامعة . ولم يعرف حتى الآن سبب انتحار المدرس[١] .

وفي الوقت نفسه تترامى الأنباء مبشرة بيقظة إسلامية . . تستلهم منهج الإسلام الباعث على الحركة المباركة . . وقد نشرت الصحف أخيراً نبأ اختراع جهاز لمنع السائقين من النوم . . يبتكره طالب بريطاني مسلم .

---

(١) الجمهورية أغسطس ١٩٨٨ م .

عرضت القناة الثالثة للتلفزيون البريطاني ـ يوليو ١٩٨٩ ـ اختراعاً ابتكره طالب مسلم يدعى : « حيدر حسين » يدرس في أكاديمية الملك فهد . في لندن ويبلغ من العمر خمسة عشر عاماً .

الابتكار الجديد عبارة عن :

جهاز داخل قبعة . يضعه سائق السيارة . على رأسه . ويحول دون نومه أثناء قيادته للسيارة . ويطلق رنيناً عند انحناء رأس السائق للأمام . يوقظه عند الاغفاء . وقبل الاستغراق في النوم .

شارك حيدر باختراعه في مسابقة اختيار أفضل ناشىء مخترع في بريطانيا . وذكر « حيدر » أن إحدى الشركات البريطانية . تقدمت من أجل شراء براءة هذا الاختراع[١] !

وفي الخرطوم : أعلن خمسة من الملاكمين الدوليين السودانيين اعتناقهم الإسلام . بعد لقاء جرى بينهم وبين البطل الملاكم محمد علي كلاي .

أكد الملاكمون الخمسة . أن دخولهم الإسلام جاء عن اقتناع تام بأن الدين الإسلامي هو ختام رسالات الله تعالى إلى الأرض[٢] !

ولمثل هذا فليعمل العاملون .

٣ ـ (عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال :

قال لي رسول الله ﷺ : « **ألم أخبرك أنك تقوم الليل . وتصوم النهار ؟** » قلت : إني أفعل ذلك . قال : « **فإنك إن فعلت ذلك هجمت[٣] عينك . ونفهت[٤] نفسك : وإن لنفسك عليك حقاً . ولأهلك عليك حقاً . فصم وافطر . وقم ونم** »[٥] .

وفي رواية أنه لما كبر . ندم . وقال : (يا ليتني أخذت برخصة رسول الله ﷺ) .

* * *

(١) منبر الإسلام محرم ١٤١٠ هـ .
(٢) منبر الإسلام محرم ١٤١٠ هـ .
(٣) هجمت العين : غارت .
(٤) نفهت نفسك : أعيت . وكلت . وبعير نافه : كالٌّ . معيٍ . ونفهه : أتعبه حتى انقطع .
(٥) راجع بهجة النفوس .

تمهيد :

هذا بيت واحد من كبار القواد العسكريين : عمرو بن العاص رضي الله عنه . . وذلك واحد من أبناءه يعكس بعبادته الجانب الأخلاقي الملتزم بشريعة الإسلام . . فليس بين الابناء من يتخذ من عسكرية والده أو رتبته ذريعة إلى تجاوز الحدود . ولكن الذريعة كانت على دين آبائها . . مضياً على الصراط المستقيم . وكانت قيمة الانضباط في القاموس العسكري مانعة من الانحراف . تؤدي وظيفتها في التزام الجادة . . على الجبهة العسكرية وعلى الجبهة الداخلية . في آن .

* * *

ومما يلفت النظر أن عبد الله بن عمرو هنا . . غيره هناك !؟ : فقد مر بنا آنفاً : كيف كان طالب العلم المثابر . على حضور مجالس رسول الله ﷺ . . فهو الذي روى حديث : أي الناس أفضل . . الآنف الذكر . . ثم هو الذي لزم الرجل المشهود له بالجنة . . فحول العلم النظري إلى حركة عملية تلح في اكتشاف القدوة التي تجسد قيم الإسلام . . حتى يكون مع العلم النظري دليله التطبيقي . .

وإذا كان هناك من يطلب من العلم قشوراً يوظفها في المراء ومحاولة الغلب في مجال النقاش . . إذا كان هناك حاطب ليل يحمل حزمة حطب فيها ثعبان يوشك أن يلدغه . . فقد كان عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ينطلق من قاعدة : ما صلح الدين إلا بالحياء . . ولا حياء إلا بالعقل . . وما صلح دين ولا حياء ولا عقل إلا بالعلم . .

هذا هو عبد الله . . المثل الأعلى في طلب العلم . . ونشره . . ثم العمل به وليس هو بالذي يحضر مجلس العلم اليوم بعقل مشغول . . وبال مشتت . . بلا محبرة . . ولا ورق . . ولا قلم . . كمن يحضر الطاحون بغير قمح !!

* * *

عبد الله على حافة الخطر :

ولكن صورة عبد الله رضي الله عنه تتغير الآن . . بهذا الحديث الشريف . . « والذي يبرزه عابداً . . أحنى السجود ظهره . . فكان قوساً . . وبراه الصيام . . حتى صار وتراً !! ».

ويوشك من استغراقه في العبادة أن يكون كهذا الذي : « ذهب سروره . . **فمقت نفسه . . فكثر حزنه . . فقل عقله . . فارتبك عمله . . فصار أكثر عمله ـ من قلة عقله ـ عليه . . لا له !»** .

وهذا هو ذا ﷺ يمد إليه يده الحانية . . لينقذه من خطر عظيم . .

* * *

دروس وعبر :

وفي الحديث الشريف دروس منها :

١ ـ يجوز التحدث بما يعزم عليه المرء من أعمال البر . بدليل أنها عرفت عنه . وأخبر بها رسول الله ﷺ .

٢ ـ على الرغم من أن الصحابة رضوان الله عليهم . على أوفى ما يكون الصدق . إلا أنه ﷺ قرر مواجهته بما أخبر به . فلعل له عذراً وأنت تلوم .

٣ ـ يجوز إخبار القائد بما يفعله الزملاء . إذا ما صدقت النوايا . ولم يكن الاخبار على جهة الوقيعة .

٤ ـ كانت إجابة عبد الله رضي الله عنه : بسيطة . . وفورية . . وبلا تكلّف . . فكان ذلك كله أمارة صدقه . لا كما يتلعثم المتهم . . في محاولة لستر الكذب في أعماقه !

٥ ـ كان توجيه الرسول ﷺ يشبه أن يكون اقتراحاً بتغيير خطة العبادة . . حتى لا يصدم مشاعر شاب مستغرق في أمر يحبه . . ومن أجل ذلك نبهه إلى ضرر هذا الاستغراق على عينه من طول السهر . . بل وعلى جسمه كله من مواصلة العبادة . . ثم ضرره المؤكد بمصلحة الأمة التي تفقد بهذا جندياً باسلاً من جنودها .

٦ ـ وضع ﷺ قاعدة من قواعد النهي عن المنكر وهي : تقديم الخطة البديلة . . لتحل محل ما يراد إزالته . . قبل أن تحنّ النفس إلى خطتها القديمة . . وذلك قوله ﷺ : « **إن لنفسك عليك حقاً . . ولا هلك عليك حقاً : فصم . . وافطر . . وقم . . ونم .** » .

* * *

عندما تكون الراحة عبادة ! :

تلقت الأمة توجيهاته ﷺ بالقبول . . حتى عبد الله بن عمرو نفسه . . ازداد يقيناً بحكمته ﷺ في تقدير الضعف البشري . . وقد نسب إليه أنه ندم وتمنى إن لم يكن بالغ في العبادة وقال :

(يا ليتني أخذت برخصة رسول الله ﷺ . . ومع ذلك . . فقد بقي من مدرسة عبد الله بقية تحمل نفسها فوق ما تطيق : روى أنه لما بعث ﷺ « معاذاً » وأبا موسى

إلى اليمن . . تفرقا في البلاد يعلمان الناس . . فلما اجتمعا يوماً سأل أحدهما الآخر : كيف تقرأ القرآن ؟ فقال أبو موسى :

أقرؤه قائماً . . وقاعداً . أو مضجعاً . وأتفوقه تفويقاً . ولا أنام !

وقال معاذ : أما أنا فأقوم . وأنام . وأحتسب قومتي . كما أحتسب نومتي . فتنازعنا في ذلك . فقال عليه الصلاة والسلام لأبي موسى : « هو أفقه منك » . يعني معاذاً الذي كان يقوم وينام) .

* * *

فانظر إلى فقه معاذ وكيف يعد فترة نومه واستجمامه عبادة تساوي في الأجر القيام والصيام . . فكان تعبيراً صادقاً عن روح الإسلام . ومن ثم كان جديراً بتقدير رسول الله ﷺ . . وبقي الدرس المفيد . . الذي يتقاضى الإنسان ادراك ضعفه . . وضرورة التوسط . . وقليل دائم خير من كثير منقطع :

إن رأيك لا يتسع لكل شيء . . ففرغه للمهم .

وإن مالك لا يغني كل الناس . . فخص به أهل الحق .

وإن كرامتك لا تطيق العامة . . فتوخ بها أهل الفضل .

واعلم أن ليلك ونهارك لا يستوعبان كل حاجاتك . . فأحسن قسمتهما بين : عملك . . وراحتك .

* * *

فورة الحماس :

ولكن ما زالت فورة الحماس غلابة . . ولا بد من استلهام الحكمة النبوية في محاولة احتوائها :

جاء في « الأخبار الموفقية » :

دخل عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز على أبيه وهو في قائلته . فأيقظه . معاتباً له على نومه . فقال له أبوه :

يا بني : إن نفسي مطيتي : إن لم أرفق بها . لم تبلغني . وإني لو أتعبت نفسي وأعواني . لم يكن ذلك إلا قليلاً . . حتى أسقط . ويسقطون . وأني لأحتسب نومتي من الأجر . مثل الذي احتسب في يقظتي . إن الله جل ثناؤه . لو أراد أن ينزل القرآن جملة واحدة . . نزله . ولكنه تعالى أنزل الآية . والآيتين . . حتى استكثر الإيمان في قلوبهم .

قال الله تعالى : ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ وقال سبحانه : ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ .

* * *

ولك أن تتأمل هذا الموقف لترى :

(خليفة كان نموذجاً من النماذج التي لا ترى إلا مرة واحدة في القرون الطوال . وليس من أمثاله في تواريخ الأمم كلها إلا آحاد .

كان عالماً : العلماء الكبار تلامذة أمامه .

وكان كاتباً : البلغاء مبتدئون لديه .

وكان ديِّناً دين فعل . لا دين قول . دين إخلاص وخلوة . لا دين رياء وإعلان . وكان يتواضع حتى ليكبر عنده الصغير المسكين . ويشتد لله حتى ليذل عنده الطاغية الجبار .

وكان يعيش عيش الفقر . وبيده خزائن الأرض . ويحيا حياة العفاف والحرمان . وتحت سلطانه كل جميلة في الدنيا . مِلك لولا أنه كان بشراً لقلت أنه مَلك)[1] .

* * *

تأمل هذه الحياة القاسية . . وهذا القلب الموصول بهموم أمته . . وسل نفسك : أليس من حقه أن يستلقي على فراشه وقت القيلولة . . استجماماً يمكنه بعد ذلك من مواصلة جهاده ؟

ولكن الحماس المشتعل لا يريد لهذه الحركة أن تهدأ . . وكان لا بد ـ وبهذا المنطق الهادىء ـ من لفت النظر إلى أن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى . . وأن لحظات الراحة . . والرفاهية المباحة محسوبة للإنسان في ميزان حسناته .

* * *

٤ ـ عن عائشة زوج النبي ﷺ :

(كانت لا تسمع شيئاً تعرفه . إلا راجعت فيه . حتى تعرفه . وأن النبي ﷺ

---

(١) رجال من التاريخ . للشيخ على الطنطاوي .

قال : « من حوسب عذب » . قالت عائشة : فقلت : أو ليس يقول الله عز وجل : ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ قالت : فقال : « إنما ذلك العرض . ولكن من نوقش الحساب يهلك »[1]) .

* * *

تمهيد :

لقي «علي» رضي الله عنه أعرابياً . فأعجبه حاله فسأله :

بم نلت هذه الحالة ؟ فقال :

« لم أسمع شيئاً لا أعرفه . إلا بحثت فيه . حتى أعرفه . ولم أعرف شيئاً فامتنعت أن أعلمه من لا يعرفه .

فقال له علي :

بهذا سدت » .

وتأمل كيف كان ذلك الأعرابي شعلة من النشاط في تعلم العلم . . ثم تعليمه غيره . على نحو صار به سيد قومه .

وأين منه ذلك الرجل الذي زين ظاهره بفاخر الثياب . . ثم إذا نطق . . أفرز جهلاً . . فقيل له :

أما أن يكون كلامك على مستوى ثيابك . .

أو تلبس على قدر كلامك !

* * *

وهذا الحرص على التعلم . . والتعليم ـ وهو طريق السيادة ـ كان سمة العارفين من علمائنا .

حتى لم يكن الأستاذ يتحرج من الإفادة من تلميذه .

فقد يكون في المفضول ما ليس في الفاضل .

قال « الحميد » تلميذ الإمام الشافعي :

صحبت الشافعي من مكة إلى مصر . فكنت أستفيد منه المسائل . وكان يستفيد مني الحديث .

---

(١) بهجة النفوس ج ١/ ١٤٤ .

فانظر إلى إمام كالشافعي .. يتتلمذ على تلميذه .. دون حرج ! .. وتلك لعمري ناحية من نواحي القوة في شخصية العالم .. الذي فرّ مما وقع فيه غيره من المنافقين الذين قد يأتي أحدهم ليعلم علماً فيقول لمن جاء يتعلم منه :

اشترك معي في هذه المسألة .. نفاقاً .. ولا يقول له : بصراحة .. علمني هذه المسألة !

لأن ذلك :

كذب .. لأنه بلسان حاله يقول : أنا أعلمها . وليس كذلك .

ثم هو استنقاص بمن هو أعلم منه . وعدم رؤيته أهلاً للعلم .

وقد رد الإمام علي رضي الله عنه هذا النفاق بقوله :

« لا تحقرن أحداً آتاه الله علماً . فإن الله لم يحقره حين آتاه العلم .. » .

* * *

وهكذا بقي العلم حياً في الصدور .. وسوف يبقى ما انتفى الكبر والحياء في طلبه .. وما بقيت الرغبة في التعلم متوهجة .

ولقد كان ﷺ يقرأ على «أبي» رضي الله عنه ويقول : « **أمرني ربي أن أقرأ عليه لم يكن الذين كفروا** .. »[1] .

* * *

من دروس هذا المجلس العلمي[2] :

يؤخذ من هذا الحديث الشريف أمور . منها :

١ ـ من السنة أن من سمع شيئاً لا يعرفه .. فليراجع فيه حتى يعرفه .. صغيراً كان المراجع أم كبيراً .

٢ ـ ولا بد أن يكون الحق المراجعة والتساؤل مشفوعاً بواجب الأدب مع الأستاذ : فعائشة رضي الله عنها . لم تواجه الرسول ﷺ .. بصورة من الانكار السافر لما قاله .

ولكنها تسأل مسترشدة على غاية الأدب حين قالت :

« أو ليس يقول الله عز وجل » ؟

---

(١) عن بهجة النفوس .

(٢) راجع بهجة النفوس ج ١/ ١٤٤ .

وحين يلتزم طالب العلم بواجب الأدب . فسوف يشرح بالأدب صدر الأستاذ . . ليفيده . وهذا ما حدث للسيدة عائشة رضي الله عنها . حين عرضت بالآية الكريمة . فجاءتها الفائدة مزدوجة . . كفاء أدبها في مراجعتها :

أولاً : فسر لها ﷺ معنى الآية .

ثانياً : عرفها كيف يجمع بين الآية وبين متن الحديث .

وثالثاً : بقي المجلس المبارك زاداً للأمة بعد ذلك . يؤكد لها ضرورة الأدب في مخاطبة العالم . لذات الأدب . . ثم لما يحققه من فائدة .

وإلا . . فإن التلميذ المشاكس الراغب في السؤال تعجيزاً للمدرس على ملأ من الفصل . . يضيع فائدة مضروبة في عدد التلاميذ . . وربما كان المدرس قادراً على الجواب . . ولكن العناد . . وتصفية الحساب قد يحملان على الاخفاق في الجواب .

٣ ـ أن حسن المراجعة أحد مقاييس نبوغ الطالب . . ولعل هذا يؤيد ما قيل من أن العوام وظيفتهم السؤال . أما المراجعة على هذا النحو فخاصة بمن فيهم أهلية للفقه .

٤ ـ ينبغي ألا يستبد الطالب برأيه مع حضور المعلم . احتفاظاً له بمنصب القيادة . ليظل ممسكاً بزمام المبادرة .

٥ ـ من طبائع النفوس : « أنه من جهل شيئاً عاداه » .

وعلى هذا الأساس يقول العلماء في ضوء الحديث :

أن من الجهل رد الشيء جملة . وإنكاره دفعة . وإنما المقام للمراجعة . لأنها : تردد للأمر . حتى يتبين حقه . من باطله .

والعاقل لا ينفي شيئاً لا يعرفه جملة . فقد تكون فيه مصلحة . إلى جانب كون المراجعة احتراماً للمسؤول .

٦ ـ فيه دليل على بطلان بعض المصطلحات في باب الحوار :

من مثل قول المناظر لصاحبه :

لا أسلم . .

أو : ممنوع !!

لأنه حينئذٍ يقع الخطأ . .

لأن رأي خصمك لو كان حقاً . . لكنت ممن يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم . ولو كان باطلاً منكراً . فلا يصح رده قبل معرفة أنه منكر . لأن تغيير المنكر . إنما يكون بعد معرفة كونه منكراً .

٧ ـ في هذا المجلس التعليمي تبرز قيمة التواضع :

تواضع المتعلم . . بحسن الأدب . .

وتواضع المعلم . . بالتلطف في جواب السائل . .

والتواضع من أدب العلم . . ومن حرمه فقد حرم الخير .

٨ ـ لما عرفت السيدة عائشة رضي الله عنها . . تحقق مقصدها . أمسكت . والتزمت بالحق بعد ما تبين .

وهذا درس للمعاندين القائلين :

ممنوع . . !

لا نسلم . . !

من أجل أن يقال : أن فلاناً قطع فلاناً . . أو أسكته !

٩ ـ ضرورة أن تكون هناك رغبة في الفقه والتعمق .

جمعاً بين الآراء . .

والخير دائماً معلق بالفقه .

ولا ينال العلم إلا بالتعلم . . والمراجعة . . لينقدح في القلب نور يقذفه الله تعالى في قلب استعد له .

وكما قال الإمام مالك رضي الله عنه :

(ليس العلم بكثرة الرواية . وإنما العلم نور يضعه الله تعالى في القلوب)

ولا يغني الحفظ بلا فهم . لأن ذلك يؤدي إلى :

أن الحفاظ إذا لم يجدوا ما لم يحفظوه . . أنكروه . . وهذه آفة علمية .

وإذا وجدوا وهما صدقوه . .

وربما اغتروا بعلمهم . . فظنوا أن غاية المراد قد حققوه بالحفظ . وهذه آفة أخلاقية .

١٠ ـ ومراجعة السيدة عائشة رضي الله عنها لون الجرأة المحمودة . يكسر من حدة الحياء المانع من التعلم .

قال مجاهد : لا يتعلم العلم مستحٍ ولا مستكبر .

وقالت عائشة :

نعم النساء نساء الأنصار :

لا يمنعهن حياؤهن أن يتفقهن في الدين .

* * *

ولقد كان للمرأة دورها في كسر حاجز الحياء . . فسألت . . وبصراحة : عن أم سلمة :

جاءت أم سلمة إلى رسول الله ﷺ . فقالت :

يا رسول الله : إن الله لا يستحي من الحق : فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت ؟

قال النبي ﷺ : « **إذا رأت الماء** »

فغطت أم سلمة « يعني وجهها » . وقالت : يا رسول الله : وتحتلم المرأة ؟ قال :

« **نعم . تربت يمينك . فبم يشبهها ولدها ؟** » .

* * *

وقد أسف عمر رضي الله عنه . . لأن ولده عبد الله . . تخلت عنه شجاعته يوماً فلم يجرؤ على الإجابة عن سؤال . . وما منعه إلا الحياء :

عن عبد الله بن عمر :

أن رسول الله ﷺ قال :

« **أن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها . وهي مثل المسلم . حدثوني ما هي ؟ فوقع الناس في شجر البادية . ووقع في نفسي أنها النخلة** » . قال عبد الله : فاستحييت ! فقالوا يا رسول الله : أخبرنا بها . فقال رسول الله ﷺ : « **هي النخلة** » . قال عبد الله : فحدثت أبي بما وقع في نفسي فقال : (لأن تكون قلتها أحب إلي من أن يكون لي كذا وكذا) .

* * *

وبعد :

فقد مر بنا كيف كان الشافعي يستفيد من تلميذه الحديث . . وتلميذه يستفيد منه المسائل والأحكام .

وفي ذلك عبرة لمن يفترضون في العالم أن يكون موسوعة قادراً على الإجابة عن أي سؤال . . وذلك ظلم لطبيعة البشر التي قد لا تكون مؤهلة لنوع من العلم . . هذا العلم الذي قضى الله تعالى أن يكون موزعاً بين البشر على قدر استعداداتهم . . ليكون الكل شركاء في تحمل الأمانة . .

وليخف العتاب في نفس الوقت . . أو ينتفي بالمرة عن بعض العاملين في حقل الدعوة الذين قد يقصرون في ناحية . . لأنهم وقفوا أعمارهم على جوانب من حكمة التشريع . . تحتاج إلى الداعية الأديب . . قبل أن تحتاج إلى الداعية المفتي . .

* * *

الفصــل الثالـث

شبـابنا بين العلم الناقض
والعلم الجامد

تمهيد :

إذا كانت النهضة الحديثة قد هيأت للناس أسباب الرفاهية . بما تمخضت عنه من مخترعات غيـرت وجه الحيـاة . . وإذا كان الشبـاب بوجـه خاص . قـد بهرتـه هذه المخترعات الحديثة . . حين توقع منها حل مشكلاته . . وإثبات ذاته . .

إذا كان الأمر كذلك ـ كما لاحظ المربون ـ فإن هذه النهضة ذاتهـا هي التي أثارت ثائرة الشباب . فتمرد عليها :

لأنه لـم يجد فيها غذاء روحه الظامئة إلى القرار . . فكفر بأنعم هذه النهضة . .

ولقد عبر بهذا التمرد عن رفضه لها . .

وأخذ هذا التعبير العنيف طابعاً عالمياً :

فالشباب على مستوى العالم :

يثورون على الآباء .

يثورون على النظام .

يثورون . . حتى على الدين نفسه . . أحياناً . .

أنه مجرد رفض لكل شيء . . تذرعاً بأي شيء !!

* * *

موقف الشباب المسلم :

ولم يكن الشباب المسلم بمنجى من هذا الرفض الذي انداحت دائرتـه . . فهم **أولاً** شباب : يعيشون أخطر مراحل العمر . . وأكثرها إحساساً بالذات . . ثم أنهم

مسلمون . . يعتقدون أنهم ورثة الدعوة والمسؤولون عن أبلاغها . . لأنهم أمة الوسط الشاهدة على الناس . .

من أجل ذلك كان رفضهم عنيفاً . . على قدر شعورهم بالتبعة الملقاة على كاهل أمة هم طليعتها . وهم طاقتها الفاعلة .

* * *

لماذا الشباب بالذات :

كان رد الفعل عنيفاً لدى الشباب بالذات : فالشباب مرحلة من العمر تحمل على إثبات الذات . ورفض الوصاية من أحد . إلى جانب ما يملكه من حيوية سولت له أنه قادر على تحقيق أحلامه في التغيير . وفي الأثر : (لكل عابد شرة[1] وشرة الشباب حرصه ونشاطه) .

* * *

وإذن فلم يكن الأمر في البداية ظاهرة مرضية بقدر ما كان سمة من سمات القلق النبيل الباحث عن القرار .

ويفسر هذا القلق مالك بن نبي فيقول :

(وهذا القلق علامة الولادة الجديدة : فالطفل يبكي أول نزوله إلى الحياة الدنيا . وهذا دليل على سريان الحياة في الجسد . ونحن إذ يعترينا القلق في حياتنا . نشعر بأننا قد ولدنا ولادة جديدة) .

وإذا لم تقلق أنت . . ولا أنا . .
إذا لم أحترق أنا . . وإذا لم تحترق أنت .
إذا لم نحترق نحن . . فكيف نضيء شمعة ؟!

* * *

ولكن الأمور وصلت في النهاية إلى غير ما يشتهي المصلحون . . فكان لا بد من وقفة تحدد الهدف . وتصحح المسار . قبل أن تضيع طاقاتنا فيما لا يفيد . . بل وقبل أن يكون هذا الضياع لحساب أعدائنا الحراص على تبديد هذه الطاقة سدى .

* * *

---

(١) الشرة : النشاط والرغبة وفي الحديث : «أن لهذا القرآن شرة» .

أما قبل :

وقبل أن نبدأ الخطوة الأولى على طريق الاصلاح ننبه إلى نقطتين مهمتين . لفت الباحثون الأنظار إليهما :

الأولى : أن الشباب وهو يحاول الخروج من المأزق . كان من سوء حظه أن المذاهب الإباحية لم تترك له فرصة العودة إلى الحق بيسر وسهولة :

فبينما كانت عوامل القلق تتزايد من حوله . . كانت هذه المذاهب تزيد النار اشتعالاً . مستغلة ضعف عناصر المناعة . فبثت سمومها الناقعات . في لحظة ضعف طارئة . على طريقة إبليس الذي يسرع إلى الضحية ليضرب ضربته . في لحظة من لحظات الضعف الإنساني .

الثانية : أنه إذا تحمل الشباب نصيبهم من اللوم أحياناً . . فإن جيل الشيوخ يتحمل القسط الأوفى من اللوم :

لأن هذا الجيل قد أسهم في تمرد الشباب . . لما تملق عواطفهم . إلى حد حملهم على الغرور . . ثم الرفض والعصيان . كنتيجة حتمية لأسلوب خاطيء في التعامل مع ردود الفعل لدى هؤلاء الشباب .

يقول الشيخ الشعراوي :

(يجب أن نعترف بأننا نحن الذين أفسدنا شبابنا . وظل الفساد يسري وينتشر . حتى ظهرت هذه الجماعات الدينية المتطرفة . التي يصل بها الأمر إلى حد اغتيال رئيس الدولة . بهذه الصورة التي اهتزت لها الدنيا . من أقصاها إلى أقصاها . مسؤوليتنا جاءت من أننا رحنا نتملق قدرات الشباب .

ـ ونحن نعلم أن الشباب قدرة وفعل ـ ولكن بلا معرفة . كما أننا تجاهلنا الشيوخ . أصحاب العلم والمعرفة . لأننا مطمئنون إلى أنهم عاجزون . . بلا قدرة .

فالشباب قدرة . . بلا معرفة .

والمشيب معرفة . . بلا قدرة .

وماذا كانت النتيجة ؟

كانت النتيجة أننا تمادينا في منافقة الشباب . وفي تملق قدراته . فانتابه الغرور . وظن أنه عارف . إلى جانب أنه قادر . فراح يتحدث في كل شيء . ومن

بين الموضوعات التي راح يتحدث فيها : السياسة . نعم . . بدأ الشباب يتحدث في السياسة ويقول :

(لن أفعل كذا . . ولا تفعل كذا . . وهذا خطأ . وهذا صواب . وانتهى به الأمر إلى حمل السلاح . ليفرض رأيه بالقوة) .

* * *

العودة إلى الماضي :

ومهما يكن من أمر فقد تشعب الشباب الرافض شعبتين :

فريق . . ذهب في الأرض حيران . . متحللاً من كل قيد . . سائراً على حل شعره . . ولا شأن لنا الآن بهذا الفريق الذي نتركه . . حتى يفيق على وقع صدمة سوف تعود به إلى رشده يوماً .

ولكن حديثنا مع الشباب المسلم الذي اتخذ قراره بالعودة إلى الماضي . . إلى حيث هبط الوحي الأعلى . . يتلمس فيه الشفاء . حيث لم يسعفه الواقع الماثل بدواء .

والعودة إلى الماضي مبدأ قرآني . يقول سبحانه : ﴿ **قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشأة الآخرة أن الله على كل شيء قدير** ﴾[1] إنه عود حميد إلى حيث نبتت الدعوة وبسقت فروعها .

سحر الماضي :

لقد كانت الرحلة إلى الماضي مغرية . . ولأنها موغلة في القدم فلقد كانت لها جاذبيتها الخاصة . وهكذا يقرر الخبراء :

يزيد سحر الماضي كلما طعن في السن . .

ينطبق هذا على الأشياء والأفكار . . إن تمثالاً أو أثراً عمره مائة عام لا يساوي تمثالاً أو أثراً عمره ألف عام . .

إن مجرد مرور الوقت على الأشياء يزيد في قيمتها . . وما يجوز على الأشياء يجوز على الأفكار والأقوال . .

وأحياناً يضع الناس أفكار الزمن الماضي في إطار القداسة ، وأحياناً يرددون ما قاله الأسلاف بانبهار وإعجاب يمنع النقد والتحليل ، وأحياناً يتحول الماضي من ضوء

---

(١) العنكبوت : ٢٠ .

يهدي الحاضر إلى سجن مغلق عليه ، ويتحول الماضي من عبرة تقود الحاضر نحو المستقبل . . إلى قيود تعوق حركته وتمنعه من السير .

وفي الساحة الإسلامية نماذج ينطبق عليها ما نقوله . وهي نماذج لا نشك في حسن نواياها ، ولا نشك في رغبتها في الاصلاح إنما نشك في معرفتها ببعض القوانين الطبيعية .

إن الجذور لازمة للشجرة . . لأنها هي التي تغذي الشجرة ، وهي المسؤولة عن نمو الساق والأغصان والثمار . .

والماضي لازم للإنسان ، بوصفه منبع الذكريات ومخزن التجارب وأصل الهوية ، ولكن اعتبار الشجرة جذوراً فقط . . والنظر إلى الإنسان في إطار الماضي وحده ، يفسد الشجرة والإنسان معاً . .

وأسهل شيء في الدنيا أن نقلد طريقة الرسول ﷺ في الأكل والمشي والجلوس ، كما أن أسهل شيء أن نقلد مظهر عمر بن الخطاب أو أبي بكر الصديق أو علي بن أبي طالب . .

ولكن من الصعب أن نقلد أسلوبهم في التفكير ، وورعهم في التصرف وقدرتهم على تحويل المجتمع الجاهلي الظالم إلى مجتمع يحكمه الإيمان ويشيع فيه العدل والرقي . .

إن شكل المسلم ومظهره وملابسه ليست هي الأمور التي سيحاكمه الله عليها يوم القيامة ، إنما يحاكمه الله على أسلوبه في التصرف ، وعلى اختياره اليومي وموقفه من أزمات الحياة وفتنتها . .

إن المسلم مسؤول عن جوهره لا عن شكله[١] .

لماذا قرر الشباب العودة إلى الماضي :

هناك فرق هائل بين : نبات شيطاني . . ونبات أصيل :

فالنبات الأصيل : هو ذلك الذي نضع بذوره في الأرض . . ثم نتابعه ونرعاه . . ونحن مسؤولن عنه .

وهكذا شبابنا : فهم ذلك النبات الأصيل . . لكنه لم يجد الرعاية الكاملة . .

---

(١) أحمد بهجت ـ الأهرام .

فكان منه ما كان من تمزق وتمرد . . أسهمنا نحن الكبار في تعميق جذوره . .

لقد انطلق الشباب عبر الساحة الاجتماعية . مدفوعاً برغبة ملحة في أن يجد متنفساً لطاقاته الحبيسة . . فماذا وجد ؟

وجد مجموعة من المتناقضات :

على المستوى الدولي :

أ ـ مثلاً « هنري فنس » الإنجليزي ينادي باستيطان اليهود . مع أنه لم يكن يهودياً . . وهو رجل ينادي شعباً لا يعرفه . . لاستعمار بلد لا يعرفه . . وطردِ شعب لا يعرفه ! . . لإقامة دولة تسيطر على ممالك الأرض !

ب ـ الدولة الغنية تلقى في البحر فائض الحبوب واللبن لديها . . طعاماً للحيتان . . بينما في بلده يموت الأطفال جوعاً !

جـ ـ المنظمات الدولية لا تأثير لها . . والدول العظمى تصدر إلينا المشكلات . . ثم لا تحلها . .

ثم تساءل : كيف يمكن التعايش : بين الفريسة . . والصياد . . بين الدول النامية . . والدول الغنية . .

وكيف كانت الغيرة تحرقه وهو يرى « خامات » وطنه تباع بثمن بخس دراهم معدودة إلى دول مستغلة تصنعها . . ثم تردها إلينا سلعاً غالية الثمن !

* * *

على المستوى الاجتماعي :

أ ـ وجد الشباب : سارق السر . . يقطع سارق العلانية !

سارق البيضة ليسد بها جوعته . . يقع تحت رحمة ناهب أقوات الشعب . .

أسماء السراق الكبار تطوى . . لا يصرح بها . . بينما سارق البيضة يلاحق بالتشهير !

ب ـ غابت القدوة ونضب معين : الشفقة على الصغير . . وتقدير الكبير . . فكان الجفاء المتبادل المضيع لمعنى الأخوة .

جـ ـ وفي باب الرياضة كانت المفارقات العجيبة :

صارت عقولنا في أرجلنا . . ونال لاعب الكرة من التقدير ما لا ينال عالم الذرة !! :

لقد تمزق الشباب وهو يرى :

أن إحراز هدف أهم في نظر المجتمع من حصول كاتب على جائزة دولية .

تمزق الشباب وهو يرى لاعب كرة يحرز هدفاً فيحصل على جائزة ١٥٠ ألفاً من الجنيهات . وهو يرى أيضاً مكافآت اللاعبين الفائزين تبلغ عشرات الآلاف بينما بقيت جائزة الدولة التشجيعية حتى الآن ألف جنيه .

وقد ترتب على ذلك خلل كبير في مكونات الشباب . وفي تكوين أحلامه . ونماذج القدوة في حياته .

وأصبح الحلم أن يكون الشاب رياضياً أو مغنياً شهيراً !

* * *

(وإذا كانت هناك حقيقة نخرج بها من دورة الألعاب فهي : أنه لا صوت يعلو فوق صوت اللعب . فالملاحظ دائماً : أن حسن الإدارة والحزم . والحسم . والهمة والإنجاز والنشاط وإغداق الأموال بسخاء لا يظهر إلا في الألعاب والملاعب . وفي كل ما هي لعب . وفي كل ما هو مهرجانات ومحافل ومواكب .

كرة واحدة تدخل في الشبكة نقف لها ونهلل أكثر مما نهلل لنصر أكتوبر واختراق خط « بارليف » !

وترتفع الرايات . وتدق الطبول ويتوقف المرور . ويسهر الجميع . . وتضج الشوارع بالهتاف . . كل هذا من أجل « جون »

بينما ترى الجيش المصري الباسل يقدم نصراً تاريخياً . . فتتطوع أقلام خانت أمانتها لتتهم الدم المراق بأنه تمثيلية .

ويمر النصر التاريخي بلا صوت .

وهذا شيء غير طبيعي :

الأوضاع مقلوبة : اللعب أولاً وثانياً . . وعاشراً .

وفي آخر القائمة يأتي الجد ويأتي الانتاج . وتأتي الصناعة والزراعة والتعليم . . تم نسمع من يقول : أن ما جرى في دورة الألعاب كان مجداً ؟!!

فمتى كان اللعب مجداً . . في أي قاموس . . وفي أية لغة)؟!

* * *

(وقد رأينا من يموت بالسكتة القلبية لهزيمة فريقه الكروي . . لقد تحولت الرياضة إلى ألوان غريبة من التعصب والجنون والسفه . فرأينا مباراة فريق « مانشستر الإنجليزي » تتحول إلى مذبحة يقتل فيها أربعون من المتفرجين بسبب جنون

المشجعين الإنجليز الذين جاؤوا سكارى ليقذفوا اللاعبين بقذائف « مولوتوف » الحارقة لينقضوا على مشجعي الطرف الآخر بالخناجر)

* * *

خطورة هذا السفه :

وقد ترتب على ذلك صعود نجوم الكرة إلى أعلى الدرجات . . وتوارت بالحجاب شخصيات فذة لها في مجال الخدمات باع طويل . . وفي نصرة الدين قدم راسخة . .

ثم ضاعت القدوة . . فانطفأ المصباح وعم الظلام . . وهب الشباب مذعوراً على هذا الواقع الأليم . . يبحث عن منفذ يعيد إليه ثقته بنفسه . وبمجتمعه .

* * *

وفي مجال الإرشاد :

كان الإعلام متحيزاً يركز على هذه النماذج الهابطة . وفي محاولة للتعتيم على النماذج الطيبة التي تتوارى في الضباب خجلاً أو عجزاً . ويا لها من مفارقة عجيبة : أن تنال راقصة من التقدير المادي والأدبي ما لا يناله عالم الذرة في بلادنا !!

وقد راح الشباب يفتشون عن العلماء فلم يجدوا لهم أثراً في صد هذه الهجمة الشرسة . . وربما راعهم أن رأوا بعضهم على ما يقول الشاعر :

عجبت من شيخي ومن زهده ... وذكره النار وأهوالها
يكره أن يشرب في فضة ... ويسرق الفضة أن نالها!

* * *

على مستوى الدولة :

باختصار : وجدوا لوائح الحكومة أكثر قداسة من الشريعة نفسها !!

ولقد كان للفنانين وطلاقتهم في التعبير . . والحركة . . ولمقدمي البرامج حريتهم في الحديث عن أي شيء . . بغض النظر عن موافقته للشريعة . . ويبقى صوت الشباب الراغب في الإصلاح حبيساً لا يجد السبيل إلى إعلانه فضلاً عن تطبيق ما يدعو إليه .

لحظة الذروة :

لقد سمع الفتى والده وهو يعظه أن يحب مجتمعه . . فلم يجد في المجتمع ما يبكي عليه !

وقرأ كيف وصل المأمون ولده قائلاً :

اكتب أحسن ما تسمع .
واحفظ أحسن ما تكتب .
وحدث بأحسن ما تحفظ . .

قرأ هذا . . ثم لم يجد ما يحمله على الحفظ . ولا ما يشجعه على الكتابة . . لأن موجة الثقافة التافهة لم تدع بين يديه شيئاً يغريه بالاهتمام .

* * *

وإذن فقد كان الشباب المسلم على حق . حين قرر الفرار من هذا الواقع المر . . إلى الماضي المشرق . وصولاً إلى حل حاسم . يضع حداً لهذه المعادلات الصعبة .

* * *

ماذا وجد الشباب[1] :

إذا قرر الشباب المسلم أن يعودوا إلى الماضي . . فماذا وجدوا ؟ وهل حققوا ما يريدون ؟

وإذا لم يكونوا قد وصلوا إلى ما أملوا . . فما هو واجبنا وواجبهم . حتى نصل جميعاً إلى تحقيق الأمل المشترك ؟

* * *

لما عاد الشباب إلى حيث هبط الوحي الأعلى . . بهرتهم المثل العليا التي صنعها الرسول ﷺ على عينه :

وجدوا نماذج عزت اليوم نظائرها :

الرجل يقتل أباه . . أو أخاه . . انتصاراً لعقيدته .

وأبو بكر يجود بكل ما ملكت يداه .

وعثمان يجهز جيشاً كاملاً . من ماله الخاص .

خليفة المسلمين يموت وليس في بيته دينار ولا درهم .

المرأة المسلمة تخوض المعارك في بسالة تحسد عليها .

غلمان صغار يتسابقون إلى الموت كما يتسابقون إلى الحياة . .

المذنب تحمله قدماه طواعية ليقدم نفسه إلى ساحة القصاص .

الشاب . . يترك عروسه ليلة زفافها . . طلباً للشهادة . .

* * *

---

(١) راجع في هذه القضية «المنطق» لمحمد الراشد .

المحاكمة :

عاد الشباب من رحلته إلى الماضي . . فهاله الفرق الشاسع بين الواقع الماثل الحافل بصورة التناقض . . وبين ذلك الماضي الزاهر . .

لقد أحزنه إن لم يجد من هذا الماضي المشرق اليوم إلا رجع الصدى . . فكانت الحسرة . . وكان التمزق .

ثم كانت محاكمة مجتمع اليوم بمقياس العصر النبوي . . بعد أن تسربت من نفوسهم بقية من الثقة في علماء الدين الذين وجدوهم ـ من وجهة نظرهم ـ وقد تخلوا عن مراكز الصدارة . فكان لهم من نقمتهم النصيب الأوفى .

وبدل أن يسألوا هؤلاء العلماء لعلهم يهتدون . . تسرعوا فأصدروا ـ كلهم أو جلهم ـ حكماً بفساد المجتمع كله . . واقفين بأنفسهم موقف الأستاذ . وفي ظل مبدأ يقول :

من لم يكن معنا . . فهو علينا

وهكذا وقع جيلنا ـ من الآباء ـ بين مخافتين :

فقد كنا نجلس بين أيدي آبائنا . . ويعقد الخوف ألسنتنا . فلا نتكلم .

ونحن اليوم أيضاً كما قال بعض العلماء :

نخاف أن نظلم أبناءنا . حذر غضبهم ونقمتهم .

ومطلوب من أبنائنا الأعزاء أن ينقذوا جيل الآباء المظلوم . من هاتين المخافتين !

* * *

محاذير على طريق العودة :

إذا كان من حق الشباب أن يعودوا إلى الماضي تلمساً للقدوة . التي افتقدها فلم يجدوها . .

فقد كان الواجب يفرض عليهم أن يعودوا من وراء دليل يرتاد بهم المجاهيل . ويقيهم مضلات الطريق . ويحميهم من أحكام جائرة تكمن خطورتها في أنها تنسحب على جيل كامل من العلماء له ماضيه في خدمة الدعوة . .

ثم على جمهور المسلمين الذين يعبدون الله تعالى في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه .

* * *

أن طريق العودة إلى الماضي . . استقراء للتاريخ له علاماته المميزة . والتي صاغتها عقول المربين الراشدين . ومنها :

أ ـ لا بد أن يعرف الباحث المستقريء أصول البحث والموازنة . بين الواقع والماثل . والماضي القريب أو البعيد .

ب ـ إن دراستنا للأحداث قد تتم أحياناً تحت تأثير مذهب سياسي أو اجتماعي معين .

جـ ـ انفعالنا بالحدث القائم يفقدنا الرؤية الشاملة المتأنية . ومن ثم يجيء الحكم مضطرباً .

د ـ الاكتفاء بالنظرة السطحية المتسرعة . لا يمكن البصيرة من أداء دورها نفاذاً إلى ما وراء المشهد . ووصولاً إلى السبب الحقيقي للموقف . أو الظاهرة .

هـ ـ الاكتفاء بالنظرة السطحية المتسرعة . لا يمكن البصيرة من أداء دورها نفاذاً إلى ما وراء المشهد . ووصولاً إلى السبب الحقيقي للموقف . أو الظاهرة .

و ـ قد تبهرنا أضواء الأعمال الكبيرة انبهاراً لا نرى معه دقائق التفاصيل . . ثم نمضي في الاعجاب . . فيجيء الحكم خاطئاً . . لأن السبب الحقيقي للظاهرة راجع إلى أمر صغير لم تقع عليه عينك لفرط انبهارك بالعظائم !

* * *

وإذن . . فالعودة إلى الماضي مشروطة بالالتزام بالمنهج السليم في تقدير الناس والأحداث . .

وإلا . . فإن النظرة العجلى . . أو المغرضة . . متأدبة بنا إلى فساد التصور . . ثم إلى فساد التصوير !

* * *

فإذا تعلق الأمر بالسيرة النبوية كان لا بد من احتياط أشد . . حيال مواقف يصبح الخطأ المعفو عنه في تناول أحوال البشر . . يصبح خطيراً في مجال السيرة النبوية .

* * *

وهكذا أخطأ بعض الشباب حين عادوا إلى الماضي وحدهم . . فظلموا الحقيقة . .

الذين يعقّون الحقيقة :

من شأن الباحث عن الحق :

أ ـ أن يبحث عنه في كل مكان .

ب ـ وأن يحاول اكتشافه بكل مداركه .

جـ ـ فإن عرفه . . لم يكن أحد أسرع إليه منه .

د ـ فإذا آمن به لم يكن هناك أحد أكثر منه تعبيراً عنه . وتضحية في سبيله . . بالأفعال . . لا بالأقوال . . بالإيمان والعمل الصالح :

* * *

ويعني ذلك أن الرحلة في طلب العلم لا بد أن تكون تحت إشراف أهل الذكر . . ضماناً للفائدة . .

لقد كان ابن عباس رضي الله عنه غلاماً حدثاً . . وكان يذهب إلى خالته « ميمونة » ليرى عملياً كيف كانت صلاة النبي ﷺ . وهو الذي صحب النبي ثلاثين شهراً . . ومع ذلك فقد روى عنه آلاف الأحاديث . . فكانت صحبة مباركة . . لم يكن قصاراها مجرد نقل مسائل العلم نقلاً . .

وإنما كانت للشباب عقلية كاشفة مستوعبة :

طلب عمر رضي الله عنه شربة ماء من شاب . . فقدم له الشاب عسلاً : فقال عمر : أخشى أن أكون ممن قال الله تعالى فيهم : ﴿ **أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا** . . ﴾

فقال له الشاب على الفور :

ليست فيك يا أمير المؤمنين . . اقرأ ما قبلها : ﴿ **ويوم يعرض الذين كفروا على النار . . الآية** . . ﴾ وهكذا فهمها الفتى . . وغابت عن أمير المؤمنين !

وهكذا تكون العناية بكتاب الله عز وجل . وهكذا تكون العناية بالحق :

ولكن التسرع . . والانفراد بالبحث والنظر وصل بالشباب إلى ما يلي :

١ ـ ركزوا على نوع خاص من الثقافة يتجاوب مع عواطفهم الفائرة . فانحسر عنصر الترغيب . . وانفرد الترهيب بقلوبهم .

٢ ـ حفظوا الحكم . . ولم يستوعبوا الحكمة .

٣ ـ ولما كان الأمراء والعلماء مسؤولين في نظرهم عن هذا التناقض فقد هاجموا الحكام والعلماء . ناسين أنهم شركاء في القضية .

٤ ـ سلطوا الأضواء على مثالية العصر النبوي . ولم يدركوا ما كان فيه من

سلبيات . . تساعد على تخفيف حدة الأحكام على الناس اليوم .

٥ ـ جاءت أحكامهم عامة مطلقة .

٦ ـ بدت الصورة معتمة مانعة من الرؤية . . ثم كان اليأس من الاصلاح .

* * *

عندما يغيب أهل الذكر :

في القارورة الزجاجية : تنطفيء الشمعة . حيث لا « أوكسجين هناك . فإذا وضعت إلى جانبها مصدراً للأوكسيجين . . بالإضافة إلى ضوء الشمس . . ظلت مشتعلة .

وبعض الناس ـ من الكون ـ في مثل القارورة المغلقة :

يرون الكون من خلال حجرة زجاجية :

فهم يرون . . ولكنهم لا يسمعون . . ثم لا يفهمون .

وعليهم أن يفتحوا النوافذ . . نوافذ الادراك فيهم . . ليروا . . ثم ليسمعوا . . ويفهموا .

ثم يشتعل الفكر في أدمغتهم نوراً كاشفاً هادياً . .

* * *

ولا يمكن أن يتم ذلك . . إلا في صحبة أهل الذكر :

والعلماء ما يفتأون ينصحون . . ويرشدون . .

ولكن المشكلة ليست في النصيحة . . وإنما هي في قلوبهم :

إنها تبذل اليوم مجاناً . . ولكنها تكلف المستفيد بها كثيراً :

فمن قبلها . . اجتاز الجبل . . ومن رفضها أخطأ طريقه حتى في السهل !

فلنقبل عليها بقلوبنا . . لا بآذاننا . .

وقد تكون النصيحة مرة المذاق . . ولكنها حينئذٍ كالدواء : كلما زادت مرارته نفع . . ونصيحة الشيوخ تضيء . . ولكنها لا تحرق . . تماماً كشمس الشتاء !!

* * *

من مظاهر العودة بلا دليل :

كان من نتائج العودة إلى الماضي بلا دليل . . أن وقع بعض الشباب بين شقي الرحا :

بين العلم الجامد . .

والعلم الناقض . .

علوم الحياة التي يتلقونها في الجامعة . . لكنهم جمدوها . ولم يستثمروها . . وعلوم الشريعة لم يستوعبوها . . ورضوا منه بالقشور . . وكان لهذا الاتجاه مظاهره في واقع الحياة يتلخص فيما يلي :

* * *

١ ـ الاعتماد في التربية على استحياء مشاعر الغضب . . والخوف . وصار المربي شخصية مهيبة . . فوق النقد .

٢ ـ دارت على الألسنة أسئلة تعبر عن هموم صغيرة . . غافلة عن القضايا الكبيرة . والتي بها يتم التغيير المطلوب .

٣ ـ غفل طلاب الكليات العلمية . حين جمدوا ما يملكون من أسرار الطبيعة وشغلوا أنفسهم بما لا يحسنون من علوم الشريعة .

٤ ـ التعصب للرأي .

٥ ـ تعجل الثمرة قبل نضوجها .

٦ ـ اليأس من الاصلاح .

* * *

وذلك ما نشير إليه بشيء من التفصيل :

يقوم منهج التربية الإسلامي على الترغيب والترهيب معاً . . لكن المربين من الشباب ـ في ظل النظرة المتسرعة ـ ركزوا على عنصر الترهيب غالباً .

لقد رجع المربون من الشباب بتلاميذهم إلى الماضي ليحاربوا بقيادتهم معارك قد انتهى أوانها . . ثم قفزوا بهم إلى يوم القيامة بأهوالها أو حورها وجناتها . . متجاوزين معارك الحاضر وهو ميدانهم الحقيقي . .

ومن ثم خلت منهم الساحة . . بعد أن انكفؤوا تارة على الماضي . . وأخرى على المستقبل الواعد في الجنة . . التي لم يدفعوا من جهدهم ثم دخولها .

* * *

لقد اختار المتحمسون الذين لا نشك يوماً في إخلاصهم . . اختاروا الضرب على وتر الخوف . وإثارة مشاعر الغضب الذي يراد صبه على مجتمع ظالم آثم في نظرهم :

أ ـ شاب في الثانوية الأزهرية ينتهذ بمجموعة من الصبيان مكاناً قصياً . . وسط غابة من الأشجار يقرأ عليهم باب الجنائز !!

ب ـ المدرس الخصوصي يقتني جهاز « فيديو » يعرض على الغلمان مذابح الفلسطينيين . .

جـ ـ وفي مجلس آخر : تملى عليهم نصوص في بيان أهوال الموت . وأحوال القيامة .

* * *

ونشأت عقدة الخوف التي أمسكت بأفئدة هؤلاء الصبيان . . ولما كان الخائف يلوذ بالشخصية الأقوى في نظره . فقد اشتد تعلقهم . . بمن يلقنونهم . . ولجؤوا إليهم . . ليفكروا لهم . . بل ويحبون نيابة عنهم إن كان الخوف قد أبقى في قلوبهم بقايا من عاطفة الحب الودود !

* * *

٢ ـ اتجاهات السائلين :

نوعية السؤال مرتبطة بلون الثقافة . .

ولما اقتصرت مجالس العلم على التمكين لعنصر الترهيب . . كانت الأسئلة هكذا ؟

هل يجوز الدعاء للكافر بالهداية ؟

هل يجوز الأكل مع من لم يصل ؟

هل يمكن أن تنشأ علاقة ما بين مسلم وكتابي ؟

والقرآن الكريم والسنة المطهرة أجابا بجواز أن تنشأ صلة ما مع أهل الكتاب الذين لم يؤذوننا[1] . .

وفي السنة المطهرة جواز الدعاء للكافر بالهداية . . فقد دعا ﷺ لدوس قائلاً : « **اللهم اهد دوساً . .** » بل دعا لقومه الذين آذوه فقال : « **اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون** » .

* * *

(١) في سورة الممتحنة .

وتحت تأثير هذا التشدد اختفت أسئلة كثيرة مرتبطة بسعادة المجتمع ومنها :
ما حكم من يصل رحمه ؟
ما هو حق العالم . . على تلميذه ؟
إلى أي حد يحض الإسلام على العمل ؟ والابتكار والاختراع ؟
أجل . . تراجعت هذه الأسئلة وأمثالها . . لأن المربين من الشباب لم يعتنوا بجانب من الثقافة العملية . . يحمل التلاميذ على شغل أنفسهم بمثل هذه الجوانب العملية . .

* * *

نماذج وصور :

سألني طالب لا أشك في صدق رغبته في المعرفة عن :
أ ـ حكم تبرع الكتابي للمسلم بدمه أو كليته .
ب ـ ما هي اللغة التي تكلم بها سيدنا آدم .
جـ ـ من الذي غسّل الرسول ﷺ . . وأين ذهب ماء غسله ؟!!

* * *

وتلاحظ أن قضية تبرع الكتابي غير واردة على الساحة الإسلامية من الناحية العلمية . . وهي كقضية طلاب يلحون عليك عن حكم شهادات الاستثمار بينما لا يملكون أكثر من قوت يومهم . .

إنها إذن طاحونة الهواء تدور بالطاقات في فراغ . .

* * *

وقد قلت له يا بني :

أنا لست مشغولاً بمن غسلوه ﷺ وإنما أنا مشغول بالذين غزروه ونصروه واتبعوا النور الذي جاء به !

وأنا أربأ بك أن تكون من ضعفاء العقول الذين صاروا « كالنظارات » المكبرة : تضخم الصغير ولا ترى الكبير .

* * *

إنها عملية هروب منظم إلى الماضي . . بعد أن انحسرت الطاقة فلم تستطع

مواجهة الواقع كما ينبغي . . وبعد أن شـل الخوف ملكـات الشباب . . التي غيـر الخوف اتجاهها أو دمرها تدميراً . .

لقد رأوا على شاشة « الفيديو » فلسطينيين يذبحون . . فثار شلال الغضب في قلوب غضة . . تلفتت حولها فلم تجد لها قدرة على مقاومة هذا الظلم . . فتوجهت طاقة الغضب ـ بالأمر ـ إلى الأمراء والعلماء . . في معركة بين شركاء متشاكسين . . نحقق بها للعدو أقصى أمانيه !

* * *

وربما أفاق الشباب راغبين في التضحية . . فإذا بالحديث عن رهبة الموت . . وعن الآخرة . . وعن قصة إبليس اللعين . . إذا بهذه الدوامة تجعلهم أسارى في يد مربين من الشباب استأثروا بهم . . وحذروهم من كل مستنير . . يفك أسارهم . . ويمضي مسلسل الاستعباد إلى منتاه !

* * *

يقول بعض الباحثين :

(الكثير منا لا يزال مولعاً بالمعارك القديمة . التي انتهت بأصحابها وأهدافها وأسلحتها وزمانها . ومع ذلك فهو يصر على دخول المعـركة المنتهيـة . ويستنزف طاقاته . وطاقات من يستمع إليه فيها .

ويحاول أن يحقق انتصارات في الفراغ . بعد أن تطورت المعركة . وتطورت أسلحتها . وتغير أشخاصها . وتبدلت ساحاتها . وبلغت أبعادها وأمداء تفعل فينـا فعلها .

لكننا سوف لا نتنبه إليها إلا بعد فوات الأوان . ولا ندخل ساحتها إلا بعد أن تكون قد أدت أغراضها . وحققت أهدافها .

لقد دخلنا المعارك القديمة . ولا نزال ندخلها . وننشغل بها . على حساب الحاضر وما يدور فيه . والمستقبل وما يخطط له .

ويمكننا هنا أن نقول :

بأننا سوقنا لأفكـار المستشرقين عن حسن نيـة . وعملقنا أشخـاصهم . دون حسابات دقيقة للآثار السلبية على أكثر من صعيد . لما يترتب على ذلك .

وكأننا لكثرة ما نبدي ونعيد في هذه الموضوعات . ونكتب ونخطب . نوحي أننا ما زلنا دون مرحلة النصر . أو على أحسن الأحوال : نعاني من آثار الهزيمة الفكرية

التي تعيش في أعماقنا . إلى جانب ما يمكن أن تورثه تلك المعارك من قدرة الخصم على التحكم بمسار تفكيرنا . ونشاطنا العقلي .

لأنه يكفي أن يلقي إلينا ببعض التشكيكات ليستثيرنا . ويحول جهودنا وطاقاتنا إلى تلك المواقع الدفاعية :

فينفرد هو بالتخطيط لتحقيق أهدافه .

وكلما حاولنا أن نتنبه . ينتقل بنا إلى مشكلة أخرى . فنبقى دائماً في مجال رد الفعل . . ونعجز دائماً عن الفعل . .

ذلك أن رد الفعل يملكنا . . بينما نحن الذين نملك الفعل)[1] .

* * *

شطارة التقدميين :

كان التقدميون من الحزبين أشطر في التعبير عن عواطفهم . . فلقد رأينا الواحد منهم يبوح بحب وطنه . .

ثم يعبر عن حبه لوطنه ببناء مستشفى . . أو تشييد صرح للتعليم . . أو إقامة جسر . . أو بناء ملجأ للأيتام . .

أما في مجال التدين . . فما أحر العاطفة . لكن ما أرخص التعبير !!

تأمل معي مواد مجلة في كلية جامعية . . ما هي :

مقالة تنذر :

الأيام . . ظل زائل . . وحياتك سراب يلمع . . وأوراق أيامك تذوي يوماً بعد يوم !

ثم قصيدة تحذر :

إنما الدنيا متاع . . كل ما فيها غرور

فتذكر هول يوم . . السماء فيه تمور .

* * *

فانظر كيف يخرج الطالب من بيته متوقد القريحة . طافحاً بمعاني التفاؤل . . متفجر الحيوية . . فإذا وصل إلى باب كليته وجد صورة القبر . . والوحشة . .

---

(١) مقدمة كتاب المنهج في كتابات الغربيين (١١) .

والفراغ . . فهل يستطيع أن يضبط الزاوية والمثلث في يده بينما أصوات الواقعة تحتويه ؟

لماذا أيام المسلم بالذات تذوي بين يديه . . لماذا تشيب قبل المشيب بينما غيرنا يستثمر عمره ليصير بالعمل عمرين ؟! وعلى حساب عمرنا المضيع ؟ بل الذي ضيعناه باختيارنا ؟ وإذا كنا نكتب في المجلة عن « الحور العين » فهل دفعنا مهرهن الغالي اليوم حركة وإنتاجاً وعملاً إيجابياً ؟ ولماذا شعر الترهيب . . بينما العابثون من سمار الليالي يستغلون ما في الصور البيانية من إشراق في محاولة لتسويق الباطل ؟

لماذا تصر الفضيلة على العبوس . . بينما الرذيلة هناك مثل العروس ؟!

لماذا لا نستخدم الشعر المشرق سبيلاً إلى التمكن لمعاني التفاؤل بدل أن يحتكرها اللاهون لماذا لا أقول للمسلم . . تعال يا مسلم . . تقدم فالمستقبل يناديك . .

أنت ملكه . . ومالك زمامه ؟

إنما الدنيا . . أنت فيه الفكر

إنما الدنيا ليال . . أنت فيها العمر

إنما الدنيا عيون . . أنت فيها الصبر

إنما الدنيا سماء . . أنت فيها القمر !!

* * *

لماذا لا نعيش دنيانا . . عاملين آملين على سنة الله تعالى وسنة رسوله ﷺ . .

لماذا نموت . . قبل أن نموت ؟!

سئل طالب في كلية جامعية :

ما هي أمنيتك ؟ فأجاب في وقار الشيوخ :

أسأل الله حسن الختام !!

ختام ماذا . . يا ولدي ؟

هل قدمت عملاً نسأل له خاتمة . . أنك بهذا ولدت لتموت في نفس اللحظة . .

ورحم الله الصغير العزيز صاحب الثمان والذي كان يقول لي دائماً :

زمان . . فعلت كذا

وزمانٌ . . قلت كذا

وكنت أقول له :

وهل لك زمان . . يا إبراهيم ؟!!

* * *

أن الجنة لا تنال بقفزة يخاطر بها خيال سائب . . كتلك القفزة التي يجثم بها ثوار الدنيا على كراسي الحكم . .

وإنما الحياة استمرار . . وتواصل . . ومرحلة تؤدي إلى مرحلة . . ليجيء الختام على قدر ما قدمت من عمل . .

* * *

ويعجبني هنا سخرية أستاذنا الشيخ محمد الغزالي . . ذلك الرجل الصاحي الذي يوقظ النائمين . . والذي شكا إليه أحدهم من « جني » يمرضه فنهره قائلاً :

هل تخصص الجن فقط في ركوب ظهور أمتنا . .

تنبهوا لشياطين الأنسى الذين يعبثون بمقدراتكم وأنتم نائمون حالمون !

* * *

أقرب الناس إلينا :

وهؤلاء الشباب الذين ننقذهم بل نرشدهم هم أقرب إلينا رحماً . . ونحن وهم في خندق واحد . . نقاوم معاً مظاهر الانحراف . . ونرفع قواعد البناء سوياً . . ومن أجل ذلك قد يعلو الصوت المحذر . . أنه صوت رفيق السلاح الذي يخاف أن يؤتى من قبل رفيقه . .

وهنا يظهر خطأ القائلين :

وجهوا النقد للمنحرفين أولاً . .

لأننا لا نستطيع مواجهة الانحراف إلا بالسلاح . . سلاح الكلمة الطيبة . . والقدوة الحسنة . . وهذا الشباب المتحمس هو سلاحي الذي أجاهد به . .

ومن ثم . . فأنا حريص عليه . . متمسك به . . بالتقويم . . حتى لا أهزم بسببه . ذلك بأن « الكرة » التي يضعها عضو الفريق في شبكته أشد مرارة من اختها التي يضعها الفريق الآخر في نفس الشبكة !!

* * *

تراجع قيمة العمل :

ونجحت التربية الخاطئة في عزل جماهير غفيرة من الشباب عن مصادر التربية السليمة . . وكان حصادها مجرد الحماس . . الذي يسول لصاحبه أحياناً أن بضعة أيام يقضيها في السجن . . أو أن مقاطعة أبيه وأمه جهاد في سبيل الله يرشحه لجنة عرضها السماوات . . ومضى الحماس المندفع . . كالعواصف الرملية . . تصب على الرؤوس شواظاً من قيظ الصيف . .

* * *

ثم تراجعت فيه قيمة العمل البارزة بين قيم الإسلام . . وترك الولد أمه وأباه في الحقل . . جاعلاً من دراجته النارية التي يدور بها على أصحابه حركة مباركة يمكن للإسلام بها . .

وبرز في ذهنه ما له من حقوق . . ثم يفكر فيما عليه من واجبات . . غافلاً عن أن الواجبات التي أهملها . . إنما هي حقوق في عنقه للآخرين . .

أجل ضاعت قيمة العمل . . وعاش الشباب فيما يشبه طاحونة الهواء . . متجاهلين حقيقة تعلموها في الجامعة وهي : أن الطبيعة لا تقبل الفراغ . . أو هكذا قالت قوانين الفيزياء . .

إن العمل الجاد لينشيء فينا :

النشاط . . وحب الناس . . والرضا عن النفس . . بعكس الخمول فهو يدفعنا إلى الكسل والملل . بل والخيانة أحياناً .

والصبر على آداء الواجبات أقوى من الصبر على المصائب التي لا مفر منها .

* * *

الطبيعة الواحدة :

ومن مضاعفات هذه التربية الخاطئة . . أن صار الشباب نسخة واحدة يردد صوت سيده القابع هناك خلف الستار . . والذي جمد مواهب الشباب الراغبة في التفتح . . والتي هي مستعدة لأن تتنوع في المكان . . لتكون أشكالاً وألواناً . . من كل زوج بهيج . . والتي يمكن أن تمتد في الزمان تطوراً يسواكب التقدم العلمي الراكض إلى الأمام . .

* * *

وهكذا خمدت قدرات وضاعت تخصصات في مجال الشعارات . . وتشقيق

القول . . والتباهي بقشور المعرفة . .

وضاعت بذلك فرصة إعداد هذه المواهب لتكون سداً منيعاً في وجه الاستعمار الثقافي الوافد . . أن النخيل متشابهة في مرأى العين . . ولكنها في الواقع أكثر من ألف صنف !!

وإذا كان الحق تعالى قد أنبتنا من الأرض نباتاً . . فنحن في حاجة إلى البستاني الماهر . . الحكيم . . لتؤتي النخيل أكلها كل حين بإذن ربها .

* * *

يقول الشيخ محمد الغزالي عن واحدة من تجاربه المرة الكاشفة عن هذه السلبية في حقل الدعوة الإسلامية :

(في عصرنا الحاضر . استطاعت الولايات المتحدة أن تظفر بأكبر قسط من العقول المهاجرة . فدعمت تفوقها الحضاري . بعبقريات هائلة من كل قطر . بعد ما وفرت لها التقدير المادي والأدبي على سواء . .

. . . . وفي إحصاء نشرته صحيفة الأهرام أن ٦٦٪ من العقول المهاجرة هي من العالم العربي .

فأدرجت أن العالم العربي أخصب بقعة لرواج العملات المزيفة . وصدارة النفوس المريضة . وانتشار الكفايات المهيضة !

والغريب أن الفكر الديني سادته هذه اللوثة :

فعندما كنت في مكة وقعت مهزلة اختلال الحرم . وكنت بادي الغضب على ما حدث . فإن الأولاد الذين تحركوا تحت شعار السلفية لا قدم لهم في الفقه . ولا في السياسة . ولا في شؤون الحياة .

كل ما لديهم بضعة أحاديث . في قضايا ثانوية . مع تصور طائش لحاضر المسلمين ومستقبلهم . وسمعني أحدهم وأنا أتناولهم بسوء الظن والقول . فاقترب مني ناصحاً . وقال لي :

ـ ولست أشك في صدق عاطفته ـ :

الأفضل أن تسكت ! قلت : لماذا ؟ قال :

إن أصحاب القلوب المؤمنة اتفقت آراؤهم على أن المهدي عليه السلام آن ظهوره . ويوشك أن يخرج ليملأها عدلاً كما ملئت جوراً .

قلت : وأين هذا المهدي ؟ قال : معهم ! قلت وأنا أضحك من أعماق النفس :

هذا الطالب الذي ترك الدراسة في إحدى الكليات لأمر ما ؟ قال :

ليكن !! قلت :

عجباً لأمر أمتنا :

اليهود يقودهم حكماء صهيون المختارون من أعلى المواهب .

والشيوعيون يقودهم كرادلة مجربون . لهم في خدمة الكنيسة تواريخ ناطقة .

والشيوعيون تقودهم أنياب مفترسة . قضت أعماراً متطاولة في الدرس والتطبيق .

وأمة محمد وحدها هي التي يتولى قيادها طالب فاشل !

أهذا تفكيركم ؟!

أن المسلمين ـ لطول رئاسة الأغبياء في مجتمعاتهم ـ فقدوا الحس بموازين الأمور . ومعاقد المسؤولية . فهم يحسبون المناصب حظوظاً عمياء . . لا أمانات بصيرة . . وسوف يظلون دون العالم كله . . ما شاع بينهم هذا المنطق المشؤوم)[1]

* * *

ولقد ترتب على إهدار هذه الطاقات في غير ميادينها الإيجابية . . ترتب عليها تراجع أمم إسلامية كثيرة كانت في طريقها إلى الرخاء والقرار . . لولا تقاعس الشباب .

قال تنكو عبد الرحمن :

لقد أعطيت وطني زهرة عمري .

وأنا الآن أعطي الإسلام ثمرته وخواتيمه . .

ثم قال :

لو كان عندي الخبراء الذين يعملون في مزارع المطاط . وفي استخراج القصدير . . وتصنيعه . . لشعرت باستقرار أكبر . في الاستقلال الوطني .

ولكن . ما دامت المصانع عندهم . والخبرة في أيديهم . فسنظل عملياً تحت سيطرتهم العلمية .

---

(1) أزمة الشورى ٩٢/٩٥ .

ومنها تمتد السيطرة إلى الاقتصاد والسياسة . .

* * *

وهكذا يتأخر المسلمون . . حين يتأخر الشباب . . صاحب المستقبل . .
وصحيح أن الإسلام يتقدم . . مهما وضع انحراف المسلمين حجاباً دونه . .

ولكنه سيظل ينطلق بقوته الذاتية . .

وسوف ينطلق بأناس يرتفعون إلى مستواه علماً وعملاً .

* * *

إلينا أيها الحائرون :

قلت للفتى العاكف على لون واحد من الكتب لا يبغي عنه حولاً :

ألم تر إلى هذه الشجرة الخضراء . على باب دارك ؛

تعلم منها فن الانفتاح على الحياة :

إن هذه الشجرة تمتص النور . والهواء . وعناصر التراب . . ثم تحول كل ذلك إلى : أفنان . . فأوراق . . فأزهار . . فثمار !

فلماذا لا تقرأ كل كتاب تطوله يداك ؟

ولماذا تسد أذنيك . . وتستغشي ثيابك . . مصراً على قراءة لون واحد . . والاستماع إلى خطيب واحد . .

ألا ما أصبرك على طعام واحد؟!

* * *

لا بد من استقبال واردات العلم من كل عالم . . ومن كل فن . وأن كان ثمة خطر تظنه . . على العقيدة . . فهو خطر العاصفة التي لا تقتلع الشجرة . . ولكنها : تكسر الأغصان الجافة . . وتسقط الأوراق الصفراء . . لتنبت براعم جديدة . . شاهدة بميلاد ملكة الابتكار . .

هذه الملكة التي إذا غابت (تحول الشعراء إلى ناظمين . والفلاسفة إلى كلاميين . والأطباء إلى دجالين . والفلكيون إلى منجمين) !

المهم :

أن نتمكن من ثقافة غيرنا ـ بله ثقافة أمتنا ـ لا أن نمكنها منا . . وأن نفتح لها القلوب . . لا أن نهب لها تلك القلوب . . وأن نأخذ منها ما يوافقنا . . لا أن نكون

في الموقف الذي يعجب أصحابها .

ويعني ذلك أننا نمضغ المعرفة . . أياً كان جنسها . . ثم نبتلعها . ونهضمها . . فيتحول الصالح منها . ليكون جزءاً من كياننا .

إن الأسد الهصور : مجموعة من الخراف . . التي لا تصير أسداً بضم بعضها إلى بعض . . وإنما صارت بالهضم ذلك الأسد الهصور . .

فإذا صرت مجرد قاضم بأسنانك . . ثم لا قدرة لك على الهضم . . فإن الطعام سوف يذهب سدى . . بل سوف يتحول إلى سم زعاف !

ألم تر إلى الريح . . كيف تصير عقيماً لو هبت من زاوية واحدة ؟ .

لكنها إذا تعددت . . وتنوعت نواحي هبوبها . . فإنها حينئذٍ تصير رياحاً تتكامل . . لتصبح مصدراً للخير . .

وهكذا يعلمنا القرآن . . عندما يذكر الريح مفردة . . وجمعاً .

وهكذا السائح الماهر :

أنه لا يكتفي برؤية بعض الأشجار . . ولكنه يرى الغابة كلها .

* * *

عقبات يجب اقتحامها :

إذا ملك الشباب الإخلاص . . فعليه أن يجعل لهذا الإخلاص قيمة بالتسلح بالعلم . سبيلاً إلى النهضة المنشودة . . عليه أن يقتحم عقبات الطريق المانعة من الوصول إلى الهدف . فإذا نجح وتخطاها . . كان قادراً على إدارة حوار هادف يجعل منه ومن مخالفه في الرأي جنديين في خندق واحد . . تحت راية واحدة . .

ومن هذه الآفات :

آفات عقلية هي :

أ ـ العلم الناقص .

ب ـ والعلم الجامد .

ومنها آفات نفسية هي :

الكبر . والحسد . ومضاعفاتهما .

* * *

المعلم الناقض :

ونعني به حفظ المتون . واستظهار الأحكام . دون أن تكون هناك في القلب ملكة تتذوق الحكمة من وراء هذه الأحكام . كما تشمل أيضاً : الاقتصار على مصدر واحد للثقافة . وكثير من الشباب يحفظون شروط الفريضة وأركانها . .

وعلى أساسها يؤدون الفريضة أداء منظماً . . فإذا رحت تستكشف آثار الفريضة في حياتهم . . وأين هي ثمرتها الاجتماعية والنفسية لديهم لم تسمع إلا أشرطة معبأة بما في الكتب المفروضة عليهم . .

وقديماً : رأى حكيم غلاماً حسن الوجه . . فلما استنطقه . لم يجد عنده علماً . فقال : نعم البيت . . لو كان فيه ساكن !

* * *

مثل من هناك :

في يوم مطير . . كان راهبان يسيران في الطريق .

ورأيا فتاة حسناء . تحاول عبور الشارع . . فلا تستطيع من كثرة الوحل . وشدة المطر . فحملها الراهب الشيخ . وأنزلها على الجانب الآخر .

وبعد وصول الراهبين إلى مقصدهما قال الراهب الفتي للراهب الشيخ :

كيف تحملها . . ولمس المرأة حرام ؟

فقال الراهب الشيخ :

أنا حملتها من جانب ثم انتهيت منها بوضعها في الجانب الآخر .

وأنت ما زلت تحملها حتى الآن ؟!!

* * *

وبغض النظر عن السخرية المستكنة في جواب الشيخ من هذا الشاب المتدين الذي ما زال طيف الحسناء يطارده . . ويلج على خاطره . إلا أن الموقف ينطوي على سخرية أخرى من هذا الذي يحفظ الحكم جيداً . . ثم يغفل عن المضمون الاجتماعي للموقف . وحجم المأساة التي يمكن أن تواجه فتاة تقف وحيدة . . في هذا الجو القاتم .

لقد حسم الراهب الشيخ هذا الموقف طبق ما تمليه الحكمة المقصودة من الحكم الشرعي أساساً . . ولم يقف عند الظاهر البادي ، أي أنه استحضر مقصد

الدين هنا . . وما يدعو إليه من الوقوف إلى جانب المحتاج . .

وفي لحظة أحس فيها بضميره يدعو إلى تحقيق هدف الحكم . . وهو الحفاظ على عرض يوشك ! أن يستباح . . في هذه اللحظة . . حمل الفتاة . . ثم نجاها بعمله من خطر عظيم . . في الوقت الذي لا يغني استظهار الحكم عن الفتاة شيئاً .

* * *

من أسرار الحكمة النبوية :

وفي السنة النبوية المطهرة إشارات واضحة إلى مثل حكمة الشرع في معالجة القضايا على نحو يحقق مقاصد الشريعة :

أ ـ أذن ﷺ لأبي هريرة أن يبشر الناس :

من قال لا إله إلا الله دخل الجنة .

فلما عارض عمر ذلك . خشية أن يتكل الناس :

وافقه ﷺ .

وأرجأ الإذن السابق .

وافقه . . وهو المؤيد بالوحي الأعلى .

تقديراً منه ﷺ لوجهة النظر الواعية بطبائع النفوس . والتي لا تقف عند السطح غافلة عما يستقر هناك في الأعماق فلمّا رفع رسول الله ﷺ إلى الملاء الأعلى ترك من خلفه رجالاً قادرين على تحمل مسؤولية البلاغ . بما بث فيهم من ملكة الشجاعة الأدبية . التي جعلت منهم رجالاً فيما بعد .

ب ـ حرم رسول الله ﷺ أن يدخر المسلم من لحم الأضحية أكثر مما يكفيه وأسرته ثلاثة أيام . وقال : « **لا يحل لامريءٍ أن يدخر من لحوم الأضاحي . فوق ثلاثة أيام** »

وجاء هذا الحكم في وقت كان فيه الأعراب حول المدينة . قد أصابهم قحط شديد . فلما حان وقت عيد الأضحى . هرع الأعراب إلى المدينة يلتمسون لحوم الأضاحي . وكانت عادة أهل المدينة أن يدخرون من لحوم الأضاحي ما يكفيهم وأولادهم مدة طويلة .

فلما حرم الرسول ﷺ ذلك . اضطر كل من عنده ما يزيد على حاجته ثلاثة أيام أن يقدمه لهؤلاء المحتاجين . ولما سئل ﷺ في عام تالٍ : كنت نهيتنا في العام الماضي عن الادخار فهل نفعل ذلك هذا العام ؟

فقال : « كلوا . وادخروا . فإني كنت قد نهيتكم لإنقاذ الوافدين عليكم » .

إن للشريعة مقاصد عليا . . وقصور العقل عن استيعابها يصيبه بالجمود . . فلا يساير الحياة .

* * *

من مضاعفات العلم القاصر :

من مضاعفات العلم القاصر : ضمور الناحية الإيجابية :

قيل لبعض الباحثين :

ما أثقل الأحمال في نظرك ؟ قال : ألا أجد ما أحمله !!

إنه الفراغ القاتل . . والملل المقيت !

وهذا واحد من الأسباب التي جنحت ببعض شبابنا إلى الاستجارة من الرمضاء بالنار . . لقد أرادوا أن يعبروا عن الغليان في قلوبهم . . فاكتفوا بالأناشيد الحماسية . والخطب النارية . . هاربين من الميدان الحقيقي الذي يجدون فيه متنفس هذا الحماس . . ومن أجل ذلك ضلوا طريق الوصول إلى هدفهم الشريف . .

إن من مقررات الإسلام لاستثمار الطاقات . . والخروج من متاهات الملل ما قرره الإسلام :

ما على أحدكم إذا غلب عليه الهم أن يتقلد سيفه . . ؟

وما أرشد إليه :

احفر بئراً . . وطمها . .

وهكذا يكون التوجيه الباعث هذه القوى الشبابية الكامنة في القلوب . . لتفرض على الحياة إرادتها . .

ومن مضاعفات العلم القاصر الرؤية المتسرعة . التي تحمل على الأحكام التعميمية :

بعث إلي طالب بكلية أصول الدين يقول :

(لو سمحت يا دكتور :

حضرتك تعتبر من علماء الدين . وترى بنفسك خيانة الله ورسوله . رأي العين . وأنت بفضل الله تتاح لك مخاطبة الناس على مستوى عالٍ .

فلماذا لا يتأثر الناس . . وكيف علماء الدين الآن موالون للحكام ؟!)

* * *

فهذا طالب السنة الأولى . . جاء من المعاهد الدينية معبؤٌ بما تحول في قلبه إلى يقين :

١ ـ فالخيانة لله ولرسوله واضحة للعين المجردة . لا تحتاج إلى دليل ؟!

٢ ـ والناس جميعاً لا يتأثرون بكلمة واعظة .

٣ ـ والحكام ظالمون . .

٤ ـ وعلماء الدين ـ هكذا كلهم ـ موالون لهؤلاء الظلمة . .

فهل إلى خروج من سبيل ؟!

* * *

هكذا أريد لهذا الفتى الناشيء أن يكون . . مصنوعاً على أعين جعلت منه شريطاً تسجل فيه أحكام تدين المجتمع كله . . بينما عقله وقلبه محبوسان هناك في أعماقه . .

ولا تريد هذه السياسة أن تنشطهما ليكون لهما رأي مستقل . . أو على الأقل لتجعل الحكم أقرب إلى الانصاف . وبدل التعميم . . نستثني علماء فضلاء . . وحكاماً عادلين . . وجماهير غفيرة تعبد الله وتتبع سنة رسوله . .

ثم لبعث الأمل في صحوة مباركة تقف بالعصاة معنا في جبهة واحدة . . وتدخر البقية الباقية من طاقتنا للعمل المثمر . . لخدمة أمة الإسلام . . بدل هذا التناحر الذاهب بهذه الطاقات بدداً .

يقول بعض الباحثين :.

أن (التعميم : صفة قد تكون سائدة في أحاديثنا . وكتاباتنا . سواء كانت خاصة بشعب . أم طائفة . أم ظاهرة .

وما أسرع أن نقع في مساويء التعميم . وقد نجرب ذلك فيما نقرأ من الكتابات التي حولنا : فقد ينساق بعض الكتاب بعد أسطر قليلة عند مناقشتهم لموضوع إلى وضع التعميمات .

ويرافق التعميم التعصب الشديد غير المرن . لفكرة أو موضوع . دون النظر في سلبياته . وإيجابياته . والمقارنة بينهما .

ومن مظاهر غياب التفكير في مجتمعاتنا : الاعتماد الكلي على النص الذي سبقنا . وقال به المتقدمون .

أما الجانب الآخر في غياب التفكير السليم فهو :

استعداد عدد كثير منا للتنازل عن رأيه . حتى لو كان سليماً . مجاراة لما يعرف « بالرأي العام » وأغلبه مكون من : « رأي العوام »)!

* * *

هذا في الوقت الذي لا ينام فيه أعداؤنا . . وهم من مكر الليل والنهار في حركة دائبة لإطفاء نور الله تعالى . . وقد يخطيء هناك حكام . . وعلماء . . لكن الأمة تعترف لهم ـ حتى بعد تركهم مقاعد الحكم . . ومراكز التوجيه ـ تعترف لهم بما يملكون من خبرات ينبغي ألا تطمس . . ويجب أن تظل في خدمة الأمة . .

وكثيراً ما سمعنا عن رؤساء دول سابقين . . يجوبون البلاد في محاولات للتأثير في مسار الحياة لحساب دولهم . . أما نحن . . فإننا نجتاح . . وبإصرار كل الخبرات لدينا . . من جراء خطأ قد يكون بيضة الديك في حياة صاحبه !

إن أساليب الأعداء تمرق إلى الهدف . فتصيبه . ونحن لا نزال في مرحلة الوصف . لم نستعد بعد للرمي والنزال . . فهل يكون الإلحاد أذكى كما عبر الشيخ محمد الغزالي .

(ومن الأصلح لمسلم مواجهة الفساد . لا مواجهة العباد . لأن انتشار الأباطيل في مكان ما . . لا يجتثها من جذورها إلا إصلاح مقابل مكان آخر .

خاصة في عصر لا يملك المسلم فيه أدوات التغيير كاملة .

لكن ظلم بعض المسلمين لأنفسهم يجعلهم لا ينهضون لمثل هذا المشروع الرابح . بل تراهم طوال الوقت يلعنون الظلام . ولا يقدرون أن يشعلوا مجرد عود ثقاب يضيء بعض المسالك)

* * *

الانفعال وهمة الرجال :

ومع وضوح الحقيقة هنا . . إلا أن قلة المربين ـ من شباب اليوم ـ يصرون على البقاء إلى جانب الأحكام الفرعية . . يخوضون بها معركة كلامية لا تتوقف . . بينما غيرنا يتقدم على حساب تأخرنا . .

وما أكثر العويل حول النقاب ومصافحة المرأة إلى حد يستغرق الليل والنهار . . فإذا رحت تبحث عن المناهج التي أعدت لإنقاذ المرأة مما أحاط بها من مشكلات لم نجد إلا الخطب النارية تصك سمعك . .

وما بالخطب تحل المشكلات :

يقول بعض الباحثين :

(الخطابة الانفعالية قد تكون حافزاً له قيمة . عندما توظف لحث الناس على القيام بعمل صار الاتفاق عليه شاملاً أو شبه شامل على أنه حق . أو ضروري .

كأن نحمس الناس لتأييد الانتفاضة الفلسطينية . وندفعهم إلى مؤازرتها بالجهد والمال . فذلك حق غير مختلف فيه . أو أن نقوم بتعبئة ضد عدو مغتصب . يريد بأوطاننا الشر . . أي عندما يكون المطلوب حماساً وعاطفة .

ولكن عندما يكون المطلوب أن يتخذ الناس قراراً في موضوع فيه وجهات نظر مختلفة تحتاج إلى أعمال الفكر . أو في موضوعات إن طرحت انفعالياً تزيد من شرذمة الناس . وتفرق بينهم . . كالموضوعات المذهبية والطائفية والسياسية . . فإن تحكيم العقل هنا له صلة وثيقة بالتفكير السليم) .

* * *

وقد حاول بعض الباحثين تحكيم العقل هنا . . فتساءل معاتباً بعض قيادات العمل الإسلامي . . فاتحاً أعينهم على حقيقة ما يراد بنا . . لتأخذ الطاقة الشبابية سبيلها الأقوم إلى تحقيق الأهداف العليا بدل تبديدها في السباب . . والعتاب . . يقول :

(وإذا سألتهم :

ماذا يريدون ؟

قالوا : نريد أن نعيش كما كان يعيش رسول الله عليه الصلاة والسلام . . ولا نزيد . فإذا قلت للواحد منم :

ولكنك تركب سيارة . وتحمل على كتفك مدفع كلاشنكوف . والنبي عليه الصلاة والسلام كان يركب البغلة . وكان يقاتل بالسيف . فكيف تحل لنفسك ما تحرمه على غيرك . . وكيف تستعين بعلوم الكفار . ومخترعات الكفار ؟ . .

وإذا كان بعض الشباب يسير في هذا الركب مخدوعاً . فإن القيادات الماكرة ورؤوس الفتنة التي تحفر لتهدم البيت . تعلم تماماً ماذا تفعل .

. . أفق يا رجل :

هناك من يخطط ليقتلع المئذنة كلها . ويأخذ بيتك . فأرضك . ويسلبك

وطنك وهويتك . وأنت تجادل في الخل والنايلون . . وتعيش في متاهات خلافية . وتحاول أن تقسم الشعرة نصفين ؟!

أفق يا رجل من هذا الخيال :

إن الله جعل الأرض كلها للمسلم مسجداً وطهوراً حتى الأرض الأمريكية . والأرض الروسية . . نستطيع أن نصلي عليها .

فما بال أرض مصر . . أرض الأديان والتوحيد لمدى سبعة آلاف عام . وأرض الألف مئذنة وأرض الأزهر . .

وأنت تريد أن تهاجر منها معتقداً أنها أرض كفر .

من قال لك هذا . . خدعك .

ومن نصحك بها خانك .

ودعوتك تلك هي أكبر خيانة لدينك ووطنك .

إن الإسلام يتفاعل ويأخذ ويعطي في كل زمان دون تعصب ودون عدوان .

ونراه حتى في الجاهلية يأخذ ببعض أخلاق الجاهلية مثل : كرم الضيافة . والشهامة والنخوة والشجاعة .

ويرفض أخلاق أخرى مثل العصبية والتفاخر بالأنساب)[1]

* * *

تحذير الرسول من العلم القاصر :

تنبأ ﷺ بأقوام جاهلين . يزعمون الدين فقط فقهاً . وقراءة للقرآن . وحفظاً له . دون العمل به . . ثم حذر من الوقوف بالدين عند هذا الحد يضر ولا ينفع . .

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما . عن رسول الله ﷺ . أنه قام ليلة بمكة فقال : « **اللهم بلغت** » . (ثلاث مرات) .

فقام عمر بن الخطاب . وكان أواها . فقال :

اللهم نعم . وحرضت . وجهدت . ونصحت .

فقال ﷺ :

« **ليظهرن الإيمان . حتى يرد الكفر إلى موطنه . ولتخاضن البحار بالإسلام .**

(١) د. مصطفى محمود : الأهرام ١٤/٨/١٩٨٤ .

وليأتين على الناس زمان . يتعلمون فيه القرآن : يتعلمونه . ويقرؤونه . ثم يقولون :

قد قرأنا وعلمنا . فمن الذي هو خير منا ؟

فهل في أولئك خير ؟ » قالوا :

يا رسول الله : من أولئك ؟ قال :

« أولئك منكم . وأولئك هم وقود النار »[1]

وهكذا تبدوا جرثومة الغرور الذاهبة بالحكمة . .

ويظهر العلم القليل . . وما يترتب عليه من جهل كثير . .

وفيما ذكره الإمام الغزالي بيان لما يشير إليه الحديث :

يقول الإمام الغزالي :

العلم ثلاثة أشبار : :

من تجاوز الأول . تكبر

ومن تجاوز الثاني . تواضع

ومن تجاوز الثالث . أيقن أنه لا يعلم شيئاً .

وحكمة الإمام هذه تفتح أبصارنا على طالب الثانوية . الذي قد يحقق تفوقاً على أقرانه . . في دائرة محدودة من العلم . . فيذهب به الغرور كل مذهب . حين يتصور أن الدنيا هي : الفصل . فإذا انتقل إلى المرحلة الجامعية . . ورأى اتساع دائرة العلم . . واختلاف وجهات النظر . . وسمع من الأساتذة على اختلاف منازعهم وثقافاتهم . . تراجعت نسبة الغرور . . وفرض عليه التواضع أمام ساحة واسعة . . يرى نفسه فيها نقطة لا تكاد تحس . . بعد ما كان في الفصل . . وفي المدرسة نسيج وحده . . ولو قدر له أن يدخل في نطاق الدراسات العليا . . ثم توفر على دراسة فرع واحد من فروع فن واحد . .

ثم قرأ لباحثين في المشارق والمغارب . . فسوف يعود بيقين جازم أنه لم يدرس من قبل شيئاً وهو اليوم يبدأ مع العلم الحقيقي عهداً جديداً . .

* * *

وإذا كانت آفة العلم النسيان كما يقولون . . فإن قاصمة الظهر فيه هي :

---

(١) رواه الطبراني . وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب .

الغرور . . (ولقد وجدنا عالماً جليلاً . يقتعد مقعد الأستاذية . في حصن العربية والإسلام . الأزهر . في كلية الشريعة . يفتتح درسه الأول لطلاب قسم الدراسات العليا قائلاً :

« إني سأدرس لكم تاريخ التشريع الإسلامي . ولكن على طريقة علمية . لا عهد للأزهر بها . وإني أعترف لكم بأني تعلمت في الأزهر قرابة أربعة عشر عاماً . فلم أفهم الإسلام . ولكني فهمت الإسلام حين دراستي في ألمانيا »(١) .

وإذا كان في هذا الموقف ما يشير إلى تأثر باحثينا بما يكتبه المغرضون عنا . . فقد بقيت فيه بقية تؤكد مدى ما يحدثه الغرور من تشويش في العقول . وتشويه في العيون . . وعندئذٍ يضيع الطريق من أقدامنا .

* * *

رأي أستاذنا الغزالي :

(أعلن الشيخ محمد الغزالي خوفه على الدين من حملة الدين أنفسهم . . وخاصة بعض المنتسبين إلى الجماعات الدينية التي لا تدرس كتاب الله بعقل . ولا تعرف السيرة النبوية بدقة . ولا تدري عن التاريخ الإسلامي شيئاً يشرف الإسلام .

ثم يقول :

وأنا أعجب في هذا العصر الذي تنهار فيه حضارات مادية ويوشك أن يقع في الكون تغيير جذري . ويأتي واحد ليسألني : أيهما أفضل : الحجاب أم النقاب ؟!

ويتساءل الغزالي قائلاً :

أي نقاب هذا يا جماعة . . الذي تتحدثون عنه ؟

أنني لا أخاف من النقاب الذي على الوجه . لكنني أخاف من هـذا النقاب الذي على الفكر !!

ثم يقول الشيخ :

أنا أخشى أن تجهل الأمة رسالتها بشيء لا معنى له .

وإذا كان الفكر قد مات بين مليار ومائتي مسلم هو عدد المسلمين في العالم .

---

(١) المنهج في كتابات الغربيين ٥٢ للدكتور عبد العظيم الديب والذي ذكر بالهامش رجوع الدكتور عن رأيه هذا .

فكيف تكون لنا نهضة وصحوة حضارية . وكلمة مسموعة بين شعوب العالم)[1]

* * *

والغريب أن الحديث الشريف يحذر من أناس تعلموا الفقه . . وقرأوا القرآن . . فكم تكون النكسة لو أمسك بالزمام اليوم شباب لا يحفظون القرآن . . ويريدون إقامة دولته على أكتاف واهنة . . لا تعمل . . ولا تنتج . . ولا تملك إلا الحماس :

جعجعة ولا ترى طحناً !

إن الحياة الآن ـ كما قيل بحق ـ :

علم . . وبحث . . وتخصص . .

وينبغي أن يكون شبابنا مزوداً بالعلم . . في كل فن . . كل حسب ميوله :

العلم في رؤوسهم . .

والإيمان في قلوبهم . .

والحركة في أيديهم . .

وفي ألمانيا واليابان :

١ ـ تسلحوا بالعلم . . فعاشوا في جو فكري . . منسجم متوافق . .

٢ ـ وعلى قاعدة الانضباط . . على أساس أن يمارس كل امرىءٍ ما يحسنه . . احتراماً للتخصص . . فأضاف كل واحد جديداً إلى ما أنجزه زميله .

أي أنهم احترموا التخصص . .

واحترام التخصص مبدأ إسلامي :

قال ﷺ :

« أرحم أمتي بأمتي . . أبو بكر .

وأشدهم في الله . . عمر .

وأصدقهم حياء . . عثمان .

وأقضاهم . . علي .

وأعلمهم بالحلال والحرام . . معاذ بن جبل .

---

(١) الجمهورية ٢/٢/١٩٩٠ .

وأفرضهم (أعلمهم بالمواريث) زيد بن ثابت .

وأقرؤهم . . أبي بن كعب .

ولكل أمة أمين . . وأمين هذه الأمة : أبو عبيدة » .

وللأسف استوعب غيرنا هذه الحقيقة . . أما نحن :

فلا نخطط . . وبالتالي : ينكر كل واحد عمل زميله . . بلا إضافة تذكر .

* * *

العلم الجامد
أفاق واسعة

لم يتصدر علماؤنا مجالس القضاء أو الفتوى إلا بعد أن أعدوا للأمر عدته . . وغاصوا في أعماق النفس الإنسانية . وتأملوا ظواهر الاجتماع البشري . فجاءت أحكامهم وليدة فهم عميق لطبيعة الإنسان وطبيعة الاجتماع.

ولم يكن فقههم خطفة من هنا وهناك . . بقدر ما كان بصيراً بالحياة في كل جوانبها . .

في ضوء القرآن الكريم والسنة المطهرة.

يقول الدكتور عمر فروخ[1] :

(لما جعل الشافعي البلوغ « في الصبيان والبنات » في سن باكرة « في التاسعة » كان يصدر عن علم بطبائع البلاد . وباختلاف أحوال المناخ.

ولا شك في أنه كان يعرف أن الفتاة في جنوبي مصر . وفي جنوبي الحجاز تدرك مدرك النساء . قبل الفتاة في شمالي الشام . وشمالي التركستان .

وكذلك لما مد الإمام أحمد بن حنبل « البلوغ » ـ بلوغ الرشد ـ في الصبيان إلى أن يتموا علمهم . وفي البنات إلى أن يتزوجن . . كان يصدر عن معرفة بأحوال الاجتماع الإنساني. وبالمسلك العملي في الحياة .

فما قيمة الحكم الشرعي ببلوغ الرشد في فتى في الخامسة عشرة من عمره الجسدي . إذا كان عمره العقلي . أو عمره التعليمي خمس سنوات .

---

(١) تجديد المسلمين . لا تجديد الإسلام ١٦ وما بعدها .

أي الطفلين أحق أن يكون راشداً :

أطفل ذكي . متعلم في الحادية عشرة . . أم طفل متخلف أمي . . في الثامنة عشرة ؟

لم يكن هنا بين الشافعي وأحمد تناقض ولا خلاف .

ولكن كل واحد منهما قد تناول موضوع الرشد من جانب) .

* * *

إن القراءة المتعجلة لن تكن بصيرة نافذة إلى حقائق الأمور . .

والمهم أن تترسب المعاني في قلبك . . لتكون جزءاً من كيانك . . وبها تتشكل بصيرتك .

ذلك بأن حرفاً في قلبك خير من ألف في كتابك . . أو على لسانك . .

وقديماً قال المأمون لولده : ماذا تقرأ ؟ قال :

إقرأ : ما يشحذ الفطنة . ويؤنس الوحشة . فقال المأمون :

الحمد لله الذي جعل في بني من يرى بعين بصيرته أكثر مما يرى بعيني رأسه .

وهنا تبرز أهمية العلم بأسرار الكون وسننه ليتفاعل به المسلم مع الحياة :

قبل أن يسبقنا ركب الحضارة . . ثم لا ينفع الندم . ونذكر هنا قول حكيم :

لا خير في علم لا يعبر معك الوادي . ولا يعمر بك النادي .

تذكرت هذا التوجيه وأنا في طريقي ألى نادي الشباب بالقرية . . وصوت المكبر يملأ الأفق . .

ومن ورائه المهندس الزراعي يأمر وينهي . . تاركاً مزرعته لغلمان لا يحسنون صنعاً !

* * *

كان المهندس يحاول شرح بعض الآيات المحذرة من عذاب الآخرة . .

ينما الجمهور الغفير صبيان دون العاشرة !

وقلت في نفسي :

فليكن موضوع كلمتي « حديثاً » عن رسول الله ﷺ يشد آذان أناس تركوا الحياة العملية . . وعطلوا خبرات تلقوها في الكلية . . ليختاروا الأسهل . عن طريق

كلمات لا تكلفهم إلا عقائر يجأرون بها .

ووقع اختياري على حديث « الأترجه » وكيف أن لهذا المهندس الزراعي مجالاً حيوياً يمكن لو تفرغ له أن يساعد على كشف حقائق في مجال الطبيعة تطعم الجائع وتسر الناظر . . بحيث نتعاون معاً على البر والتقوى بدل التزاحم في مجال الوعظ والارشاد . . بينما ميدان الإنتاج يندب حظه .

قلت في الحفل :

قال ﷺ :

« مثل من أعطي القرآن والإيمان كمثل أترجة طيبة الطعم . طيبة الريح .

ومثل من لم يعط القرآن . ولم يعط الإيمان كمثل الحنظلة :

مرة الطعم . لا ريح لها .

ومثل من أعطي الإيمان . ولم يعط القرآن : كمثل التمرة :

طيبة الطعم . ولا ريح لها .

ومثل من أعطي القرآن ولم يعط الإيمان كمثل الريحانة :

مرة الطعم . طيبة الريح » حب . عن أبي موسى رضي الله عنه .

* * *

كان من الممكن أن يقول ﷺ :

الذي أعطي القرآن طيب الباطن والظاهر مثلاً . . .

فلماذا عدل عن ذلك إلى تشبيهه بالأترجة ؟

إن الأسلوب الأول : مجرد أخبار عن حقيقة . . يتلقاها المستمع . بثقة مطلقة بمن لا يجوز عليه الكذب .

لكنها تصبح معرفة عقلية مجردة لا تنشىء في قلب المستمع الحماس المطلوب . .

فلما ألبسها البيان النبوي هذه الحلة الآخذة . . بهذا التمثيل . . ثم ركز على النقيض . .

---

(١) جامع الأحاديث للسيوطي ج ١٩٧٩٦/٦ .

فشبه المحروم من النعمتين بالحنظلة .. توهجت الحقيقة .. التي يستقبلها المستمع بكل منافذ الحس فيه .. فيقبل على القرآن والإيمان مدفوعاً .. بجمال الأترجة .. نافراً من نقيض ذلك كلما تصور المقابل وهو الحنظلة المرة طعماً .. ولا ريح لها .

* * *

ولكن .. لماذا التمثيل بالأترجة بالذات .. من بين الفواكه طيبة الطعم .. طيبة الريح ؟

ألقيت هذا السؤال على المهندس الزراعي المشغول بالدعوة إلى الله .. فلم يستطيع أن يجيب ..

وفي بطون الكتب عثرت على خصائص الأترجة التي ضربها الرسول مثلاً لصاحب القرآن والإيمان ..

مشيراً إلى بعض خصائص .. تاركاً للعقل الإسلامي أن يتحرك ليكتشف الباقي :

فالأترجة : ريحها طيب : العيدان .. والثمر .. والورق .. والنوار .. إلى جانب طعمها الطيب ..

وملسمها لين .

ومنظرها ..

وهي سهلة الهضم ..

يتخذ من بذرها ولبها بعض الأدوية ..

ثم إنها ليست « صحراوية » .. وإنما تنبت في الحقول الخضر ..

أي أنها شجرة اجتماعية .. لا فردية !!

وقد أثارت خيال الشعراء .. فوصف أحدهم صفرتها متسائلاً :

من فرقة الغصن أم خوف السكاكين !

وهكذا ترى أكثر الحواس .. تستمتع بها ..

وهكذا يجب أن يكون حامل القرآن .. وكل من يدعو إليه :

طيباً في مظهره .. ومخبره .. ليناً في حديثه .. حكيماً في دعوته .. سهلاً سمحاً .. اجتماعياً يرصد ما تبقى من جهده لخدمة الآخرين !!

* * *

وعدت إلى المهندس الزراعي . . الشاب المخلص . . فطلبت منه أن يمسك بالخيط ليكشف عن بعض أسرار . . الحنظلة والتمرة . . والريحانة . . ليجلي للناس سر البيان النبوي الحكيم . .

ومن المفيد أن يتفرغ رجل الشريعة ليكشف أسرار التنزيل . . وأن يتفرغ رجل الطبيعة لتخصصة . . ومن مجموع سعيهما تتوهج الحقائق الإيمانية . . لتكون بنفسها . . خير دعاية للإسلام . .

أما أن نعطل اختصاصاتنا . . لنشغل النفس بما لا يمسح الاستعداد بإجادته . .

فذلك هو الجهد الضائع . .

إننا في عصر التخصص . . فليتفرغ كل مسلم لما هو مستعد له . .

وبعد :

ليس المقصود بالعلم هو : العلم الشرعي . .

ولكن العلم في مفهوم القرآن متراحب واسع الأفق . .

إننا إذا قلنا أن الطالب غير المستعد لتعلم فن « الصرف » مثلاً عليه أن يوجه إلى ما يحسنه كعلم الفقه . .

فإنا نقول وبنفس القوة : أن من يحسن فن الطب أو الزراعة . ثم يهجره إلى ما لا يحسنه من علوم الشريعة فهو متجاوز حده . . هارب من معركة التعمير إلى ساحة الجدل حول حقائق لم تؤهله ملكاته لمعالجتها . . وعليه أن يتركها لمن هو أحق بها وأهلها . . ثم يعود إلى ما يحسنه من عمل . فإن قيمة كل امرىء ما يحسنه .

* * *

السائل . . المسؤول ! :

كان القاريء يتلوا قوله تعالى :

﴿ ومن دونهما جنتان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . مدهامتان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . فيهما عينان نضاختان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾[1] .

* * *

وسألني طالب الزراعة :

---

(١) الرحمن .

إذا كان الحق تعالى بعد أن ذكر الفاكهة قد خص النخل بالذكر . . لأنه غذاء كامل . .

فما وجه تخصيص الرمان بالذكر مع أنه مندرج في الفاكهة المذكورة قبله . . فقلت له :

منكم نستفيد !

فأنا لا أملك لك أكثر من قولي : إنه أفرد الرمان بالذكر نظراً لأهميته . . وأنت كباحث في أسرار الزراعة عليك أن تبحث مع أساتذتك عن أسرار الرمان التي لا توجد فيما سواه من الفواكه . . والتي جعلت له أهمية التفرد بالذكر مع النخل . .

فإذا وضح السر تكاملت ثقافتنا . . ووضح الحق . . وكانت هذه الأسرار سلاحك غداً إذا ما سافرت إلى الخارج . . سلاحك الذي تدعو به إلى الله تعالى في بلاد لا تؤمن إلا بما تسفر عنه التجارب . . ولا يؤمنون مثلك بكتاب ولا سنة !

* * *

وأذكر أن طالباً سألني عن سر إفراد « لفظ الريح » في القرآن الكريم تارة وجمعها أخرى . . وقلت له :

ذكر المفسرون أن إفراد « الريح » نذارة . . أما جمعها فبشارة . . غالباً.

وهنا تنتهي مهمتي . . لتبدأ مهمتك أنت . . فاسأل أساتذتك ليقولوا لك ما غاب عنك . . وما لم تشغل نفسك به وهو سلاحك في الدعوة لو أنصفت وسيقولون لك :

إن هبوب الرياح من كل جانب . . يحفظ البنيان . . الذي يتوازن بها . . فلا يسقط . .

أما لو هبت الريح من ناحية واحدة . . فسوف ينهدم . . لفقدان التوازن . . وهكذا الدعوة إذا لم يكن الداعي متوازناً . . معتدلاً . . منصفاً !!

* * *

وبعد فقد كان أحد أساتذة الزراعة يتحدث إلى طلبته عن ضرورة النزول إلى الحقول . لعدم كفاية العلم النظري .

وذات يوم . ذهبت مجموعة من الطلاب لزيارة مزرعة فاكهة . فوقف طالب يتأمل إحدى الأشجار . وقال لصاحب المزرعة : إن موسم البرتقال انتهى .

ومع ذلك فهذه الشجرة ثمارها لا تزال خضراء وصغيرة جداً . إنها إذن مريضة .

ولن تقدم لك برتقالاً ناضجاً . فقال الفلاح :

أوافقك تماماً يا سيدي على أنني لن أحصل من هذه الشجرة على أي برتقال . . لسبب بسيط . . وهو : أنها شجرة زيتون !! ولله في خلقه شؤون .

* * *

وهذا هو واجب الداعية المسلم :

إيمان بالله تعالى . . يملك عليه حسه ونفسه .

ثم حركة دائبة في كل مجال . . ليكون حقاً ممن يغيظ بهم الكفار .

و (حين ينهض الإنسان بالخلافة في الأرض . على عهد الله وشرطه . ويصبح وهو يفجر ينابيع الرزق . ويصنع المادة الخام . ويقيم الصناعات المتنوعة . ويستخدم كل ما تتيح له كل الخبرات . التي حصل عليها في تاريخه كله . .

حين يصبح . وهو يصنع هذا كله « ربانياً » يقوم بالخلافة ـ على هذا النحو ـ عبادة لله . يومئذ يكون هذا الأنسان كامل الحضارة . ويكون هذا المجتمع قد بلغ قمة الحضارة)[1] .

لقد حان الوقت الذي نزايل فيه سياسة التبرير . . إلى سياسة التعمير . . تعمير الكون بالخبرات الإسلامية المتميزة بأدائها وإنتاجها . .

ويااليت هذا المهندس الزراعي يذهب في سياحة إلى مملكة النبات وهي مجاله وتخصصة . . ليخاطب من خلالها الغافلين . . حتى يفتحوا أبصارهم على ما في هذا الكون من عجائب دالة على قدرة الله تعالى . .

لقد أثبت العلم الحديث أن الأشجار تتجاوب مع العالم الخارجي :

بعض الشجر إذا أحس بقدوم النمل . يقبض أوراقه . . حتى لا يمكنه من تسلقها . . ثم لا يفتحها إلا إذا غطيت سيقانه حبات الندى المانعة من تسلقه !

وفي بعض المناطق التي تخلو من وسائل تحمل عناصر اللقاح . . ترى النبات يرسل روائح كريهة . . لتجذب الذباب . . والذي يهرع إليها حاملاً اللقاح . .

---

(١) سيد قطب : معالم في الطريق ١١٥ .

وفي إستراليا أشجار قد يستعان بها على تسجيل الأحوال الجوية . .

إلى غير ذلك مما يعد وسيلة ناجحة قد يحقق بها المهندس الزراعي نجاحاً للدعوة . قد لا يصل إلى مثله أنجح الواعظين !!

* * *

(لقد أصبحت الحاجة ملحة لعملية التنقية الثقافية . وأصبحنا أحوج من أي وقت مضى إلى الذين يحملون عقل المهندس . ومبضع الطبيب) .

أجل أصبحت الحاجة ملحة ـ كما أشار مالك بن نبي ـ إلى تحويل التراب إلى زراعة وصناعة وهندسة وعمران .

لنحقق بذلك استقلال الأمة . . فراراً من الاستسلام لواردات من المشرق أو الغرب . .

وللأسف الشديد ما زال هناك من يسمي علوم الدنيا بالعلوم السفلى . . مع أنها فرض كفاية . ولا حياة إلا بها !

* * *

يقول بعض الباحثين :

(انصرف الكثير من علماء الإسلام عن النظر والتفكير في العلوم الكونية ، واشتغالهم بعلوم الدين واللغة والأدب . والذي أعنيه بهذا الكلام أنه كان يجب أن يكون في عصر المجتهدين من علماء الدين كأبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل مجتهدون آخرون في استنباط المعادن من بطون المناجم ، والبحث في خواص الأجسام وقوانين الطبيعة للوصول إلى الكشف والاختراع ، وأن يقوم بجانب علماء اللغة والأدب الخليل وسيبويه ، والفراء والأخفش ، والجاحظ وعبد القاهر ، والسكاكي والسعد والسيد ، والأصفهاني صاحب الأغاني ، وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ـ علماء آخرون من طراز آخر ، يبحثون في تنظيم الجيوش الإسلامية ، وتزويدها بآخر ما وصلت إليه يد الاختراع من معدات الدفاع والحرب ، وآخرون يبحثون في اختراع وسائل الراحة المختلفة ، وشؤون الحياة العامة كالصحة والزراعة والصناعة والتجارة وغير ذلك مما يشاهد في غير بلاد العرب والإسلام . وهاهنا أقول : إن جهلنا بعلوم الدنيا كان سبباً جوهرياً في تأخرنا وانحطاطنا في شؤون الدنيا وفي شؤون الدين !

وما يثير في النفس أعظم العجب أن دستور العرب ـ وهو القرآن ـ تعرض في

كثير من المناسبات إلى الحث على الأخذ بأسباب هذه العلوم ، على حين أن الكتب السماوية السابقة لم تتعرض إلى شيء من ذلك ، بل لم تشر إليه أية إشارة) .

* * *

ولأستاذنا الشيخ محمد الغزالي صيحات راشدة . . يستنهض بها همم الموتى . . من الأحياء . . ويحرض بها أهل القرآن أن يستلهموا روحه الوثابة الداعية إلى العلم بمعناه الواسع . . في زمان لا يبقى فيه إلا الأصلح . .

يقول :[١] :

(لقد كنا فيما مضى طليعة هادية ، ثم أطفأنا نحن ما بأيدينا من مصابيح . ثم شاركنا الهمج حياتهم . ثم تقدموا هم . وبقينا في السفوح . ثم بدأنا نشعر بأوضار الهزيمة . وأشواق الرفعة . وبعد سبات عميق شرعت قافلة الإسلام تتحرك .

بيد أن العالم الإسلامي الطويل العريض . لا يزال يموج بجماهير وحكومات لم تبلغ سن الرشد .

والعمل الأول هو :

كيف ينضج هذا الركام الكثيف من الخلائق ؟

والأمر لا يحتاج إلى فلسفة عويصة . فلنشرح ما نريد ونحن نستقبل القرن الجديد :

نظرت إلى القلم الذي أكتب به فوجدته أمريكي الصناعة . وإلى ساعة يدي . فوجدتها سويسرية .

والمنظار الذي يعينني على الإبصار . فوجدته من ألمانيا . وإلى الحذاء الذي أسير فيه . فوجدته إيطالي الصنع .

ثم إلى الثوب الذي ارتديه . فوجدته وارد من الصين الوطنية ولكن الحياكة عربية .

أما الملابس الداخلية فهي من مصر . ثم تذكرت أن الآلات التي نسجتها من أوروبا .

وأخيراً نظرت إلى السيارة التي تقلني إلى عملي . . فكانت من اليابان !!

---

(١) أزمة الشورى ٥١/٥٢ .

ماذا صنعنا نحن ؟ لا شيء!

هل العالم كله منتج . ونحن مستهلكون ؟ ذلك شيء يخزي . .

. . . إن شعوبنا تعاني التخلف الذي يعانيه طفل يسير وراء أبيه . أو تلميذ وراء أستاذه !

إننا شعوب لم تبلغ سن الرشد بعد . . سن الإنتاج والاستقلال والاستغناء . . فهل نحن بهذا القصور العاجز أهل لخدمة الإسلام ؟ وحتى أهل للإنتساب إليه) .

* * *

نماذج من الشرق. والغرب :

عندما قال الإمام محمد عبده . إن النهضة الأوروبية نهضة إسلامية في حقيقتها . ولكن تحت شعار أجنبي . . عندما قال ذلك ثار المتعصبون هناك ورفضوا أن تنسب نهضتهم إلى الإسلام . . لأنها أوروبية المبنى والمعنى !

ومهما يكن من أمر فقد واصل الأوروبيون والأمريكيون المسير . . ولقد سابقتهم أمم شرقية قاسمتهم الجهود الرامية إلى عمارة الكون . .

وتأمل بعض نماذج من هذه الجهود تحريض لأمتناعلى أن تستأنف المسير . . عوداً على بدء . .

وما انفك الغيارى من علمائنا يحرضون الأمة على النهوض . . أسوة بمن كان خطوهم في الماضي وراء خطونا . . لو مشينا على مهل !

يقول أحدهم :

أ ـ (يجب الجهاد في مجال إنهاض الأمة من التخلف . عن طريق التركيز على واجب العمل القائم على التراب والوقت من الناحية المادية .

وعلى الإرادة والعلم والقدرة من الناحية المعنوية .

مع بيان أن عجز معدلات الإنسان المسلم في العمل في مواجهة معدلات عمل الياباني والأمريكي والكوري والأوروبي ـ إنما يمثل خيانة للإسلام . وتشويهها لمبادئه . وفرضاً للتبعية والذل والتسول على الأمة الإسلامية .

والعمل لا بد أن يقوم في عصرنا على « العلم » .

والعلم لا يعني بالضرورة الحصول على الشهادة .

فما تقدمت اليابان إلا بعد أن ضحى المنبعث الياباني العبقري

« تاكيواو ساهيرا » بشهوة الحصول على الدكتوراه من إلمانيا . وتفرغ لاختراع « المحرك » وعاد من غير الدكتوراه .

ولكنه عاد بمفتاح تطور بلده اليابان كلها .

ولم يكن هذا الياباني صانع « المحرك » معقداً ليأبه « بالشهادة » لقد كان عالماً بقوانين التطور الحقيقية .

كما أنه أيضاً لم يكن كبعض صبياننا يتنكر لدينه . بل كان يقول :

« إنني بوذي » . ومذهبي يقدس العمل . . فأنت تتعبد إذ تعمل . وما تعمله بعد ذلك من شيء نافع يقربك من بوذا .

وظل « اوساهيرا » يعمل شبه عامل . . بل مساعداً لعامل مضحياً بالدكتوراه ما بين عشر وخمس عشرة ساعة في اليوم لمدة تسع سنوات . و « باوساهيرا » صنعت نهضة اليابان . بينما يبدد معظم المسلمين أوقاتهم في صناعة حضارة مظهرية من ورق . وفي معالجة قضايا مبددة للوقت والطاقة .

* * *

يجب على القادة المسلمين أن يجوبوا الشركات والمصانع ومراكز التدريب . والحقول . ليبينوا للناس قيمة الوقت في الإسلام . ويشرحوا عبادة العمل في الإسلام . ويوضحوا لهم معنى قوله تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ .

وهي الآية التي أقسم مفكر مسيحي إنجليزي كبير أنها آية لا يمكن أن تصدر عن بشر)[١] .

ب ـ نشرت الأهرام : أن الصين كانت أسبق دول العالم عندما طلبت من الأدباء والفنانين والشعراء أن يبحثوا عن عمل آخر في الإجازة . . مثل جمع دودة القطن أو تربية الدواجن أو حرث الأرض أو قتل العصافير التي تأكل ملايين أرداب القمح .

ولم يكن ذلك عقاباً لأصحاب القلم والفرشاة أن يمسكوا الفأس والمقشة ، وإنما مكافأة على ذلك . . ولم تخترع الصين نظرية نفسية لهذا العمل اليدوي ،

---

(١) المسلم المعاصر ع ٥٤/١٤ .

بديلاً عن التفكير والتأمل ، وإنما ترويحاً وترويضاً للنفس الشاردة أن تنضبط ، وللأجنحة المنشورة أن تحط على أرض الواقع . . وبذلك تتوازي قوى الإنسان وتتعادل . ويستريح المفكر والفنان في النهاية !

ذكرت مجلة « علم النفس » الأمريكية بدراسة عن النعمة التي لا تعرفها « ربة البيت » والتي حرم منها رب البيت . . أما الرجل الأمريكي والأوروبي . فهما يقاسمان الزوجة شغل البيت . كما نرى في كل المسلسلات الأمريكية والإنجليزية ، يغسل ويطبخ ويكنس ويغير ملابس الأطفال ، المجلة تطالب الرجل بأن يتعمق ويستغرق في هذه المساعدة ، لأنها العلاج الوحيد للتوتر النفسي والأرق والقلق . . أي أنها تطلب منه أن يندمج في هذا العمل وأن يديه بلذة . . وإلا فهو الخسران إذا لم يفعل ذلك . وتطلب من ست البيت أن يكون الأداء واعياً وليس آلياً ـ أي بلذة أيضاً ؟!

أنظر إلى نساء الغجر إنهن أكثر أشراقاً وحيوية وأطول عمراً من الرجال . . لأنهن يعملن أما الرجال فنائمون ليلاً ونهاراً !

أما الأعزب فهو محروم من هذه المتعة لأنه يقوم بكل شيء بقرف وملل ، وفي استطاعته أن يجعل كل حركاته في البيت منضبطة ، المجلة تقترح بعض الموسيقي الإيقاعية عند الغسل والكنس .

والمعنى : إن كان هذا تعباً فاجعله منتظماً ، وإن كانت هذه ضرورة ، فاجعلها متعة ـ فالعقل الذي ليست له يدان ورجلان قصير العمر !

والعامل ليس هو المثل الأعلى للأداء المريح ـ فهو يشقى لأن العمل واجب ، ولأنه واجب فهو متعب وممل ، ولذلك يجب أن نساعد أنفسنا بأن ندخل الفرفشة والمرح والتغيير في حياتنا ـ إنها نصيحة عالم النفس في التسعين من عمره ولا يزال يمشي على ساقيه)[1] .

مع الإمام الشافعي :

عندما دخل الإمام الشافعي مصر . . لم يكن الأمر بين يديه سهلاً :

١ ـ فمصر حينئذ كانت تدين بالمذهب المالكي .

---

(١) الأهرام ـ أنيس منصور .

٢ ـ ويجلس ابن عبد الحكم ـ في مسجد عمرو بن العاص . فارس الحلبة بلا منازع .

٣ ـ وكان على الشافعي لكي يثبت وجوده أن يقتحم هذه العقبة . . لا سيما ومشاعر الغربة تحتويه . . ويداه صفر من الزاد . . ثم هو في مصر التي قيل له عنها ـ ظلماً وزوراً :

إذا أردت دخول مصر . . فاصحب معك زاد عام ؟!

* * *

مصر . . تتحدث عن نفسها :

ولقد فوجيء الإمام الشافعي حين وجد نفسه أمام مجموعة من المواقف قلبت حساباته رأساً على عقب . . وبدت مصر الإسلامية متألقة بما تملكه من قيم شكلت شخصيتها على مدار التاريخ . . رغم أنف جبهات الصمود والتصدي !!

* * *

من أخلاق علمائنا :

استقبله زميله في الدعوة « ابن عبد الحكم » بالترحاب . . ثم عبر العالم المصري عن غبطته بتسعة آلاف درهم قدمها للإمام الشافعي هدية فورية . . تؤكد حقيقة التعاون على البر والتقوى . . وتترجم عن سعادة الداعية المخلص بزميله الآتي من بعيد . . والذي يقف إلى جانبه في خندق واحد . . تجلية للحق . . وشفقة على الخلق . .

وصحيح أن وجهة الرأي مختلفة . . لكنها على أي حال أشعة تكشف كل جوانب الحقيقة . يسعد بها طلاب العلم . وتحول دون صدام أهل العلم صداماً يطلق ألسنة الخبثاء تعريضاً بالدعوة والدعاة .

* * *

دور الرأسمالية المصرية :

إذن . . فقد كان « ابن عبد الحكم » العالم . . الداعية . . غنياً يأكل من عمل يده . . ولا يعيش عالة على غيره . . ولعل هذا سر قوة شخصية التي مكنت له في قلوب المصريين . . لا سيما الأغنياء من التجار الذين عرفوا قدره ولم يكونوا يردون له طلباً :

فقد جمع ابن عبد الحكم من أغنياء مصر تسعة آلاف درهم أخرى سجلت

كيف كان تجار مصر يوظفون أموالهم لخدمة الدعوة . . ومساعدة عالم مستنير كالإمام الشافعي :

يجمع ولا يفرق.

يزرع في القلوب أعواد الحب والمودة . .

يستقطب الشباب منهم خاصة ليكون درسه الأول صلة الرحم الواصلة الجامعة . . قبل أن تتلقفهم قوى خفية تمزق ما بينهم وبين أهليهم من حبال المودة .

وأيضاً . . فلم يكن قصارى همه أغنياء مصر أن يوزعوا المعونات على المحتاجين .

وإنما ـ وإلى جانب ذلك ـ كان المال حركة بانية في خدمة الدعوة . . ووحدة الوطن .

* * *

ملامح الشباب المصري . . المسلم :

كانت المعونة المالية ركيزة أريد بها أن يأخذ الإمام الشافعي مكانه في مسجد « عمرو بن العاص » في حرية تامة . .

ولقد أفرد له ابن عبد الحكم مكاناً بالمسجد . .

وإلى جانبه . . وعلى مرأى منه كانت حلقة ابن عبد الحكم العلمية . . وبين يديه أتباعه ومن بينهم : بنوه من صلبه .

والتقى السالب بالموجب . . فأضاء المصباح . .

وعلى ضوئه الباهر . . تجلت شخصية الشاب المصري المسلم . . الذي لا يغلق عقله على رأي واحد . . ولا يجعل قبلته عالماً واحداً . . وإنما هو كالنحلة : تسرح في المروج والبساتين تمتص من كل زهر بهيج ثم تقدمه للناس عسلاً مصفى . . فيه شفاء للناس . .

* * *

الابن يترك حلقة أبيه :

ولقد كانت مفاجأة لكل الدارسين عندما رأوا محمد ابن الإمام « ابن عبد الحكم » يترك حلقة أبيه العلمية لينضم إلى حلقة الإمام الشافعي ؟!

وقامت حركة تمرد سلمية بين الشباب من تلاميذ والده الإمام وقالوا لإمامهم :

كيف يؤثر ابنك محمد درس الشافعي على درس أبيه ؟

ويبدو أن النقد كان عنيفاً . . من شباب اقتنعوا بفكر واحد . . ومنهج واحد . . ولكن ابن الإمام كان أسبق منهم وأشد تفتحاً . . فأراد أن يوسع عقله وقلبه بمزيد من المعارف . . يجعل منه طالب علم طويل الباع يأخذ من كل بستان . . ليكون في الغد القريب شخصية مستقلة لا تكون أبداً تكراراً لأبيها . وإنما امتداداً له . .

إن الذين تقف بهم مداركهم على شخصية واحدة . ينتظرون منها الجرعة العلمية كل أسبوع . . تاركين من حولهم مناهل العرفان تناديهم . . هؤلاء الناس مقصرون في حق أنفسهم . . حين لم يلبوا أشواقها إلى ألوان الخير التي تتعشقها .

* * *

الإمام . . يحسم الموقف :

وإذا أخطأ من وهب عقله لفكر واحد . . فأشد منه خطأً أولئك الذين يوصون تلاميذهم ألا يسمعوا إلا رأيهم . . وهذ ما تفاداه ابن الحكم حين لم يقتصر على الإذن لولده بالاستماع إلى الشافعي . وإنما كان منه ذلك الدرس المفيد . . له . . ولزملائه المتحمسين . .

أما بالنسبة للمتحمسين فقد قال لهم :

محمد شاب ناشيء . . يحب أن يعرف المذاهب المختلفة . .

وبالنسبة لولده قال له ناصحاً :

إلزم هذا الرجل ـ أي الشافعي ـ فإن لديه علماً كبيراً .

والتزم الابن بوصية أبيه . . وعاشت في وجدانه وجهات النظر المختلفة . . التي جعلت من نفسه حقلاً خصباً بالمعرفة من كل لون . .

* * *

مصر المسماح :

وعاشت أيضاً تحت سماء مصر كل المذاهب المختلفة :

فلما جاء « بكار بن قتيبة » قاضياً حنيفاً . . اتسعت الدائرة . . وسعدت مصر بزملاء الدعوة :

يتقارعون بالحجة . .

ويتهادون مسائل العلم . .

وسوف تظل مصر كذلك ما دمنا نحمل في قلوبنا عناصر هذه السماحة :

بذلاً من أجل الدعوة . .

وتعاوناً يوسع دائرتها . .

وتمثلاً لهؤلاء العلماء الأجلاء منهم الإمام الشفعي الذي كان ينوب عن « سيدنا في الكتاب » إذا غاب فلما صار شاباً كان يجمع مسائل العلم على العظم الرقيق . .

فلما رحب أفقه واكتملت شخصيته كان يقول :

(لا بد أن يوجد فيها ـ أي في كتبه ـ ما يخالف الكتاب والسنة لأن الله تعالى يقول : ﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾ . . ولقد كان على غاية ما تكون السماحة حين قال :

(ما ناظرني أحد فباليت أظهرت الحجة على لسانه أو على لساني) .

وتلك هي الشخصية التي تتسع . . إتساع الأفق .

فإذا الدعاة رفاق على الطريق . . وإذا الدعوة همهم الأول . . والأخير .

* * *

من ثمرات العلم النافع :

كان ابن عبد الحكم ممن أراد الله تعالى به خيراً ففقهه في الدين . . ولم يأته ذلك الفقه جزافاً . .

ولكنه أسهر ليله . وأظمأ نهاره . حتى تحولت مسائل العلم التي تلقاها من مختلف المتخصصين . . تحولت إلى ملكة راسخة . . وحكمة هادية أخذت بيده إلى مرفأ اليقين . .

وعن هذه الحكمة وآثارها . . نقرأ ما جاء في تفسير المنار :

* * *

(فسر الأستاذ الإمام الحكمة هنا بالعلم الصحيح يكون صفه محكمة في النفس حاكمة على الإرادة توجهها إلى العمل ، ومتى كان العمل صادراً عن العلم الصحيح كان هو العقل الصالح النافع المؤدي إلى السعادة . وكم من محصل لصور كثير من المعلومات خازن لها في دماغه ليعرضها في أوقات معلومة لا تفيده هذه الصور تسمى علماً في التمييز بين الحقائق والأوهام ، ولا في التزييل بين الوسوسة والإلهام ، لأنها لم تتمكن في النفس تمكناً يجعل لها سلطاناً على الإرادة ، وإنما هي تصورات

وخيالات تغيب عند العمل ، وتحضر عند المراء والجدل) . المنار تفسير سورة البقرة .

قال الأستاذ الإمام ما معناه : والمرد بإيتائه الحكمة من يشاء إعطاؤه آلتها العقل ـ كاملة مع توفيقه لحسن استعمال هذه الآلة في تحصيل العلوم الصحيحة فالعقل هو الميزان القسط الذي توزن به الخواطر والمدركات ويميز به بين أنواع التصورات والتصديقات ، فمتى رجحت فيه الحقائق طاشت كفة الأوهام ، وسهل التمييز بين الوسوسة والإلهام .

أقول: وهذا القول يتفق مع ما روي عن ابن عباس من « أن الحكمة هي الفقه في القرآن » أي معرفة ما فيه من الهدى ، والأحكام بعللها وحكمها ، لأن هذا الفقه هو أجل الحقائق المؤثرة في النفس الماحية لما يعرض لها من الوساوس حتى لا تكون مانعة من العمل الصالح .

ولا شك أن من فقه ما ورد في الإنفاق وفوائده وآدابه من الآيات لا يكون وعد الشيطان له بالفقر وأمره إياه بالبخل مانعاً له منه ، ولكن الفقه في القرآن لا يكون إلا بكمال العقل وحسن استعماله في الفهم والبحث عن فوائد الأحكام وعللها ودلائل المسائل وبراهينها ، فالخبر : فسر الحكمة بالأخص ، رعاية للمقام .

والأستاذ الإمام فسرها بالأعم بياناً لشمول هداية القرآن . . فالآية بإطلاقها رافعة لشأن الحكمة بأوسع معانيها هادية إلى استعمال العقل في إشراف ما خلق له . ومن رزيء بالتقليد كان محروماً من ثمرة العقل وهي الحكمة ، محروماً من الخير الكثير الذي أوجبه الله لصاحب الحكمة بقوله : ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ فيكون كالكرة تتقاذفه وسوسة شياطين الجن وجهالة شياطين الإنس ، يتوهم أنه قد يستغني بعقول الناس عن عقله ، ويفقه الناس عن فقه القرآن بدعوى أنه جمع كل ما أوجبه القرآن مع زيادة في البيان ، وقد يجد في فقه الناس أن الله لم يوجب عليه غير الزكاة التي لا تجب إلا بعد حلول الحول وهو مالك للنصاب ، وأنه إذا هو وهب امرأته ما له قبل انقضاء الحول بيوم أو يومين ثم استوهبها إياه بعد دخول الحول الجديد بيوم أو يومين لم تجب عليه الزكاة ، ويمكن على هذا أن يملك ألوف الألوف من الدنانير وتمر عليه السنون والأحوال لا ينفق منها شيئاً في سبيل الله ويكون مؤمناً عاملاً بفقه الناس ، ولكنه إذا عرض نفسه على القرآن وفقه ما أنزل الله فيه من غير تقليد ولا غرور بعظمة شهرة المحتالين المحرفين فإنه يعلم أنه يكون بهذا المنع عدو

الله تعالى ولكتابه ، محروماً من الخير الكثير الذي أتاه الله تعالى لأهله) .

* * *

السؤال بين الحكم الشرعي والخلفية الاجتماعية :

أحياناً تخطىء تكييف القضية المعروضة :

ففي غمرة الانفعال الغاضب يسألك الشاب عن حكم الله تعالى في مشكلة ألمت به . . بل وقبل أن يسألك هو مقتنع بالحكم فيها . . ولكنه يدعم موقفه برأي الشرع على لسانك أنت . . وتعزيزاً لموقفه . . إزاء مخالفه . .

ولكن العالم هنا ـ بحكم الخبرة والسن ـ يقوم بعملية إنزال من الخلف ـ بالتعبير العسكري ـ ليحتوي الموقف بكل أبعاده . . بحثاً عن جذور المشكلة . . فإذا نحن أمام قضية اجتماعية . . ومهما عرفنا الحكم الشرعي مفصلاً عن ظروفها ـ فستبقى . . بل ستزداد تعقيداً :

جاءني الفتى منفعلاً طالباً حكم الله تعالى في والده الذي يأمره بحلق لحيته !

وتذكرت على الفور قول ابن المقفع :

(الناس ـ إلا قليلاً من عصم لله ـ مدخولون في أمورهم :

فسائلهم . . متعنت .

ومجيبهم . . متكلف .

وواعظهم غير محقق لقوله بالفعل . .

فقائلهم . . باغٍ . .

فقائلهم . . عياب !!)

لكني ـ والحق يقال ـ لم أجد في الشاب السائل تعنتاً . . فقررت ألا أكون معه متكلفاً . .

لنبرأ معاً من البغي والعيب !

لقد وجدت أمامي شاباً كالبرعم الغض . . ولا يمكنك أن تحول البرعم ليكون زهرة في يوم واحد . .

وإن شئت قلت : كان في يدي مثل كرة من الزئبق :

تظل في يدك ما دامت يدك مبسوطة . . حانية . . حذرة . . فإن أنت ضغت عليها . . فرت من بين يديك . .

إنه مثل ضبـاب .. يلامس الأرض في الصبـاح .. ثم لا يترك عليهـا قطرة ماء ..

لكنه إذا صعد في السماء .. صار سحاباً يمنح الأرض من لدنه مطراً ..

وصحبت الفتى إلى والده لأرى الحقيقة التي تفرض نفسها :

لقد ترك الفتى والده .. ووالدته .. في الحقل يغالبان قسوة العمل .. بينما رضي هو من الإسلام بلحية يرسلها .. لتكون عذراً يعفيه من مسؤوليـة العمل .. زاعماً أن اللحية تسقط حق الوالدين في البر .. الذي من صوره :

أن يستريحا في البيت .. لينوب عنهما في العمل !

* * *

ولم تكن القضية حينئذ قضية لحية يراد فصل الخطاب فيها .. بقدر ما كانت قضية اجتماعيـة إختل فيهـا طابـور الأولويـات .. فتراجعت قيمـة العمل .. وهي مسؤولية الشباب الأولى .. لتتصدر أمور هي على أهميتها لا تتقدم على قيمة بلغت في الإسلام من الأهمية حداً بات المتعب بسببها مغفوراً له .. وعامل الناس بيـد يحبها الله ورسوله .

* * *

وقلت للفتى .. لقد عققت دينك .. قبل أن تعق والدك !

ومع ذلك فسوف أوضح لك ما تعيه الذاكرة مما قرره علماؤنا .. ولا أزعم أنني أحسم القضية .. فهناك من أقدر مني على حسمها .. ولكنني فقط .. أنتقي من الآراء ما يضع القضية في حجمها الطبيعي .. ليستقيم سلم الأوليات :

قال المرحوم الدكتور محمد سعاد جلال(١) :

ليست اللحية من المعاملات . لأنها لا تمثل علاقة الإنسان بغيره . كما وأنها ليست من العبادات لأن العبادات . في أصلها ـ دون كيفياتها ـ لا بد أن يلحظ العقل فيها معنى يصلح أن يكون قربة لله تعالى .

وليس إرسال اللحية كذلك .

وحديث رسول الله ﷺ يقول :

« إن الله لا ينظر إلى صوركم » .

---

(١) بتصرف .

واللحية ليست مما ينظر الله تعالى إليه .

فلم تبق إلا العادات :

والأمر فيها أم إرشاد كقوله ﷺ للغلام :

« **كل مما يليك** » « وهو رأي الشيخ شلتوت » .

* * *

ثم ان الحديث الذي يقرر : (سبع من الفطرة . .) جاء فيه :

(وإرسال اللحية) .

فلو كان إرسال اللحية واجباً . لامتنعت التسوية بينه وبين ما جاء في نفس الحديث مما هو سنّة . وما هو مستحب . . تحت وصف واحد هو الفطرة .

فدل ذلك على أن إرسال للحية سنّة . . وحلقها ليس بحرام .

* * *

والمراد بالسنّة في هذا الموضع :

تنقسم السنّة إلى قسمين :

١ ـ سنّة الهدى .

٢ ـ وسنّة الزوائد .

فأما سنّة الهدى :

فهي ما اشتملت على معنى العبادة :

كالجماعة والأذان . . والتراويح . وغيرها .

أما سنن الزوائد :

فإنها لا تشتمل على العبادة . لأنها تمثل استبقاء لعادات النبي ﷺ الشخصية :

في طريقة قيامه وقعوده . وطريقة لبسه . واختيار ملابسه .

وفي ترك سنن الهدى : كراهة وإساءة .

وليس في ترك سنن الزوائد شيء . .

واللحية من سنن الزوائد :

وإذن . . فهي لا تمثل أمراً ذا بال إلى جانب الفرائض والواجبات التي عليها وبها تنهض الأمة . .

وبناءً على ذلك : فلا تستحق كل هذا العراك !

* * *

وعلينا قبل أن ندخل في دوامة العراك الصارف جهود الأمة هباء . . علينا أن نتمثل دائماً مقصود الشريعة . . فإن تعين المقصود مهم في ترشيد خطوات الأمة :

فمقصود الشريعة :

توجيه العباد إلى : ما فيه خيرهم وسعادتهم . . ثم العمل على رقي الأمة بتحقيق رخائها . .

ولن يتحقق ذلك بالصورة . . ولا بالنسب . . وإنما يتحقق ذلك : بالعمل : عمل القلب . . بالتوحيد . . والعمل الاجتماعي النافع للغير .

ولو قدمنا : الصورة . . والنسب . . لما سعد الناس . . ولما تقدمت الحياة . .

فمقياس الكرامة والهوان ليس الصورة . . ولا النسب . . وإنما العمل وحده هو القيمة من حيث لا أثر للصورة ولا للنسب في تقدم الحياة .

* * *

وقلت للفتى الغاضب : تعلم من الكون حولك :

الجراد يأكل البعوض . والعصفور يفترس الجراد .

والحية تصطاد العصفور . والقنفذ يقتل الحية .

والثعلب يأكل القنفذ . والذئب يفترس الثعلب .

والأسد يقتل الذئب . . والإنسان يصطاد الأسد . .

وهو . . هو نفسه الإنسان الذي قد تقتله البعوضة !!

فلنحاول ألا تقتلنا الهموم الصغيرة . . وإذا كان ولا بد من جهاد وتضحية فلتكن في مواجهة الأسد . . في مواجهة الهموم الكبيرة . .

إن مهمة الدعاة أكبر :

إنها تنحية العقبات من طريق الحق . .

ثم تجليته لأعين الناظرين . . حتى لا يقف إلى جانبه الباطل . . ثم لنموت في سبيله حتى يزهق الباطل . . ويبقى الحق وحده سيد الموقف . .

* * *

المهر الغالي :

ولن نصل إلى هذه الغاية إلا بأولي الأيدي والأبصار من شبابنا المخلص الغيور :

والأيدي تعني : القوة .

والأبصار تعني الاكتشاف والاستيعاب . .

إن الفلاح الحريص على سمعته ينتقي أفضل الثمر . . ثم يقوم بتصديره . . لكن ولده طالب الجامعة لم يدرك هذه الحقيقة :

إنه طالب في كلية الهندسة . . ولديه قاعدة يدرسها تقول :

لا تقد سيارتك بشمالك . . حتى لا تتعرض للحوادث . .

لكنه لم يستثمر هذه القاعدة في الدعوة إلى دينه . . هذه القاعدة التي تجعل من الأكل باليمين سنّة في الإسلام . . تيمناً . . أولاً . . ولأن اللقمة كعجلة القيادة لا تستقيم في اليد الشمال . . فتسقط اللقمة . . ويسيل الشراب !!

* * *

اختلال النسب :

إن الجمال : تناسب بين الأعضاء . . وهو التناسب أيضاً في الكون والحياة . . فإذا ضاع التناسب . . كان الخلل . . ولم يكن جمال . .

وقد سدت بهذا الطالب الذي علق على الحائط لافتة تتساءل :

هل تؤدي الصلاة ؟

وإذا كنت تؤديها . . فكم صلاة صليت في جماعة ؟

وذهبت إلى الكلية المجاورة . . فرأيت نفس التساؤل . . وقلت للطلاب :

أين البقية الباقية . . أين فلسفة العمل . . وهي قيمتكم . . يجب أن تتساءلوا بعد ذلك :

أخي الطالب : إلى أي حد نهتك صلاتك عن الفحشاء والمنكر ؟

هل تحس بالصلاة أنها تجمل علاقاتك . . بأهلك وجيرانك ورفاقك ؟

لا تكن صلاتك كالثوب الخلق . . يضرب بها وجهك . .

ولتكن صلاتك دواء يحسن به خلقك . . وترقى به منزلتك !

* * *

مشكلة قديمة . . جديدة :

عندما يستوفي الكائن عناصر وجوده . . لا بد لكي يؤدي وظيفته من التوازن . . وانضباط النسب بين هذه العناصر .

فإذا اختلت النسب . فطغى عنصر آخر . . فقد الكائن في نفس الوقت أسباب وجوده وبقائه . . وجماله أيضاً !

والإنسان . . وهو أثمن حلقة في سلسلة الموجودات مشمول بهذه القاعدة :

فلا بد له من التوازن في نظرته للكون . . وفي توظيف مواهبه لترقيته . . ولكنه أحياناً ينحرف . . فيختل توازنه . . وتختـل معه حياته . . يحدث اليوم هذا . . كما حدث من قبل :

ذلك الرجل الذي جاء يسأل الرسول ﷺ عن الساعة . . في قفزة بعيدة . . فوق الواقع الماثل . . الذي ينبغي أن تكون مشكلاته اليـومية همـه الأكبر . . حتى إذا جاءت الساعة كان مستعداً لها :

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه :

(بينما رسول الله ﷺ يحدث القوم . جاءه أعرابي . فقال : متى الساعة ؟

فمضى رسول الله يحدث . فقال بعض القوم :

سمع ما قال . فكره ما قال .

وقال بعضهم : بل لم يسمع .

حتى إذا قضى حديثه قال :

أين أراه السائل عن الساعة ؟ قال : ها أنا يا رسول الله . قال :

فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ؟ قال : وكيف أضاعتها ؟ قال :

إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة).

ماذا يعني سؤال الأعرابي ؟

معناه : أنه شاغل نفسه بما لم يكلف به . على حساب واقعه الذي يتقاضاه الاستغراق فيه . . وهو بذلك يفتح باباً إلى الترف العقلي حول قضية لا يملك الرسول الكلمة الأخيرة فيها . .

ثم . . ماذا يعني جوابه ﷺ :

إنه يعني : أن السؤال خارج المقـرر . . وهو في نفس الـوقت اختـلال في

النسب . وخروج على التوازن . . حمل السائل على ترك ما يملكه هو في عالم الشهادة . . إلى ما يملكنا في عالم الغيب . . فضلت طاقاتنا الطريق إلى الكمال . . ثم ذهبت سدى !

* * *

من فقه الجواب النبوي :

كان ﷺ حكيماً في رده على تلميذ يخرج عن موضوع الدرس :

فسكت أولاً . . ولم يجبه . .

ولعل في هذا السكوت ما يحمل الرجل على التفكير في أوجه النقص في موقفه . . حتى إذا جاءه الجواب . . كان مستعداً لقبوله . تصحيحاً لوضعه .

ولم يكن الرسول الكريم في إعراضه حاد المزاج . . بادي الغضب حتى لا يصاب التلميذ ورفاقه بالإحباط واليأس من السؤال بعد . .

بدليل أن الصحابة رضوان الله عليهم اختلفوا : هل سمع أم لم يسمع ؟

والاختلاف دليل على أن غضبه لم يكن ظاهراً .

ثم هو ﷺ ينبه الحكام في كل موقع إلى أن الحكم تكليف . . لا تشريف . .

يعني : أمانة لا ينبغي التهاون فيها . .

فإذا وسد الأمر إلى من لا يستحقه . . اختل النسب . . وتاهت المعالم . . وتقدم الانتهازيون . . وتأخر المخلصون . . فخر عليهم السقف من فوقهم . ولاحظ قوله : « وسد » أي إذا كان هناك محظوظ له قريب يهدي إليه ذلك المنصب متخطياً من هو أكثر منه علماً . وأعظم أمانة . .

والتعبير بالأهل هنا : « إذا وسد الأمر إلى غير أهله » يشير إلى أنه لا يخاف على الأمر إلا أهله . . إلا صاحبه :

يغار عليه . . ويدافع عنه . . بل ويموت في سبيله . .

بينما يفسد ذلك الأمر إذا طرق الباب على محسوب ضعيف . . يبدد في ليله ثروة لم يتعب في تحصيلها .

* * *

وإذ يقرر ﷺ في هذا الحديث مسؤولية الكبار . . فإنه في حديث آخر يكمل الأمر بتوجيه السائل إلى ما يحسنه في الواقع . . بدل أن يشغل نفسه بغيب هو غير

مسؤول عنه . . وذلك حين سأله أعرابي نفس السؤال عن الساعة فقال له :

« **وما أعددت لها** »؟

وبهذا السؤال يخرج به إلى الحياة المتحركة . .

إن في ذلك لعبرة لقوم يلحون في لوم الحاكم . . ثم ينسون أو يتناسون حظهم من ذلك اللوم . . وها هوذا ﷺ يحمل الطرفين معاً : الحاكم والمحكوم . . يحملهما مسؤولية الأمة . .

فليؤد الحاكم الأمانة باختيار من يصلح للمنصب . .

وليتحرك المحكوم عاملاً آملاً . . لتتم بعمله نعمة الله كمالاً .

* * *

الآمال بين النظرية والتطبيق :

روى ابن كثير في تفسيره :

سمع أحد الصحابة ولداً له يقول :

اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها واستبرقها . . ونحواً من هذا . . وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها .

فقال :

لقد سألت الله خيراً كثيراً .

وتعوذت بالله من شر كثير . .

وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول :

إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء . . وقرأ هذه الآية :

﴿ **إدعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين** ﴾ .

وإن بحسبك أن تقول :

اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل . وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل . وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل) . .

* * *

تمهيد :

ليست قيمة الإنسان فيما يبلغه من مراتب . . وإنما قيمته الحقيقية فيما يتوق

إليه . فقد تحملك الظروف لتتربع في موقع لست أهلاً له . . ولا ترشحك مواهبك لإدارته بنجاح . .

أما إذا كنت صاحب همة عالية لا تقنع بما دون النجوم . . ثم لم تصل إلى ما تؤمل . . فأنت إذن من الصالحين . .

وهذا شاب طمحت به همته إلى أعلى مرتبة . . فدل بذلك على صلاحيته للتفوق . . ومن حسن حظه أن يكون له والد يضع قدميه على سبيل الوصول إلى ما يرجو .

* * *

ونقرر سلفاً أن الأمل العريض ظاهرة صحية تنسجم مع طبيعة الشاب . وقد قالوا : لأن الشباب له مستقبل . . فهو يطير .

ولأن الرجل له حاضر . . فهو يمشي .

ولأن الشيخ له ماضٍ . . فهو يزحف !

* * *

وهذه صورة من تاريخنا . . يعد بها والد ولده للمستقبل . . الذي يتأهب اليوم لامتلاك أمره :

إن دوافع الإنسان تطلب الاشباع دائماً .

فإذا لم يسعفه الواقع بما تريد هذه الدوافع . ارتدت رغباته إلى اللاشعور . . لتكون بعد ذلك عقداً نفسية تترقب الفرصة للانطلاق المسعور بلا ضابط . . في صورة انتقام من هذا المجتمع الذي لم يستجب من قبل لرغبته . . وقد تظل الرغبات مكبوته بدافع من يأس بملك على النفس أقطارها . . وتلك فرصة الشيطان الذهبية . . فليس أسهل عليه من امتلاك نفس هشة من هذا النوع . . تفقد القدرة على مقاومته . . وفي دوامة اليأس يستهويه الشيطان بعيداً عن ربه سبحانه . فإذا هو في الأرض حيران لا يلوي على شيء . .

وللإسلام منهجه الراشد . . الذي صان به وجود الإنسان حتى لا يضيع في هذه الدوامة الخطرة :

إنه يقف إلى جانب الدوافع يهديها ويرشدها لتنطلق في آفاق الحياة الرحيبة . . فتنبت في جنباتها براعم الآمال في مستقبل أفضل .

وما أضيق العمر لولا فسحة الأمل . .

وإذا لم يتسع العمر لتحقيق الآمال . . كانت الجنة أمل المسلم الذي يتجاوز به واقع الحياة المر الصارم . .

وللإسلام أيضاً هنا منهجه الحكيم . . على ما يشير إليه حديث اليوم :

فهذا شاب تمتد به الآمال عبر المستقبل . . فسأل الله الجنة ونعيمها . . بقدر ما تعوذ من النار وعذابها .

وتلك ـ لا ريب ـ ظاهرة صحية :

أولاً : لأن همته تتطلع إلى الكمال . . في مقعد صدق عند مليك مقتدر . . وهو مستوى يعلو فوق آمال الشباب في مثل سنه . .

ثانياً : هو محكوم في دعائه بروح الإسلام الداعية إلى سؤال الله الجنة . . بل والفردوس منها .

لكن الوالد ينتهزها فرصة مواتية لتمضي التجربة إلى غايتها . . ويحقق الدرس مغزاه :

فالوالد بدافع من مسؤوليته عن ولده يهش لهذا الدعاء . . بيد أنه يلفت نظره إلى حجم الهدف الذي يستشرفه . . لقد بدا ولده مستغرقاً في غاية كريمة . . ولهذه الغاية ثمن لا بد أن يبذله أولاً . . فإذا امتلأ وعيه بالأمل . . فإن الواقع يناديه أن يكشف عن ساق . . ويشمر عن ذراع . . متسلحاً بكل قول وعمل يقر بأنه من الجنة . . بقدر ما يبعدانه عن النار . .

فإذا استحضر هذه الحقيقة . . وأقام عليها حياته اليومية . . فقد ضمن لنفسه ـ بعون الله تعالى ـ حياة ناجحة تقضي به إلى الأمل الذي يجيش به قلبه . .

* * *

وحين يريد الوالد أخذ ولده بهذا المسلك الإيجابي في تناوله للحياة . . لا يفرض رأيه فرضاً في وقت يكثر فيه اعتزاز الشباب برأيه . . واستمساكه به . .

لكنه يحاكمه إلى قول الرسول ﷺ . . الذي وضع بقوله الكريم كل النقط على الحروف . . فاستبان الطريق . . ووضحت الغاية . .

والوالد بذلك يحقق أمرين :

أولاً : يفر بهذه التربية الحكيمة من شقاق قد يفجره تسلط الوالد على ولده ولو كان الحق معه .

ثانياً : يربطه ربطاً مباشراً بالرسول ﷺ . . بقائده الذي ينبغي أن يتلقى دائماًعنه . . فإذا استمر الاحتكام إلى الرائد الذي لا يكذب أهله . . نشأ لون من التجاوب يصير به في مأمن من الزلل . وكانت توجيهات الرسول ﷺ طوق للنجاة قبل أن يحتويه اليم .

فإذا مات الوالد . . خلف من ورائه ذرية صالحة . . في حراسة من ضمير يستمد نوره من هدى الإسلام . .

* * *

وأين هذا مما يحدث اليوم ؟

إن بعض الآباء في تربيته لولده يستعين بشاردة من هنا . . وواردة من هناك . . وباسم الحرية المفترى عليها . . قد يتركه دون رعاية بين أكوام من كتب الجنس ليعرف الحياة كما هي . . أو يعرف الشر . . لا للشر . . لكن لتوقيه . .

والنتيجة عكسية بطبيعة الحال :

فالتيار يجرفه بعيداً . . حيث لا حصانة من خلق أو دين تصد ذلك التيار .

لقد كان البيت ـ كم يشير الحديث ـ سليم البناء . . نظيف التكوين . . من حيث كانت غاية الشباب فيه الجنة ونعيمها . . لا الحياة وزينتها . .

ورغم قداسة الغاية وشرف القصد . . إلا أن الوالد يتدخل في الوقت المناسب وبالقدر المناسب أيضاً . . وكان من الممكن أن يغمض الوالد عينه ثقة بولده . . بيد أنه يتعهده ليضمن سلامة الوصول إلى بر الأمان . . بما لفت نظره إليه من ضرورة الأعداد النفسي والعملي للوصول إلى الغايات المنشودة . . أما مجرد الاستغراق فيها . . فقد يتحول مع الأيام إلى لون من الهيام . . يحلق بالإنسان في سماوات الخيال . . يصير به ظالماً . . مجاوزاً حده . . وكان الظن به أن يبدأ الطريق بخطوة عملية . . يقترب بها من غايته . .

* * *

إن مسؤولية الشباب لا تنتهي بالنوايا الطيبة التي يتذرعون بها أحياناً في اتخاذ أساليب لا تحقق مصلحة فردية أو اجتماعية . .

بل ان مسؤوليتهم لتبدأ حينئذ بالعمل الصالح . . والكلم الطيب . . يرتفع بها إلى أعلى . (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) .

وإذا كان من حق الشباب أن يرجو . . ويلح في الرجاء مستهدفاً ما يراه خيراً له .

فإن من واجبنا أن نرشده إلى دوره المحقق لرجائه . .

فليحذر الذين يمضغون الآمال . . أن يفوتهم معراجهم إليها :

الكلم الطيب . . والعمل الصالح .

المسؤولية المشتركة :

إذا كانوا يقولون : إن العشب الرديء لا يقطع وإنما . . يقلع . . فلم يكن الابن هنا كياناً جافاً . . وإنما كانت فيه حياة فائرة بالحركة . . وعلاجها لا يكون بتحطيم آمالها . . وإنما بربط هذه الآمال بالواقع الماثل . . على أن يتم ذلك بلطف وود . . وإذا كانوا يقولون :

إن الإصبع الجافة . . لا تستطيع إلتقاط حصاة من الملح . . ومن رمى الطيور بالحجر نفرها . .

فإن الوالد هنا لم يرم ولده بحجر . . وإنما بمثل الثمر . . وكانت يده الغضة الطرية قادرة على الامساء بالخيط وصولاً بولده إلى ما يرجوه له . .

إن البذرة لا تنمو إلا بالحرث . . وكذلك الموعظة :

إنها لا تفيد إلا إذا تخللت القلب . وامتزجت به . . وكذلك كان الوالد البار بولده . .

ويبقى على الأبناء أن يمضوا من وراء التجربة والخبرة :

و (خير شبابكم : من تشبه بكهولكم . وشر كهولكم من تشبه بشبابكم)[1] .

* * *

وبهذا الميزان يعتدل خطو الإنسان :

بشباب تتعلق أبصارهم بأهل الذكر ترسماً لخطاهم . . وكهول[2] واقعيين يعيشون عصرهم فلا يحاولون التصابي تشبهاً بالفتيان . . حتى لا يتركوا مواقعهم

(١) أبو يعلى في مسنده . والطبراني وغيرهما .
(٢) الكهل : من جاوز الثلاثين وخطه المشيب . وقيل من بلغ الأربعين .

لينقض عليها من لا بصيرة لهم ولا علم . . وعندئذ يكون الطوفان . . ويصبح الناس فوضى . . لا سراة لهم .

* * *

﴿ وقل اعملوا ﴾ :

كان الإمام أحمد يقول لسائله أحياناً :

موضوع سؤالك لم يقع . . أرجئه إلى أن يقع . وقد يقول لمن يسأله في الفلسفة والغوامض من المسائل :

سلني عما فيه عمل !

* * *

وكانت هذه إحدى المحاولات السامية إلى ربط الشباب بقيمة العمل . . ليسكتوا ألسنتهم عن الجدل . .

وعلى الذين يصفون أقدامهم في الصلاة أن يعلموا أن ذلك وسيلة تتحقق بها وحدة الأمة . . عندما تخلصهم الصلاة من أدوائهم الاجتماعية .

﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ :

ومعنى ذلك : أن قوة الصفوف المتراصة في الصلاة . . تسلم إلى قوة الصفوف في ميادين الحياة . .

وما أجمل هذين الشابين المسلمين . . اللذين خرجا من المسجد بعد أداء الصلاة . . فكان شغلهما تحويل الطاقة الإيمانية إلى عمل بناء . . فكان أن هداهما الله تعالى إلى صنع « بوصلة » تحدد قبلة الصلاة . .

وأين منهما ذلك الخلاف المفتعل حول حكم فرعي فيها ؟

ودائرة العمل واسعة جداً . . ولقد اقتحمها شباب مخلصون . . فلم يلقوا بقشرة البرتقال على الأرض . . وإنما فهموا حكمة الشارع الذي أخبر أن الإناء يستغفر للاعقه . . فاستثمروا هذه القشرة فصنعوا منها طعاماً ودواء !

وبدل هذه المعركة اليومية حول نسبة « الكحول » في الشراب تجاوزاً مرحلة المراء . . فكونوا جمعية لصناعة الصابون . . فحاربوا الجشع . . وملأوا الفراغ . . وطردوا بالعمل وساوس الشيطان !

* * *

وما زالت هناك بقية من الشباب المؤمن :

لهم قلوب يفقهون بها . . وطاقة إيمانية قادرة على صنع الأعاجيب . . ولكنهم لم يحسنوا استغلال هذه الطاقة . . فحولوها إلى أطباق وملاعق من ذهب أو فضة . . ولم يجعلوها عملة . . متداولة في الأسواق !

وإذا كان المال ينقص بالإنفاق . . فإن العلم يزكو ويتنامى بالإنفاق!

لكن ما معنى إنفاق العلم ؟

معناه : أن تطبقه عملياً . . أن تعمل . . بما تعلم . . ومن عمل بما علم ورثه الله تعالى علم ما لم يعلم . . وكما قيل :

العلم يهتف بالعمل . . فإذا أجاب . . وإلا ارتحل !

ويعني ذلك تنشيط الإرادة . . ليكون نشاطها انجازات عملية . .

ثم تحرير الوجدان . . ليثمر الأخرة الإيمانية . . ويتم ذلك كله تحت أضواء من العقل المتحرر الواصل بالأمة إلى نهضة علمية تغالب بها أمم الأرض فتغلبهم . . لأنها نهضة محروسة بالإيمان .

* * *

قرأت لافتة معلقة على الجدار فيها من أدعية الرسول ﷺ . . والغريب أنها مبدوءة بدعاء الخروج من الخلاء بعد قضاء الحاجة . .

وقلت للطالب المتحمس . . لم يكن دعاء الخلاء أول ما استهل به الرسول حركته اليومية . . وإنما قبل ذلك كانت له معركة مع الشيطان . . حين كان يبدأ يومه بنهوضه من الفراش واقفاً . . وبلا تردد أو تناوم . . ليعلمنا كيف نبدأ يومنا بهذا النصر على الشيطان . . في حركة مباركة نستفتح بها يومنا بالذي هو خير . . مخلفين من ورائنا محاولات الكيد هباء . . متفتحين على الحياة بهذا النصر الخاطف وكيف ينعكس ذلك على يومنا نشاطاً وحيوية .

* * *

مسؤوليتنا الكبرى :

ولكن الشباب معذور . . إذا غفل عن أسمى الساعات في يومنا . . إنه يقرأ ما كتبناه . . ولكنه لم يجد فيما قرأه أهمية ساعات السحر من الليل :

لقد أضاعت الأمة بكثرة الأكل . . ولهو السهر أثمن لحظات الليل وهي : السحر!

ونحن مطالبون بالخروج بالشباب من دائرة الشعارات . . والإنبهار بما يستلفت النظر من الأقوال . . إلى ما يبقى من العمل الجاد المثمر . .

ولنأخذ الشباب بالسعي في صمت . . وبلا ضجيج . . وذلك هو الدرس المستفاد من الطبيعة حولنا :

إن سقوط شجرة في الغابة يحدث دوياً هائلاً . . ولكن الفراشات التي تنقل حبوب اللقاح من زهرة إلى زهرة . . ليس لها صوت . . إنها تمد الحياة في صمت . . ولكن في جمال . . وروعة !

* * *

إعملوا واكدحوا إلى الله بطلب العلم وليس بتربية اللحى وتقصير الجلابيب ولبس القباقيب والتمسك بالمظهريات والثانويات . . فإن أول آية نزلت في كتابكم . . هي :

إقرأ . . أمر مباشر من الله بالقراءة وطلب العلم والبحث والتفكر والتأمل .

وقد أمر الله بالعلم والعمل في أكثر من ألف وخمسمائة موضع في القرآن الكريم . . فكيف نكون أمة الجهل والكسل وهذا كتابنا ؟ . . وكيف نرجو رحمة الله ولا نطيعه ؟ . . وكيف نتمتم ونحوقل على المسابح بما لا نفهم وبما لا نعقل وبما لا نعمل ؟ . . وكيف نجعل من شهر صيامنا شهر أكل وسهر وسمر وتلاه ؟

العلم أولاً والعلم ثانياً والعلم ثالثاً . . والعمل بما تعلمناه رابعاً . . والهمة دائماً . . ومكارم الأخلاق والصدق مع النفس والصدق مع الله أخيراً . . هذا ديننا .

لنبدأ عهداً جديداً إذا أردنا أن يكون الله معنا . ولنغير من نفوسنا حتى يغير الله من أحوالنا . . فقد غربت شمسنا واشتمل علينا ليل حالك مدلهم لا يلمع فيه نجم . فلنعمل ولا نألوا جهداً حتى لا يطول علينا انتظار الفجر .

* * *

أهمية القدوة في
تربية الأمة

تمهيد :

لكي يبلغ عمل ما كماله . . لا بد من أمور ثلاثة :

لا بد من نية صادقة تدفع إليه . .

وأن يكون العمل في ذاته مشروعاً . .

وأن يكون الداعي إليه أول الملتزمين به . .

فإذا لم يكن العمل مشروعاً . . كمن سرق ليبني مسجداً مثلاً . . فلا تكفي النية هنا . . لأن هذا العمل لم يكن امتداداً لها على الطريق المستقيم . . فإذا توفرت النية الطيبة . . ونبت على ساقها عمل صالح مصلح . . جاء دور القدرة الحسنة . التي تكون في صمتها أعلى صوتاً من كل دعوى نظرية . . تموت بموت أصحابها ممن يجيدون فن الكلام . ثم لا تطاوعهم هممهم ليكونوا على مستوى ما يدعون .

* * *

سوف يكون أثر الدعوة إلى الفضيلة ضئيلاً . . عندما تبدو هذه الفضيلة من خلال الخطب الرنانة . والأناشيد الحماسية . .

وقد تبدو الموعظة أحياناً مخنوقة الصوت في بيئة تضج بالنماذج الرديئة التي تهيل عليها التراب !

وأذكر هنا تلك اللافتة . والتي تواجهك على جانبي الطريق الزراعي :

تقرأ في أسفل اللافتة : التدخين ضار بالصحة جداً . .

ولكن ماذا في اللافتة على اتساعها . والذي يكاد ليحجب الأفق ؟

إنك تطالع على الاتساع :

فتى يهمس إلى فتاة .. بينما في شفتي كلٍّ منهما « سيجارة » يرسم دخانها دوائر سابحة في جو الفضاء ..

إلى جانب الألوان .. والظلال .. بحيث تقع في أسر الموقف الذي يشدك .. فإذا رحت تتامل الموعظة أسفل اللافتة لم تجد في نفسك أقبالاً عليها .. ولا رغبة في الإنصات إليها .. بعدما نجح الإعلان في احتوائك .. بلغة النفاق الذي تخاصم الأفعال فيه الأقوال ..

وهو واحد من الدروس المستفادة من قوله تعالى :

﴿ يرضونكم بأفواهم وتأبى قلوبهم ﴾ .

إنه يتملقك بموعظة محصورة مخنوقة .. لكن قلبه .. بل وكيانه كله مسخر للتمكين للرذيلة التي يريد .

* * *

التعليم بالقدرة :

لقد أدرك العابثون ما للقدرة من أثر فعال . فسخروها لترويج الباطـل . وتم ذلك عبر طرق منها :

أ ـ محاربة القدى الطيبة الفاعلة .

ب ـ السماح للقدرة الرديئة أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر في بلاد غير إسلامية ..

ليرى الناس هناك كيف تبدو مباديء الإسلام غير قادرة على صنع الرجال .. حتى المنادين بها ؟!!

وقد حفظ التاريخ من جيل الأعداء في محو القدوة الحسنة ما كان من بريطانيا إبان استعمارها لمصر :

لقد اشترطت بريطانيا على مصر لما تنبهت إلى خطر المخدرات .. وأنشأت سلاح الحدود إنجليزياً .. ليتمكن من التحكم عن طريق هذا الموقع الحساس من وأدة الصحوة الوطنية :

وأمريكا .. تسمح في بلادها بالدعوة إلى الإسلام ..

وقد يبدو غريباً للوهلة الأولى أنها تشجع بعض هذه النماذج .. ولكنها النماذج

الرديئة التي تخاصم فعلها قولها . .

ولقد كان المندوب السامي في بعض بلاد الإسلام يقاطع التجمعات الإسلامية الواعية . . وفي الوقت نفسه يحرص على المشاركة في اجتماعات الدراويش الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني .

* * *

وفي الإسلام :

كان التعليم بالقدوة مبدأ المصلحين وعلى رأسهم رسول الله ﷺ . . لقد كان أول المسلمين :

شارك في بناء مسجد المدينة . .

وشارك في حفر الخندق . .

وربما لو لم يحفر معهم . . لما خف الجميع للعمل الدؤوب .

ولكنه أمسك المعول . . فحرك الرغبة الكامنة . . وردد الوادي تلك الاستجابة الجماعية عن طريق النشيد الإسلامي :

لئن قعدنا والنبي يعمل   فذاك منا العمل المضلل

* * *

عبرة للحكام :

إن في ذلك لعبرة للحكام الذين يجعلون من القدوة سبيلهم إلى قيادة الشعب . . فالأعمال الكبيرة يراها الشعب ممثلة في قيادتهم هي الوقود المحرك . وتأثيرها يصبح أقوى من العصا . وأرهب من القانون .

وقد نبه العقاد إلى ذلك . حين أشار إلى ضآلة تأثير الحاكم المستبد في داخل الإنسان : (لأن الحاكم المستبد يتسلط على الضمير من خارجه .

بخلاف القدوة الخادعة :

فإن الاستهواء فيها خداع من الباطن .

وكثيراً ما يكون تدخل الحاكم داعياً إلى تحفز الضمير . . فيقاوم . حتى لا يكون من الحيوانات التي تقاد أو تساق . دون أن يكون لها رأي في مقادة أو مساق) .

* * *

لقد كان « كاسترو » زعيم « كوبا » محبوباً من شعبه .

وبدافع من هذا الحب قلده الشعب في عادة « التدخين » .
فلما أقلع عن هذه العادة . أقلع عنها الشعب تقليداً .
وهكذا الناس على دين ملوكهم دائماً . .
قال الطبري :
كان الوليد صاحب بناء . . واتخذ مصانع وضياعاً .
فكان الناس يلتقون في زمانه . . فإنما يسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع .
فلما جاء سليمان كان صاحب نكاح وطعام .
فكان الناس يسأل بعضهم بعضاً عن التزويج والجواري .
فلما ولي عمر بن عبد العزيز . كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل :
ما وردك الليلة ؟
وكم تحفظ من القرآن ؟
ومتى تختم ؟
وما تصوم من الشهر ؟
فأصبح الناس . وقد شملتهم نعمة الرضا واليسر .

* * *

أهمية القدوة :

لقد كان ﷺ يقول : « **صلوا . . كما رأيتموني أصلي وخذوا عني مناسككم** » . .
ذلك بأن الحسن ما رآه الناس فيك حسناً . . لا ما سمعوه منك . .

* * *

لقد أراد العابثون أن تكون لهم قدى رديئة على مستوى العالم . . يحاربون بها دعاة الحق . . فأنشؤوا لها مجلات تظهرها في أبهى حللها .
فغدا الفنان . . رجل الساعة . .
ثم تحمس الفارغون اللاهون فرصدوا للاعب الذي يضع في الشبكة « كرة » مئات الألوف من الجنيهات . .

يفعلون ذلك .. بينما الأطهار تحت التراب !

* * *

ومعنى ذلك أن اللاهين ينتفعون بالهدي النبوي العملي .. في الوقت الذي ينام صاحب الحقل ..

ولم تجد القدوة الحسنة تقديراً يساوي عملها العظيم :

لقد رفض ضابط مسلم في سلاح الحدود نصف مليون جنيه رشوة ليسمح بتمرير شحنة من المخدرات .. كما رفض « ابن رواحة » رضي الله عنه رشوة اليهود ليزيغ في الحكم .. وآثر الطفل الصغير « عاطف » دوره في العلاج لخطورة حالته .. مع ضآلة الأمل في نجاته من مرض يطوقه ..

فذكرنا بالثلاثة الذين طلبوا شربة ماء بعد المعركة فماتوا جميعاً .. شهداء الإيثار ..

* * *

إننا مطالبون بالتنويه بهذه القمم تربية للأمة على خلق الإيثار .. وإتاحة لقدى كثيرة في مختلف المجالات سوف تعلن عن نفسها متى وجدت التقدير الذي هو من فطرة الإنسان ..

لقد جعل ﷺ للغارمين الذين تورطوا في مجالس الصلح فجادوا بأموالهم . جعل لهم نصيباً مفروضاً تشجيعاً لهم ولأمثالهم على الاستمرار .. وليبقى نهر العطاء دفاقاً بالعطاء .

وإذا كان مهماً أن تواجه الناس بالهدي .. فأهم منه أن تكون تعبيراً عنه :

إذا لم يزد علم الفتى نفسه هدى ... وسيرته عدلاً . وأخلاقه حسنا
فبشره أن الله أولاه فتنة ... تغشيه حرماناً وتوسعه حزنا

* * *

منهج الإسلام :

أرادت دولة أن تحرم التحلي بالذهب . فماذا صنعت ؟

جعلت منه قيوداً للمجرمين ! ولعباً للأطفال !

والفكرة ناجحة ولا شك .. ولكن فيها من التحايل ما فيها ..

أما في الإسلام :

فإن الأمر على ما قرره العلماء الفاقهون :

لقد كانت الخمر . . هي الخمر . . بكل مغرياتها . . ومع ذلك أقلع الصحابة عن شربها ؟ ومتى ؟

لقد حطموا الكؤوس . . وهي تلامس الشفاه !

وأصبح العرب الذين كانوا يأكلون ثلاث وجبات . . ويشربون خمس مرات . . أصبحوا يصلون في اليوم خمس صلوات !

* * *

وهكذا تستبين روح المنهج الإسلامي المرتكز على القدوة في أخذ الناس بالفضيلة . وفي الوقت الذي اكتشف فيه العالم ما في الخمر من إثم . . فإنه لم يستطع تحريمها . . (ولكن الإسلام . . بالقدوة الملتزمة حرمها قبل أن يكتشف ما فيها من إثم . .

لقد فشل القانون هناك في تحريمها . . لأن القانون : يقيم الأوضاع . . ولا يخلق الحياة .

ويحرس الأفراد . ولا يهبهم الضمير .

بل أن القانون ليعجز عن حراسة طراز من البشر .

وأين هم من ذلك الطراز المؤمن :

الذي سما بشرف الضمير . . حتى صار للقانون حارساً)!!

* * *

القدوة الدائمة :

لقد كان محمد ﷺ رحمه مهداة للأمة الإسلامية . .

وإذا كان الصحابة قد انتفعوا به في حياته بينهم . .

فقد ظل في ضمير الأمة مثلاً أعلى وقدوة دائمة قائمة في وعي المسلم يرى فيها مثله الأعلى في كل مناحي الحياة :

(لقد مثلت حياة النبي ﷺ أعمالاً كثيرة . متنوة . بحيث تكون فيها الأسوة الصالحة . والمنهج الأعلى للحياة الإنسانية في جميع أطوارها . لأنها جمعت بين الأخلاق العالية . . والعادات الحسنة . والعواطف النبيلة المعتدلة . والنوازع العظيمة القويمة :

إذا كنت غنياً ثرياً فاقتد بالرسول ﷺ عندما كان تاجراً يسير بسلعة بين الحجاز والشام ، وحين ملك خزائن البحرين . .

وإن كنت فقيراً معدماً فلتكن لك أسوة به وهو محصور في شعب أبي طالب ، وحين قدم إلى المدينة مهاجراً إليها من وطنه وهو لا يحمل من حطام الدنيا شيئاً . .

وإن كنت ملكاً فاقتد بسنته وأعماله حين ملك أمر العرب ، وغلب على آفاقهم ، ودان لطاعته عظماؤهم وذووا أحلامهم . .

وإن كنت رعية ضعيفاً ، فلك في رسول الله أسوة حسنة حين كان محكوماً بمكة في نظام المشركين . .

وإن كنت فاتحاً عظيماً ، فلك من حياته نصيب ، أيام ظفره بغزوة في بدر وحنين ومكة . .

وإن كنت منهزماً ـ لا قدر الله ذلك ـ فاعتبر به في يوم أُحد . وهو بين أصحابه القتلى ، ورفقائه المثخنين بالجراح . .

وإذا كنت معلماً فانظر إليه وهو يعلم أصحابه في صفة المسجد . .

وإن كنت تلميذاً متعلماً ، فتصور مقعده بين يدي الروح الأمين جاثياً مسترشداً . .

وإن كنت واعظاً ناصحاً ، ومرشداً أميناً ، فاستمع إليه وهو يعظ الناس على أعواد المسجد النبوي . .

وإن أردت أن تقيم الحق وتصدع بالمعروف وأنت لا ناصر لك ، ولا معين ، فانظر إليه وهو ضعيف بمكة ، لا ناصر ينصره ، ولا معين يعينه ، وهو مع ذلك يدعو إلى الحق ، ويعض به . .

وإن هزمت عدوك ، وحصدت شوكته ، وقهرت عناده ، فظهر الحق على يديك ، وزهق الباطل ، واستتب لك الأمر ، فانظر إلى النبي ﷺ ، يوم دخل مكة وفتحها . .

وإن أردت أن تصلح أمورك أو تقوم على ضياعك ، فانظر إليه ﷺ ، وقد ملك ضياع بني النضير وخيبر وفدك . . كيف دبر أمورها أو أصلح شؤونها ، وفوضها إلى من أحسن القيام عليها . .

وإن كنت يتيماً فانظر إلى فلذة كبد آمنة وعبد الله ، وقد توفيا وابنها صغير رضيع . .

وإن كنت صغير السن ، فانظر إلى ذلك الوليد العظيم حين أرضعته مرضعته الحنون حليمة السعدية . .

وإن كنت شاباً فاقرأ سيرة راعي مكة . .

وإن كنت تاجراً مسافراً بالبضائع ، فلاحظ شؤون سيد القافلة التي قصدت بصري .

وإن كنت قاضياً أو حاكماً ، فانظر إلى الحكم الذي قصد الكعبة قبل بزوغ الشمس ليضع الحجر الأسود في محلة ، وقد كاد رؤساء مكة يقتتلون . . « ولعله يقصد شمس رسالة الرحمة » . .

ثم ارجع البصر إليه مرة إخرى ، وهو في فناء المسجد النبوي يقضي بين الناس بالعدل ، يستوي عنده منهم الفقير المعدم ، والغني المثري . .

وإن كنت زوجاً ، فاقرأ السيرة الطاهرة والحياة النزيهة ، لزوج خديجة وعائشة رضي الله عنهما .

وإن كنت أب أولاد ، فتعلم ما كان عليه والد فاطمة الزهراء وجد الحسن والحسين .

وأياً من كنت ، وفي أي شأن كان شأنك ، فإنك مهما أصبحت أو أمسيت ، وعلى أي حال بت أو أصبحت ، فلك في حياة محمد ﷺ هداية حسنة ، وقدوة صالحة تضيء لك بنورها دياجي الحياة ، وينجلي لك بضوئها ظلام العيش فتصلح ما اضطرب من أمور ، وتثقف بهديه أودك ، وتقوم بسنته عوجك ، وإن السيرة الطيبة الجامعة لشتى الأمور هي ملاك الأخلاق ، وجماع التعاليم لشعوب الأرض ، وللناس كافة ، في أطوار الحياة كلها ، وأحوال الناس على اختلافها وتنوعها . . فالسيرة المحمدية نور للمستنير ، وهديها نبراس للمستهدي ، وإرشادها ملجأ لكل مسترشد) .

* * *

لا تموتوا قبل أن تموتوا :

على رغم ذلك الضباب الذي يخيم أحياناً فيسد الأفق . . ومع تلك

المضحكات المبكيات التي تلح علينا . . فإن ذلك لا يطفىء جذورة الأمل في قلوب الشباب الطامح إلى التغيير . .

وفي يده سلاح التجاهل . . أو سلاح السخرية . . ومحاولة الترفع عنها . .

ولنتأمل الطبيعة من حولنا :

تخرج الفراشة في الصباح الباكر . . لكي تنشق أزهار الربيع . .

تخرج . . تسوق أمامها ضبابة تلكأت في الذوبان . . تلمس بعصاها حناجر الطبيعة . فيغرد الطير . . وتئن الساقية . .

تخرج صباحاً . . لتحط على زهرة . . ثم تنتقل إلى أخرى . . حتى إذا أدركها التعب ركبت شراع العودة . . وتحل رطوبة المساء . .

فإذا رأيت أيها الشاب هذه الأرض من حولك . . وقد غطتها الثلوج . .

وإذا حجبت الغيوم وجه السماء . .

وإذا غاب النور في كهف الشتاء . .

فما عليك إلا أن تحلم بقدوم الصيف !!

والصيف آتٍ لا ريب فيه . .

إحلم بالمستقبل فهو مملكتك الآتية . . رغم ما يحيط بك من أعشاب تأخذ سبيلها إلى الجفاف :

(إن هذه النبتة ـ الشباب ـ على قوتها مختفية بين فئات من الأعشاب الجافة . التي بقيت من الموسم الماضي . إنها ستشق طريقها من بينها وتحيا من دونها . لأن النبتة الجديدة أم المستقبل . وتلك الأعشاب بنت الماضي . فستذهب مع الأمس إلى غير ما رجعة .

إن صوت النهضة الجديدة صوت الحق . ضائع في الصحيات التي تدوي اليوم في الأسماع صدى للأصوات الماضية لا يلبث أن يخفف . لأن الصدى ينتهي . أما الصوت فإنه يبدأ .

أنظروا ـ يا شباب ـ إلى الحياة من ناحية الأمل المشرق الواسع . لا من جهة اليأس الضيق القاتم .

* * *

إن شبابنا متشائمون : اقرؤوا قصائد الشعراء من الشباب : إنها مليئة بالآلام . مغمورة بالكآبة . غارقة بالدموع . فما لشعرائنا الشباب لا يرون في الدنيا لذة ولا سرور ؟

لِمَ يبصرون ظلام الليل . ولا يرون بهاء الشمس ؟

لِمَ يفكرون في وحشة الخريف . . ولا يفكرون في روعته ؟

لِمَ ينتبهون إلى عرى الشتاء . . ولا ينتبهون إلى خشوعه ؟

إن كل ما في الدنيا جميل بهي . ولكن في عين الشباب الصحيح القوي .

أما المريض . . أما المسلول المحطوم . . فلا يرى إلا الظلام .

فيا شبابنا : داووا نفوسكم من سل اليأس)[1] .

* * *

ونقول للشباب بعد ذلك :

لا تموتوا . . قبل أن تموتوا !

* * *

فلنمد جسور الثقة :

زار الخليل بن أحمد تلميذاً له . فقال التلميذ مرحِّباً بأستاذه :

زرتنا بفضلك . . ونزورك لفضلك . .

فلك الفضل زائراً . . ومزوراً !

هكذا كانت شفقة الكبير على الصغير . . وكان تقدير الصغير للكبير . .

كان إحساس طالب العلم بفضل أستاذه حاضراً لا يغيب . . قوياً لا يفتر . .

إننا جميعاً . . متعلمون . .

لكن أهل الاختصاص . . هم وحدهم المعلمون . .

فمن أراد أن يقفز هذه المسافة قبل الأوان . . فقد خدعته نفسه . . التي أتى من قبلها . .

* * *

---

(١) الشيخ علي الطنطاوي . فصول إسلامية ٥٦ : ٥٧ .

إن مشكلة بعض شبابنا أنهم تعجلوا النضوج قبل أوانه . . **فأنستهم السرعة تدبير الأمور ببصيرة كاشفة . .**

* * *

مصادر الخطأ :

لقد فتح بعض شبابنا النار على : الأمراء . . والعلماء . . باعتبارهم مصدر الانحراف : ذلك بتسلطه . . وهذا بتزلفه . .

وأخطأ الشباب هنا عندما غفلوا أنهم أيضاً قد يكونوا مصدراً للخطأ . .

ولنا من سنته ﷺ شاهد ودليل :

لقد كان ﷺ إذا خرج من بيته يدعو ربه فيقول : « **بسم الله توكلت على الله . اللهم إني أعوذ بك أن أَزِل أو أُزَل . أو أَضل أو أُضل . أو أَظلم أو أُظلم . أو أَجهل أو يُجهل علي** » .

ويلاحظ أنه ﷺ يستعيذ أولاً من نفسه وما يمكن أن يصدر عنها من خطأ . . ثم يستعيذ ثانياً من الظلم والجهل المتوقع من الآخرين . .

وهذا الترتيب يعني ضرورة تغيير النفس أولاً . . قبل أن تطالب الآخرين بتغيير أنفسهم . .

وهكذا فهم شبابنا توجيهاته ﷺ . . فعكفوا على تغيير أنفسهم أولاً . . فلما غيروها . . وجهوا طاقاتهم في تغيير الحياة على نحو يقف بهم في الطليعة شاهدين على الناس :

فكان فيهم الطبيب . والكيمائي . . والمخترع . . وأهم من ذلك : أنهم كانوا يأكلون من عمل أيديهم :

* * *

كان المطعم بن عدي ـ وهو من أشراف قريش في الجاهلية وفي الإسلام يعطي كل من أراد : فرساً وسلاحاً .

فجاءه مرة رجل يريد فرساً وسلاحاً .

فقال له عدي : اتبعني .

وذهب به إلى داره . ومشى الرجل وراءه .

لكنه لاحظ المطعم : فرآه كلما أبصر في الطريق خرقة[1] نفضها . وحملها . وإن رأى خشبة حملها .

فعجب منه الرجل حتى وصل الدار :

فوضع الخرقة في كيس كله خرق . والخشبة مع الخشب . ثم أعطاه الفرس والسلاح .

فقال له الرجل :

ولكن ما شأن هذه الخرق ؟ قال :

إنني أجمعها . فأبيعها .

ومنها . ومن أمثالها أعطيك وأعطي غيرك !!

* * *

وهكذا كان يفعل عمر رضي الله عنه . . فكان يجمع الخرق ثم يعطيها للنساء لتصنيعها وبهذه الطريقة جعلوا الماضي في خدمة الحاضر . .

الماضي يظهر مرة أخرى في شكل جديد مفيد . .

وفي ظل هذا الأسلوب تنشأ صناعات . . ويعمل شباب عاطلون . . يملاؤون أوقاتهم بالنافع . .

ثم لا يجدون وقتاً يضيعونه في جدل عقيم عن قيمة العمل . . ثم لا يعملون !

* * *

(١) خرقة نظيفة صالحة طبعاً .

الفصل الرابع

شباب لنا فيهم أسوة

جوانب العظمة في شخصيته ﷺ :

قال مالك بن الحورث :

(أتينا النبي ﷺ . ونحن شببة متقاربون فأقمنا عنده عشرين يوماً وليلة .

وكان رسول الله ﷺ رحيماً رفيقاً .

فلما ظن أنا قد اشتهينا أهلنـا . أو قد اشتقنـا . سألنـا عمن تركنـا بعدنـا . فأخبرناه . قال : « إرجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم . وعلموهم . ومروهم » ـ وذكر أشياء أحفظها . أو لا أحفظها ـ وصلوا كما رأيتموني أصلي . فإذا حضرت الصلاة . فليؤذن أحدكم . وليؤمُّكم أكبركم)[1].

تمهيد :

من بين ما تناقلته الألسنة من أساطير الأولين . . ما يحكي قصة الحياة قبل البعثة النبوية . ومنها ما قرأته :

(ظهرت « فينوس » على بحيرة من عطر الياسمين .

أجمل ما يكون الجمال جمالاً . وجسمها يتوهج كوقدة الشمس .

وفتنتها الآخذة الجامع تثير عاصفة من الإثارة والهوس .

وجاءها رجل يسعى فقالت له : من أنت ؟

قال : راعٍ يرعى النفوس الشاردة . ويدلها على ينابيع الماء في الصخر .

---

(١) البخاري . ج ٢ / ط ١ الحلبي كتاب الصلاة . باب الأذان للمسافر .

وعلى المرج الخضيب في الوادي الجديب .

فقالت . . :

مسكين ! . . خذ مكانك بين الذين يمزجون العطر تحت قدمي . . فتملك مثل ما يملكون :

المال . . والجاه . . والشهرة . . والمتاع .

فقال الرجل : كلا يا « فينوس » إنني إن فعلت ذلك . . أفقد الإنسان الذي به وجودي .

وهكذا كانت الحياة قبيل البعثة . . حين أخذت الأرض زخرفها وأزينت وظن المنحرفون أنهم قادرون عليها . ومكروا مكراً كباراً .

فكانوا لصوصاً مهرة يجادلون سرقة ما تبقى من إنسانية الإنسان :

وهكذا السارق الماهر الماكر :

يقطع الأسلاك . . فيعم الظلام ، وعندئذ يمارس جريمته . .

فإذا انحسر الظلام خنس . . فلا مكان له تحت الشمس الطالعة .

ولقد عاش العالم قبل البعثة تحت وطأة ليل كموج البحر .

أرخى سدوله بألوان الهموم . . وانقضّت عصابة السوء على الإنسان في محاولة لتدميره .

وإذا كانوا يقولون : إن أشد ساعات الليل ظلاماً هي التي تسبق طلوع الفجر . . فقد شددت الفتنة قبضتها لاستقطاب الإنسان عن طريق غرائز الجنس . . والتملك . وحب الحياة . .

ولكن . . إذا كانت الضربة القوية تحطم الزجاج . . فإن هذه الضربة نفسها هي التي تثير في الإنسان جنود المقاومة . . التي هبت تدافع عن كرامة الإنسان . . بهذا الإباء الرافض للفتنة المتحكمة .

وفي هذه اللحظة . . وافته الأقدار العليا . . بالرائد الذي لا يكذب أهله . . والذي كان على موعد مع الإنسان .

المربي العظيم :

انتهت بحوث البصراء بطبائع النفوس إلى تلخيص ركائز العظمة في أمور أربعة :

١ ـ الأخلاق الرفيعة التي يتميز بها العظيم .
٢ ـ سمو المبادىء التي يدعوا إليها .
٣ ـ قوة تأثيره وقدرته على تكميل غيره بما كمل به نفسه .
٤ ـ نجاحه في صياغة جيل يتحمل المسؤولية من بعده .

ولقد كان محمد ﷺ في الذروة من هذه الركائز . على ما يشير إليه الحديث الشريف .

وكيف ؟ .

ذلك ما نحاول تجليته فيما يلي :

التحول الكبير :

هؤلاء مجموعة من الشباب يستيقظون على دقات الحق المبين . بعدما أحسوا بالفراغ في بيئة صار الدين فيها تقليداً ، والأدب غزلاً . والحياة كأساً يغيب فيها وجود الإنسان .

وعلى أمواج الحنين . . وهو زاد المشتاق . . ونزهة العشاق . . مضوا يحملون القلوب إلى ديار المحبوب ! . . إلى الرائد الذي لا يكذب أهله . .

وفي مجتمع من نوع جديد :

(. . فعلى أي شيء كان يجتمع الناس في مجتمع الجاهلية ؟

وفيمَ يجتمع مع إخوته في الله ورسوله ؟

إنه كما قيل : ألا إنها الإخوة هنا . . حيث لم تكن أخوة هناك :

لقد كان يجتمع مع لدات له من قبل في المجتمع الجاهلي . . ففيمَ كانوا يجتمعون ؟

يسمرون مثلاً ؟

في لحظات الصفاء . .

نعم . .

ولكن كلٌّ منهم مشغول بذاته .

مشغول بإبرازها خشية أن يُبرز أحدٌ ذاته أكثر منه . .

فيتميز في المجلس بشيء .

أو ينسون أنفسهم في مجلس لهو وشراب وفارغ من حديث .

أو يلتقون . أو يتصارعون . . على مصالح التجارة .

أو يجتمعون في حلف قبيلة ضد غيرها . . فيدبرون معاً خطة العدوان .

أو يروون الشعر . ويتفاخرون بالأنساب .

تلك دنيا لقائهم . . وتلك مشاعر اللقاء . .

أما اليوم . . فشيء آخر لم يذق طعمه من قبل قبل أبداً .

إنه الحب . . إنه الترابط والالتصاق)[1].

لقد تراجعت مشاعر الكراهية . . والمشاعر المحايدة . . والسلبية البغيضة . . تراجعت الأثرة . . وكان الإيثار .

إنهم لم يكتفوا بمطالعة الأفكار مسطورة في كتاب . . لكنهم حرصوا على المقابلة الشخصية . . فعن طريقها تنشأ الملكات وتقوى . . إلى جانب ما تثمره من خلال ٍ لا بد منها في تكوين المتعلم . . الذي يجد نفسه في مجموعة من رفقة الخير . . تزوده بهذه الخلال التي لا يتمثلها لو كان معزولاً .

فإذا كانت الجماعة محدودة العدد . . آتت التربية أكلها :

١ ـ لأنها تتيح الحد الأقصى من التفاعل بين الأعضاء .

٢ ـ تساعد على نمو ملكة التفكير .

٣ ـ تمني مشاعر الإنتماء .

٤ ـ يربو الإحساس بمعنى المساواة .

٥ ـ تساعد على انبثاق قيادات جديدة . . حين تتراءى مواهبها في نقطة الضوء[2] .

ولا يمكن أن يتربى الإنسان تربية حقيقية متكاملة إلا في جماعة .

وعلى أهمية التربية الفردية إلى أقصى مدى الأهمية . فإنها وحدها . لا تنشىء كياناً سوياً للإنسان .

لأن هناك جوانب من النفس الإنسانية لا تنضج . ولا تعمل . إلا في داخل جماعة فيها أفراد آخرون .

---

(١) محمد قطب . منهج التربية الإسلامية .

(٢) راجع القيادة ودناميكية الجماعة .

فإذا لم يلتق الإنسان بالجماعة . أو لم يتعود التعامل معها .

فستظل هذه الجوانب كامنة معطلة غير مدربة على العمل . فتنكمش وتتضاءل . كما ينكمش ويتضاءل كل عضو لا يُستخدم في جسم الإنسان)[٢].

الرائد . . الإنسان :

إنهم شباب . . فهم متحمسون .

متقاربون في السن . . فهم متنافسون .

ومن ثم . . فلا يصلح لقيادتهم قائد عبقري . . ولا بطل عسكري . .

لقد أشار العقاد إلى أن العبقرية : ندرة لا يطمع الناس أن يكونوها . والبطولة لون من التفرد لا يحكم كل الناس بها . .

ومن هنا كانت العبقرية والبطولة تميزاً . . لا يمكن من الاندماج مع الجماهير ولو وكل إلى عبقري قيادة أمة لأرهقها وما حقق بها ما يريد . .

ولكن الناس . . والشباب بخاصة في حاجة إلى القائد . . الإنسان.

الذي تهرع إليه آمال البشر . . فيحتويها ثم يغذيها بما يملك من رصيد الرفق والرحمة .

يقول ابن خلدون : (واعلم أنه قلما تكون ملكة الرفق فيمن يكون يقظاً شديد الذكاء من الناس .

وأكثر ما يوجد الرفق في الغُفْل . والمتغفَّل .

وأقل ما يكون في التيقظ .

لأنه يكلف الرعية فوق طاقتهم . لنفوذ نظره فيما وراء مداركهم .

واطلاعه على عواقب الأمور في مباديها بألمعيته فيهلكون لذلك .

قال ﷺ : « سيروا على سير أضعفكم » .

ومن هذا الباب اشترط الشارع في الحاكم قلة الإفراط في الذكاء .

ومأخذه من قصة : زياد بن أبي سفيان لما عزله عمر عن العراق وقال له :

لِمَ عزلتني يا أمير المؤمنين : ألِعجز أم لخيانة ؟

---

(١) محمد قطب . منهج التربية الإسلامية ٣٨ .

فقال عمر :

لم أعزلك لواحدة منهما . ولكن كرهت **أن أحمل فضل عقلك على الناس** .

فأخذ من هذا : أن الحاكم لا يكون مفرط الذكاء . والكيْس . مثل **زياد بن أبي سفيان** وعمرو بن العاص . لما يتْبع ذلك من التعسف وسوء الملكة .

وحمل الوجود على ما ليس في طبعه .

وتقرر من هذا أن الكيْس والذكاء عيب في صاحب السياسة .

لأنه إفراط في الفكر . كما أن البلادة إفراط في الجمود .

والطرفان مذمومان من كل صنعة إنسانية . والمحمود هو التوسط)[1].

مفتاح الشخصية :

وإذا كان الإفراط في الذكاء واليقظة عيباً في حكام الدنيا . . فقد كان صاحب الخلق العظيم ﷺ طرازاً فريداً تجمع في قلبه ما تفرق في قلوب الناس من عواطف الخير . . محروساً بالوحي الأعلى . .

فأنقذ البشرية من الضلال . . بأخلاقه تلك العظيمة .

ومنها ذلك الرفق الذي شهد به هؤلاء الشباب فكان البلسم الشافي :

أبعاد الرفق النبوي :

الرفق . . ضد العنف .

وهو خلق إيجابي ومن معانيه : الوسط [رفقت في السير] .

والانتفاع : [ارتفقت بالشيء : انتفعت به] .

والحكمة : [رفقت العمل : أحكمته] .

والرفيق : الحاذق في عمله . وهو ضد الأخرق . . العاجز .

والرحمة : خليط من مشاعر : الحنان . . والإشفاق . .

والرقة . . يتجاوز بها الإنسان عن زلات الآخرين . .

ومن مزيج الرفق والرحمة يكون الإنسان إنساناً عظيماً . .

وإذن فقد كان هذا الشباب المتحمس على موعد مع صاحب الخلق . .

---

(١) المقدمة الفصل ٢٤ .

الإنسان العظيم . . بعيداً عن العبقرية . . والبطولة . . منفردتين . . معزولتين عن الوحي الأعلى .

إن العش الذي يقوم على غصن هش ليس له قرار . .

ومن ثم . . لم تكن رحمته ورفقه لوناً من المجاملة ينهي به المقابلة . .

بيد أنها الفطرة السوية تفتح ذراعيها للحماس المتوقد . .

فتفسح له الطريق على جناحين منهما . . حتى لا يكون الحماس شلالاً هادراً .

وليكون في النهاية عملاً مثمراً .

سمو مبادئه :

ولقد كان في رحمته ورفقه سماء ما طاولتها سماء . .

فلم يكن خلقة ذلك عنصرياً . . ملوناً . .

وإنما هو الخلق الطليق يستظل به العاكف والباد !

ولقد كتب الكاتبون محللين شخصيته ﷺ . . وعظمة ما يدعو إليه من مباديء . . وكان من أبرزهم « مايكل هارت » الذي جعل محمداً ﷺ على رأس مائة من عظماء العالم .

ولكنه (لم يتخذ قيمة الأعمال الذين أتوا بها . وكمالاتهم الشخصية مقياساً لعظمتهم . وإنما نظر إلى درجة التأثير الذي أحدثه الشخص في العالم . ومدى تدخله هو في التأثير وسعته .

سواء أكان ما أتى به خيراً للبشرية . أو شراً في الحقيقة والواقع . فمحمد ﷺ انطبق عليه مقياس هذه الناحية من العظمة .

وكان له فيها القسط الأكبر فكان فيها أعظم العظماء .

لكننا أردنا أن نعرض العظمة في مقوماتها الذاتية . لا في درجة تأثير الظيم فقط . والتي يتكون منها المقياس الصحيح للعظمة . . والتي تكون نموذجاً يحتذى للكمال البشري .

وهذا ما وجدنا أن نبينا محمداً ﷺ قد استجمع فيه دعائم العظمة كلها مما تفرق بين زعماء البشر . فكانت عظمته جماع العظمات . من الوجهة الواقعية التاريخية . وإن لم ينظر إلى صفة النبوة . التي ألقاها الله عليه وأيده بها) .

ولقد أشار الحديث الشريف إلى خلاصة هذه المباديء التي يدعوا إليها :

١ ـ بداية الإصلاح من الأسرة . . وفاء .

٢ ـ أهمية القدوة المتمثلة فيهم تحت سقف البيت .

٣ ـ الدعوة إلى الخير .

٤ ـ التعليم .

٥ ـ إقام الصلاة .

٦ ـ تقديره لدوافع الإنسان . . حين أحس بالشوق إلى الأهل فأمر الشباب بالعودة . صلة الرحم . وحماية للأسرة . من مخاطر الغربة الطويلة .

لقد كان الشباب في الجاهلية . . وفي فارس والروم . واقعين بين شقي الرحى فلقد خدعوا الشباب هناك مرة بالرقة والدلال .

ومرة بالقيود والأغلال . وصار الأمر على ما قيل :

[إن غمده فارغ مثل كيسه . فهو أعزل فقير] .

فلما جاء ﷺ منحه الخلق العظيم الذي فتح به العالم . . ووضع في صدره الكتاب . . الذي سكن منه في قلب عامر . فغير وجهه العالم كله .

قوة التأثير :

يقول « جوستاف لوبون » :

(إن ملكة الفنون لا تستحكم في أمة من الأمم إلا في ثلاثة أجيال :

جيل التقليد . وجيل التحضير . وجيل الإستقلال .

وقد شذ العرب . فوصلوا إلى الاستقلال في جيل واحد) .

كانت قدرته ﷺ على التأثير مردودة إلى أنه كان القدوة الحسنة وبهذه القدوة ظل منتصباً من وعي من رآه . . فلا يفلت من جاذبيته .

فلم يكن سلطاناً يتاجر بآمال أمته . . ولم يكن مترفاً يتفنن في أطايب الطعام بينما تموت الأمة جوعاً . .

وكان في تناوله للأمور بسيطاً . . بعيداً عن التعقيد . .

يتجاوز الشكليات إلى الأصول .

بينما زعماء فارس والروم :

تجارتهم قمار . . يربح فيها واحد . . ويخسر الملايين . .

ويمارسون أقسى ألوان الظلم . . بينما يتحدثون عن المساواة . .

وتضيء في قصورها الثريات ويموت الود في القلوب من هجمة شرسة على ثروة الحب في الأفئدة . .

منهج التربية :

من أسباب فشل التربية اليوم .

أ ـ فساد التصور .

ب ـ سوء التطبيق .

جـ ـ غياب القدوة .

من أجل ذلك . وضع ﷺ للشباب خطة العمل التي يملكون بها المستقبل . . والتي يتلافون بها هذه السلبيات جميعاً .

ولقد كان ﷺ أولاً نعم المربي الشاعر بحاجاتهم النفسية المتطلعة إلى الإشباع .

فلما ظن . . مجرد الظن . . أنهم قد اشتاقوا إلى أهلهم . . أمرهم بالعودة إليهم . . تقديراً منه ﷺ لدوافع الإنسان . .

وحتى تؤتي خطة التربية والتعليم ثمارها . . وقبل أن تشوش حاجات النفس على العقل فلا يفهم . . وعلى القلب فلا ينشط .

وقد وضع لهم خطة العمل :

أ ـ إنها تبدأ من البيت أولاً . . وخيركم خيركم لأهله . « ارجعوا إلى أهليكم » .

ب ـ على أن يكونوا لهم القدوة القائمة الدائمة « فأقيموا فيهم » .

جـ ـ ثم لتبدأ مهمة التعليم والتثقيف . . التي تزيد المتعلم وعياً بما حوله ومن حوله « . . وعلموهم . . » .

د ـ ثم يكون التوجيه . . بأمرهم بالخير « . . ومروهم » .

هـ ـ على أن تظل القدوة أداة التأثير . . لا مجرد بيان الأحكام :

« وصلوا كما رأيتموني أصلي » . . لا كما سمعتموني !!

لتكون للقدوة تأثيرها .

أهمية الترتيب :

وهكذا يتسلسل المنهج . . وبالترتيب . .

إن كثيراً من الشباب اليوم يجيدون من الأمر والنهي . متجاوزين مرحلة الإعداد والإرشاد . . والنوعية . . ولا بد من الاستيعاب أولاً . .

ليكون للأمر من بعده قيمة . . أما مجرد الأمر . . قبل أن تتضح الحقائق . في الأذهان . . فهو لون من الحكم لا يصل بالمتعلم إلى ما نريده له . .

سلم الأولويات :

هناك أمور فرعية . . لا تحتمل الخلاف . . والأمر فيها مبني على التجاوز والتساهل . . ومنها الأذان . .

ومن أجل ذلك قال لهم : « فليؤذن أحدكم » أيّ واحد . .

ولما كانت الإمامة قيادة وريادة . . فقد كان للخبرة والسن اعتبارهما ومن أجل ذلك قال لهم « وليؤمكم أكبركم » .

وإذاً . . فلا بد من التدقيق . . فما هو أهل لهذا التدقيق . .

وبذلك يحميهم من الاختلاف . . الذي ينسحب على الدعوة فيزهد الناس فيها وما أحوجنا اليوم إلى الوفاق بعد طول الشقاق :

فلننح الغرور جانباً . . ولنتخذ من الحق صاحباً . .

ولنفتح أبصارنا على حقيقة ما يراد بنا .

إن بعض الدول الكبرى تسمح لبعض الأنشطة الإسلامية أن تمارس على أرضها . .

لكنها في نفس الوقت . تفتح الطريق لنماذج رديئة تتحدث باسم الإسلام حتى تحبط القول البراق . . بالقدوة الرديئة المتحركة . !!

فلْنَا خذ ذلك في اعتبارنا . . مدركين خطورة الأعداء المتربصين بنا .

فخذوا حذركم يا دعاة الإسلام :

فلو ألف بان خلفه هادم كفى   فكيف وبان خلفه ألف هادم؟!

د . محمود محمد عمارة

ج . م . ع

منوف سن ١٠

معاذ . . رضي الله عنه
الداعية . . الشاب

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل . حين بعثه إلى اليمن :

«إنك ستأتي قوماً من أهل كتاب .

فأذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا ألاَّ إله إلا الله . وأن محمداً رسول الله .

فإن هم طاعوا لك بذلك . فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة » .

فإن هم طاعوا لك بذلك . فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم .

فإن هم طاعوا لك بذلك . . فإياك وكرائم أموالهم .

واتق دعوة المظلوم . فإنه ليس بينها وبين الله حجاب »[1] .

* * *

وفي رواية الترمذي : أن رسول الله ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن فقال : « كيف تقضي ؟ فقال : أقضي بكتاب الله .

قال : فإن لم يكن في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله ﷺ .

قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله ؟ قال : أجتهد رأيي . قال :

« الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ » .

* * *

---

(١) البخاري . كتاب المغازي باب ٦٠/٣٣ .

وفي رواية الإمام أحمد :

فضرب رسول الله ﷺ صدري . ثم قال :

« الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ . لما يرضى رسول الله »

* * *

تمهيد :

إذا انطلق الداعية من قاعدة الإخلاص . متخذاً سبيله إلى هدفه المتمثل في التمكين للدعوة في قلوب الناس . . كان عليه أن يستكمل عدته : بمعرفة طبيعة وظيفته وحدودها . ومدى توافر الامكانات التي يملكها . . بالإضافة إلى دراسة المدعو . وبيئته . . ليتم خطابه من معرفة واعية بالعوامل التي تؤثر في حركته واتجاهاته . . فإذا كان الداعية على قمة الجهاز المسؤول عن نشر الدعوة . كان عليه أن يتخير رجاله . . الذين هم عدته في إنجاح رسالته . . فإذا تم له ذلك . كان النصر حليفه بإذن الله تعالى .

وهكذا كان ﷺ :

لقد اختار « أبا دجانة » فأعطاه سيفه يوم أحد . . بحقه وهو : أن يضرب به العدو . حتى ينحني .

واصطفى « حذيفة بن اليمان » ليستطلع أخبار الأعداء ليلة الخندق . . فكان أحق بالاختيار . . وكان أهله . .

وفي هذا الموقف يختار « معاذ » ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ ليقوم بمهمة البلاغ في ظروف لا يتحمل مسؤولياتها إلا كفاؤها من الرجال . .

* * *

صعوبة المهمة :

ليس المهم « كم » الدعاة . . فأهم منه : « الكيف » . . لقد استعمرت بريطانيا الهند وهي تعد بمئات الملايين . . استعمرتها بعشرات الألوف من الجنود المدربين . .

ولقد كانت المهمة هنا صعبة . . فاختار لها رجلها :

أما عن صعوبتها فتتمثل في :

أ ـ أنها مهمة في دولة غير الدولة .

ب ـ ثم هي مهمة تتطلب تغيير العقائد . وانتزاع العوائد . وليست رحلة سياحية . أو تجارية .

جـ ـ والخطأ في ممارسة مهمة من هذا النوع . . يصير نكسة . . قد تصيب الدعوة في مقتل .

د ـ بالإضافة إلى أن المدعوين « يهود » . لهم كتاب . ولديهم قدرة على الجدال . والمناورة .

كل أولئك يشكل عقبات أمام « معاذ » رضي الله عنه . ولكن شخصية الرجل كانت معدة لاقتحام هذه العقبات بسلام .

* * *

مقابلة شخصية :

وكان لا بد من مقابلة شخصية يتأكد بها القائد من قدرة رسوله على النجاح في مهمته وعن ذلك تقول بعض الروايات :

(أنه ﷺ قال له : « **كيف تقضي ؟** » فقال : أقضي بكتاب الله . قال : « **فإن لم يكن في كتاب الله ؟** » قال : فبسنة رسول الله ﷺ . قال : « **فإن لم يكن في سنة رسول الله ﷺ ؟** » قال أجتهد رأيي . قال : « **الحمد لله الذي وفق رسول الله ﷺ** »)[1]

* * *

منهج الداعية :

كان الداعية « معاذ بن جبل » موفقاً في عرض منهجه الذي لخصه فيما يلي :

١ ـ الرجوع إلى أصل الأصول . . إلى كتاب الله عز وجل . . ليأخذ عنه كيف يواجه الأمور .

٢ ـ فإن لم يجد . . فإلى السنة التي هي بيان لما أجمل القرآن .

٣ ـ فإذا لم يجد النص الكاشف . . اجتهد بعقله ليستنبط الحكم . . المشمول بروح القرآن الكريم والسنة المطهرة . . ولا يدخر في الاجتهاد وسعاً .

ويعني ذلك استقلال شخصية الداعية التي لا تلغي عقلها . . ولا تسلم زمامها إلى كل ناعق كما قد يحدث اليوم حتى لا تكون صورة مكرورة لقيادة تفكر لها . . وترى

---

(١) الترمذي . كتاب الأحكام .

وتسمع لها أيضاً . . قيادة سوف تموت يوماً . . ثم لا تجد ساعة العسرة . . إلا أشباحاً من الأتباع . أن « معاذ » رضي الله عنه . . يحمل النص الكاشف . . وفي نفس الوقت يحمل في رأسه عقلاً مستنيراً . . قادراً على الاستنباط . . وتنزيل الحكم على واقع يراه ويمارسه فعلاً . . مع وجود الرسول المؤيد بالوحي الأعلى . . وخير الخلق أجمعين .

*　*　*

القائد سعيد برسوله :

إذا كان من زعماء الدنيا من لا يطيق رؤية واحد من أتباعه متميزاً . قوى الشخصية . . خوفاً على منصبه أن تنتزعه القيادة المرتقبة . . ومن ثم . . يضع بين يديه العراقيل . . ليظل هو على القمة المدببة . . وحده . . إذا كان من زعماء الدنيا من يفعل ذلك . . فإن الرسول ﷺ يعطي الزعامة معناها الإنساني الرحب . حين يعلن سعادته باستقلال شخصية « معاذ » رضي الله عنه . . والذي سوف يكون له اجتهاده . الذي يواكب به ما يستحدث الناس من أقضية . . وليس هو « ساعي بريد » يحمل القيادة العليا كل صغيرة وكبيرة . . بينما يجمد هو في مكانه . .

وما أكثر القياديين اليوم . والذين ترى على محياهم ابتسامة الرضا من أتباع . . يطبقون بالحرف . . وبالطاعة العمياء ما يلقى عليهم . . من أوامر . .

ثم يحسون بعزة الآمر المطاع . . مع أنها عزة منهوبة من عزة مرؤسيهم . الذين سرقت منهم . . وهم يشعرون . . أو لا يشعرون . . ولن يكون للعزة المجلوبة طعم . . ما دام الأتباع قد صاروا أصفاراً على الشمال . .

وتلك عقبى الذين انكبوا أيضاً على لون معين من الكتب « ينقلون » منها ما طلب منهم أن ينقلوه . .

وسعد الأتباع المسخرون « بمتعة » التبعية التي لم تكلفهم أن ينشطوا ملكاتهم ليذوقوا طعم الاستقلال . . ومعنى الحرية . . وعليهم أن يزايلوا هذه النصوص الجامدة . . ثم ليتأملوا الطبيعة من حولهم تأسياً بالقرآن الذي أمرهم بالنظر إليها . . وسوف يجدون :

(أن في الشجرة آلاف الأوراق . . ولكن . . ليس بينها ورقتان متطابقتان . .
وكذلك ملايين الأشجار والطيور . .
والوجه الإنساني نفسه : فيه تكرار :

العينان . . الأذنان . . والشفتان . . والأصابع . . والأسنان . . وملايين الشعر والشعيرات . .

ولكنها جميعاً تختلف من إنسان إلى إنسان . .)

(وحسبنا تفكيراً برؤوس غيرنا .

حسبنا نظر بعيون أعدائنا . .

حسبنا تقليداً كتقليد القرود . .

ولنعد إلى أنفسنا . . إلى عروبتنا . . إلى إسلامنا . . إلى طهرنا وعفتنا)

* * *

الشخصية المسلمة :

فلنأخذ سبيلنا إلى العلم الذي تكتمل به الشخصية :

سئل ابن المبارك : مَنِ الناس ؟ فقال : هم العلماء .

ويعلق الإمام الغزالي على ذلك بقوله :

(أن ابن المبارك لم يجعل غير العلم من الناس . . لأن الخاصية التي يتميز بها عن سائر البهائم هي العلم .

فالإنسان إنسان بما هو شريف من أجله :

وليس بقوة الشخصية . . فإن الجمل أقوى منه .

ولا بعظم حجمه . . فإن الفيل أعظم منه .

ولا بشجاعته . . فإن الأسد أشجع منه . .

ولا بأكله . . فإن الثور أوسع بطناً منه . .)

ولكن الإنسان بإرادته . . بحريته .

* * *

طبيعة المدعو :

لا بد من معرفة طبيعة من تدعوهم . . حتى تطلب لهم الدواء الذي يناسب علتهم . . أما أن تواجه كل المنحرفين بدواء واحد . . فذلك هو القضاء على الدعوة التي تنحسر بفعل أبنائها . .

وقد وجه ﷺ « معاذاً » إلى (أنك تأتي أهل كتاب) : فهم أناس مثقفون . .

ولهم عقيدة سوف يستميتون في الدفاع عنها . .

ولهم كذلك دراية بالمراء . . والمناورة . .

فإذا كانوا يهوداً يزحمون « اليمن » يومئذٍ . . فقد بانت كل أبعاد القضية . . وعلى الداعية أن يستحضر كل أساليب الحكمة في مواجهة هذا الصنف المعقد من الناس .

* * *

وظيفة الداعية :

قال ﷺ « لمعاذ » رضي الله عنه :

« . . فإذا جئتهم . . فادعهم »

وإذن . . فوظيفتك : الدعوة . . يعني : بالكلمة . . وليس بالسيف . . فالداعية : عقل . . يتأمل . وقلب . . يتألم . . يشفق . . ولا يكره . . يتمثل أدب الدعوة في نفسه . . ثم لتخرج الكلمة من فمه . . وعليها من إحساسه المرهف شحنة تحرك القلب الهامد . وترشد العقل الحيران . . وعلى الداعية أن يفهم أنه : **مصلح اجتماعي . .**

(والاصلاح لن يصنعه جبابرة . بل ناس فضلاء بسطاء . صادقون . والله وحده هو مصلح الصالحين .

ولا يذهبن الغرور بأحد فيظن أنه يمكن أن يصلح العالم بضربة « شموخ » في يوم وليلة . . فتلك مراهقة سياسية .

فالننبذ العنف . . ولندع سياسة الاكراه على ما نريد من حقائق سوف تأخذ سبيلها يوماً . . متى صبرنا عليها . .)

وإلا . . فمن الذي هدم المعبد على رؤوس من فيه . . هناك في الاتحاد السوفيتي ؟ وهو يملك ترسانة نووية رهيبة . .

ومن كان يتصور أنه سيقال يوماً : الاتحاد السوفيتي « سابقاً » ؟!

فلننح العنف جانباً . . ولندرك التدبير الإلهي في القضية . .

والذي يقول الكلمة الأخيرة فيها من حيث لا نحتسب . .

بالإضافة إلى أن من تدعوه من المنحرفين . . ترى في كيانه علة . . وسوف يسقط يوماً . . بعد أن أكلت « القرضة » عصاه التي يتوكأ عليها .

* * *

إن الانفعال لدى بعض المتحمسين . . يجعل الإسلام في قلوبهم مثل « المثلث » قائماً على رأسه . . فهو قلق . . مضطرب . . فلا يستريحون . . ولا يريحون . . بينما الإسلام في قلوب المتعقلين مستقر في قلوبهم على قاعدته . . فهم مستريحون . . مستراح إليهم . .

وقد ذكروا أن واحداً من أتباع « المودودي » أوشك أن يأخذ في الجماعة دوراً قيادياً . . لكنه سمع يوماً من يسب المودودي . فطعنه بسكين . . فكان جزاؤه الفصل . . وخسرت الحركة عضواً كان من الممكن أن يكون سنداً لها .

* * *

التوحيد وسلم الأولويات :

وصى رسول الله ﷺ « معاذ » أن يبدأ مع القوم بكلمة التوحيد . . فهي الأساس . الذي تنبت عليه براعم غضة . . ثم تسمق فروع . . وتتبع أزهاراً . . . وتتدلى ثمار .

ولعل المتحمسين من أبنائنا يوجهون طاقاتهم المهدرة في غير ميدان إلى تعميق حقيقة التوحيد أولاً . . ثم يواصلون المسير على سنة التدرج . متسلحين بفضيلة الصبر . . وكل شيء بعد ذلك ممكن :

ويصبح الأمر على ما يقول القائل :

أننا نستطيع أن ننقل ماء البحر بالمصفاة . . متى ؟

لو أننا صبرنا عليه حتى يتجمد !!

يقول الدكتور سعاد جلال داعياً إلى سنة التدرج في تطبيق الشريعة :

(عاشت بلاد المسلمين سنوات طويلة تحت سلطان الكفار وحكمهم . فعملوا على إفقارها من ثرواتها المادية والأخلاقية والثقافية والروحية . ومسخوا كيانها الباطن والظاهر مسخاً . وعمقوا فيها أسباب الانحطاط والهزيمة . وعدم المبالاة بالأحداث والقيم . وابتذال الذات . ودسوا عليهم نفوذ عاداتهم وأخلاقهم وتشريعاتهم . ومقاييسهم في تقييم شؤون الحياة . فألفت نفوس أغلب المسلمين هذا كله . وأصبح انتزاعه منهم دفعة واحدة صعباً عليهم . بحكم ألف الجبلة . وتحكم العادات في النفوس .

وكان القول بفرض أحكام الشريعة على الناس في بلاد المسلمين غداة خلوصهم من قبضة الكفر وسلطانه لا يخلوا من خطأ . .

وإنما الطريق الصحيح لتحقيق هذا الغرض :

إنما هو التدرج في تنفيذ أحكام الشريعة . والبدء بما هو أخف . ثم الترقي لما هو أشق . شيئاً بعد شيء . مع الاخلاص لله ورسوله . والتنزه عن طلب الدنيا)

* * *

الخطوة الثانية :

ويجيء الأعلام بفرضية الصلاة والزكاة بعد ذلك . .

على أن تكون إرادة التيسير سارية في خطاب الداعية . . ولاحظ أنه ﷺ يقول لمعاذ :

« . . خمس صلوات . . في كل يوم وليلة »

وكأنما يقول له : دعهم يشعرون بما في التكليف من يسر . . فهي فقط خمس صلوات . . وعلى مدى الليل والنهار . . وإذن فما أيسر التكليف !

ثم ذكر الزكاة بلفظ الصدقة . . الدالة على صدق المؤمن . . الذي ينتصر على نفسه التي أحضرت الشح . . بحرمانها من بعض ما تملكه إسعاداً لغيرها . . من الفقراء الذين لا يتطفلون عليها . . وليكن إعطاؤهم لا من موطن الاستعلاء . . ولكنه الحق . . المعلوم . . العائد إلى أصحابه الحقيقيين كما يفيد قوله ﷺ : « **فترد على فقرائهم** » فكأنما أموال الأغنياء وديعة في أيديهم . . وينبغي أن تعود منها نسبة إلى الكادحين . . فهم الذين عرقوا في سبيلها . . وسهروا الليالي حتى جرى الخير نهراً يصب في ديار الأغنياء .

* * *

واقعية الإسلام :

يلاحظ أن الرسول ﷺ يصدر الأمر بحرف الشك « إن » . . وذلك قول : « **إن هم طاعوا** » ويعني ذلك الأسلوب :

ضرورة التريث حتى تختمر الحقائق في القلوب . . وتنضج . . حتى إذا جاءت الخطوة التالية كانت النفوس مستعدة لها . . بل متشوقة إلى الالتزام بها . .

ثم . . ليأخذ الداعية في اعتباره أن المهمة ليست سهلة . . وإنما هي في حاجة إلى جهاد موصول . . لا يصل إلى ما يريد . . لأنه في دائرة الاحتمال . . وعليه أن يصابر الأحداث ويقدر احتمال الفشل في مهمته . . حتى لا يصاب بالاحباط . .

* * *

ويحذره ﷺ من أخذ أعز أموالهم لديهم . . فراراً من إثارة غريزة التملك التي قد تثور مستمسكة بعزيزها . . أما إذا تقدم صاحب المال طائعاً بأغلى ما عنده . . فلا يأس حينئذٍ أن يتقبله طالما كان التبرع عن رضا .

* * *

الرفق . . حتى بالأعداء :

ويحذره ﷺ من الظلم . .

فالظلم في منطق الإسلام مرفوض . . مهما كانت ديانة المظلوم . . فمهما يكن الحق في جانب الحاكم . . فإنه مطالب بأن يكون رضى النفس . . رقيق القلب . . فتهفو إلى واحته أنفس حائرة . . بقدر ما تكون قسوة القلب مانعة من دخول الناس في دين الله تعالى . . أن المظلوم . . وإن كان كافراً علم أن له رباً . . فدعاه . . فكان ما أراد . . أن البحر الميت . . يكون شديد الملوحة . . ومن ثم . . تموت الأسماك . . وتحرم الأمة واحداً من أهم مصادر الطاقة فيها . . وكذلك القلب الميت . . الخالي من عواطف الخير :

أن الحب يموت فيه . . ومن ثم . . لا يكون صالحاً للحياة . . ولنتعلم من غيرنا : في بعض بلاد المسلمين . . يقول « المبشر » للمسلم المريض :

هل قرأت الفاتحة ؟

فيقول المريض : نعم قرأتها .

ثم يكشف عليه . . ويعطيه الدواء . . مجاناً . .

فإذا جاءه المريض بعد أسبوع قال له :

المسيح أرسل لك هذا الدواء . . فكان الشفاء . .

ومعنى ذلك أن قراءتك الفاتحة . . لم تغنِ شيئاً . . وأنها لفرصة ذهبية تمكن المبشر من فرض عقيدته في وقت استطاع فيه أن يطوق النفس بجميل تلمسه فعلاً . . وترى آثاره في حياتها .

* * *

معنى ضربه على صدره :

ضرب رسول الله ﷺ . . على صدر أبي ذر رضي الله عنه لما طلب الإمارة . . ولم يضرب على صدر عمه العباس رضي الله عنه لما طلبها . . احتراماً له . . مكتفياً بوعظه . . وها هو ﷺ يضرب على صدر معاذ وهو في قمة السرور لما بدت أمارات

توفيقه رضي الله عنه . . ولعلنا بهذه الملاحظة نقول لبعض المتحمسين المانعين من التصفيق أحياناً :

أن حركة الرسول ﷺ هنا تعبير عن انفعال قوي بالسرور . . لم تستطع الكلمات أن تعبر عنه . . فنابت عنها الحركة في الكشف عنه . . هكذا بلا ترتيب وإنما عفو الخاطر . . وأحياناً على الأقل . . يكون إعجاباً بالخطيب أو المصلح فوق الكلام . . فلا نملك إلا التصفيق . . الذي ينوب عنا في تفريغ شحنة الاعجاب !

* * *

وبعد :

فرضي الله عن معاذ . . وأسرة معاذ . .

الأسرة التي تعهدت شبابها . . وبناتها . . فكانوا للحق عوناً ونصيراً . . ولم تكن قصارى مهمة الفتى فيها أن يلبس زياً معيناً . . وأن يحفظ نشيداً منظوماً . ولا أن يأخذ أخته . . أو ابنة عمه بمنهج يجعل منها دمية . . لا تصلح إلا للعب . . ولكن همه الأكبر كان : صناعة الحقائق الإيمانية . . لا إبلاغها فقط . . ثم زرعها في النفوس بذوراً . . صارت من بعد حدائق غلباً . . فيها من كل زوج بهيج . .

إلى جانب أخته وابنة عمه التي كانت إلى جانبه تنصر الإسلام لا بالجدال . . بل بالسلاح . . ورحم الله أسماء بنت يزيد . . ابنة عم معاذ بن جبل (وكانت ممن حضر بيعة العقبة الكبرى) فهي التي قتلت يوم اليرموك تسعة من جنود الأعداء . . بعمود الخيمة . .

لم تقتلهم بمدفع . . ولا بصاروخ . . وإنما . . بمجرد خشبة . . لا يحسن القتل بها إلا من تدرب على القتال تدريباً . .

تلك آثارنا تدل علينا   فانظروا بعدنا إلى الآثار

* * *

روح الجهاد
في ضمير أمتنا

جاء في « أسد الغابة » :

« جليبيب » . . أنصاري . له ذكر في حديث « أبي برزة الأسلمي » حيث طلب رسول الله ﷺ زواج جليبيب » من ابنة رجل من الأنصار .

وكان قصيراً . دميماً .

فكأن الأنصاري . أبا الجارية . وامرأته . كرها ذلك .

فسمعت الجارية بما أراد رسول الله ﷺ . فتلت قول الله تعالى : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم** ﴾[1]

(وقالت :

رضيت : وسلمت . لما يرضى لي به رسول الله ﷺ .

فدعا لها رسول الله . وقال : « **اللهم : اصبب عليها الخير صباً . ولا تجعل عيشها كداً . فكانت من أكثر الأنصار نفقة ومالاً** » .

ثم . . أن رسول الله ﷺ . كان في مغزى له .

فلما فرغ من القتال قال :

« **هل تفقدون من أحد ؟** » قالوا : نفقد والله فلاناً وفلاناً . قال :

« **لكني أفقد جليبيباً** » .

فوجده عند سبعة . قد قتلهم . ثم قتلوه .

---

(١) الأحزاب ٣٦ .

فأتى النبي ﷺ . فأخبر فقال :

« قتل سبعة . . ثم قتلوه . . هذا مني . . وأنا منه » .

حتى قالها مرتين . أو ثلاثاً . ثم قال بذراعيه . . فبسطهما . . فوضع على ذراعي النبي ﷺ . حتى حفر له . فما كان له سرير إلا ذراعي النبي ﷺ . حتى دفن) .

* * *

تمهيد :

المسافة بين الظواهر والجواهر بعيدة . . بعيدة . .

ولا تستطيع بالعين المجردة أن تنفذ من الظاهر إلى ما في القلب من جواهر . . ولا بد من البصيرة التي لا تخدعها القشرة الظاهرة والتي لا تكتفي بها . . وإنما تغوص في الأعماق . . لتستخرج منها اللؤلؤ والمرجان . . مما يحفل به قلب الإنسان .

ومن هنا كان الاقتصار في الحكم . . على ما يبدو من ظاهر الإنسان ظلماً مبيناً . . ظلماً للحق . . وللإنسان نفسه . .

وكم من معانٍ جميلة تمر علينا . . فلا نستوقفها . . ولا نتذوقها . . لأنها تمر علينا في ثياب بالية . . فلا تستلفت أنظارنا . .

والبطولة الحقيقية . . قد تكون منا على مرمى حجر . . بل بين أيدينا . . ولكننا لا نكتشفها . . لأنها في كيان رجل مغمور . . مثل « جليبيب » رضي الله عنه . .

وإذا كانوا في الغرب يعمدون إلى « ممثلة » داعرة . . فينظمون باسمها نشيداً . . ويجعلون من يوم ميلادها عيداً . . بل ويعرضون عليها مئات الملايين لتسمح بلصق صورتها على طائرة . .

إذا كانوا يفعلون ذلك . . فما أحرانا أن نحتفظ للبطولة بحقها . . في البحث عنها . . ثم استثمارها لحساب الحق . .

* * *

مقياس الزعامة :

إذا كان من زعماء الدنيا من هو مشغول بمجده الشخصي . . بالسطو على حق الآخرين في الكرامة التي ينهبها ليضيفها إلى حسابه ظلماً وعدواناً . . ولو بقي الآخرون عراياً . .

إذا كان من الزعماء من هم كذلك . . فقد كان رسولنا ﷺ طرازاً آخر : يعيش مع الضعفاء . .

يعيش معهم لا بمشاعر الاشفاق عليهم فقط . . وإنما بمشاعر التقدير التي تفجر في قلوبهم معاني البطولة والوفاء :

قال ﷺ :

« **ابغوني في ضعفائكم : فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم** »[1]

وهكذا . . لا ينعزل الزعيم مع الصفوة هناك . . في غرفة العمليات . . وإنما هو مع البسطاء الذين يذكرونه بالله تعالى . . والذين تعمر قلوبهم بالخامة التي تطلب الزعيم الحق . . ليكتشفها . . ثم يطلقها تسري في مرافق الأمة عملاً وابتكاراً . . وانتصاراً .

* * *

فطرة الإنسان وفطرة الكون :

ولقد كان ﷺ متجاوباً مع فطرة الكون :

لقد كان « جليبيب » . . هكذا . . بلا أب معروف . . ولا أم . . ولا عشيرة . . رجل معتوه . . يتسلى به صبيان المدينة . . ثم هو في نفس الوقت ملهاة لقريباته من نساء الأنصار !

وكان مع ذلك : دميم الوجه . . قصير القامة ؟!

ولكن الزعيم الحق . . يترك الناس يقفون عند القشرة الظاهرة . . محجوبين عن رؤية اللآلئ في الأعماق . . ثم يخرج عليهم بتقدير « جليبيب » . والتنبؤ بمستقبله . . ومنسجماً في ذات اللحظة مع ما فطر الله تعالى عليه الكون من رعاية للضعيف . . ليحيا وليخرج من الضعف قوة تقلب حسابات الواقفين لدى عتبة الدار !!

يقول ابن القيم :

(اللطف مع الضعف أكثر :

فتضاعف ما أمكنك ! :

لما كانت الدجاجة لا تحنو على الولد . أخرج كاسباً .

---

(١) رواه الترمذي وأبو داود والنسائي .

ولما كانت النملة ضعيفة البصر . أعينت بقوة الشم . فهي تجد ريح المطعوم من البعد .

وكما كانت الخلد ـ نوع أعمى من الجرذان ـ كما كانت عمياء . . ألهمت وقت الحاجة إلى القوت أن تفتح فاهاً . فيبعث إليها الذباب . فيسقط فيها . فتتناول منه حاجتها)[1] .

* * *

أساس تقدير الإنسان :

لقد بدا « جليبيب » بمقياس العرف الاجتماعي السائد . . مسلاة ملهاة . . بهذا القصير . . الدميم . .

ولكن القيادة المؤمنة تستشعر من بعد ما وراء هذه القشرة المانعة :

لقد رأت فيه خصائص الانصار التي نوه بها القرآن . .

وإذا يحاسبه مجتمعه على دمامته وقصره . . فالحساب ظالم لأنه أدانه بشيء لم يستشر فيه . . ولكن الحساب العادل . . ما يكون على شيء يدخل في اختياره . . وهو ما سوف يسفر عنه الغد القريب وعندما يلتقي الجمعان .

* * *

حق الحياة لمن يسعدون الحياة :

وإذ يستشعر ﷺ ما في قلب « جليبيب » من عناصر الخير . . فإنه يستشعر في نفس اللحظة حقه في أن يعيش . . رب أسرة مكرماً . . من أجل ذلك يدخل طرفاً في قضية زواجه . .

لكن والد البنت وأمها محجوبان معاً عن رؤية ما في باطن « العروس » من جنات وعيون . . من مكرمات دل عليها اختياره ﷺ لها . . لتكون له شريك حياة . . ورفيقة عمر . .

ولكن المكرمات قليلة العشاق . .

فقد رغب أبوابها . . عنه . . وهو منعطف خطير وضع البنت في مأزق تناوشها فيه عوامل من برها لهما . . ثم ما يفرضه الإسلام من اتباعها رسول الله ﷺ . . ولكنها

---

(١) بدائع الفوائد ج ٣/٤/٣٣٤ .

لم تتردد طويلا . . وآثرت أمر رسول لله : وإذا كان أخوها الشاب المؤمن على جبهة القتال ينطلق إلى ملاقاة الأعداء قائلاً :

لا تخفر ذمة رسول الله وأنا حي . .

فكذلك هي تقول :

لا أرد رغبة رسول الله . . ما دام في عرق ينبض . وأنفاس تتردد .

* * *

زوجة المستقبل :

وتبدو الفتاة هنا مثلاً أعلى لكل راغب في بناء عش الزوجية المأمول :

إنها لم تكتف بحفظ القرآن . .

ولكنها تفهمه . . بل وتحسن الاستشهاد بالآية في مجالها . . ويبدو إيمانها بالله ورسوله من القوة بحيث وضعها وجهاً لوجه أمام أبيها وأمها . . ويا لها من معركة باهظة التكاليف . . لأنها غير متكافئة القوى .

ولكنها انتصرت حين اتخذت من الآية الكريمة ردءاً لها . .

ثم زادت على ذلك كله . . خطابها الشديد اللهجة لوالديها :

(أتردون أمر رسول الله ﷺ . .)

ثم اتخذت قرارها الحاسم :

فأطاعت رسول الله ﷺ . .

بل رضيت نفساً بما اختار لها . .

بل كانت واثقة بالنتائج العظيمة من وراء أمر رسول الله ﷺ . . فكانت جديرة بهذه الدعوة المباركة من رسول الله ﷺ :

أن يكون الخير نهراً جارياً بين يديها . .

وأن يحميها تعالى من منغصات العيش . . كفاء ما قدمت من تنفيذ أمره ﷺ بينما « العروس » لا يبشر مظهره بشيء من متعة ترجوها كل فتاة في مقتبل عمرها .

* * *

الفتاة في مواجهة المجتمع :

علمت الفتاة مجتمعها درساً لا ينساه :

لقد نسي المجتمع أن « جليبيب » شاب في قلبه بذرة التوحيد . . وإذا بدا

للناس معرى من الأوراق في فصل الخريف . . فإن ذلك لا يمنع من أن يظل محتفظاً بعناصر الخصوبة والنماء . . وسف تنبت على فروعه أوراق . وأزهار . . وثمار . .

وإذا كـان مغموراً مقهـوراً مدفوعاً بـالأبواب . . فـإن ذلك لا يخفي حقيقـة صلاحيته ليكون قيادياً متى وجد العقل الذكي يكتشفه . . والمجال الحيوي الذي يبرز مواهبه . . وكأني بها تهتف بما قرره المربون القائلون :

أطيب الشجر ما كان :

أ ـ وافر الثمر .

ب ـ دائم الأكل .

جـ ـ ممتد الظل .

د ـ لا يحتاج إلى جهد في رعايته .

وكذلك كلمة التوحيد :

فهي :

أ ـ دائمة العطاء . غزيرته . .

ب ـ يأوي إليها الحران .

جـ ـ وهي ليست كذلك لأنها حروف . وكلمات . . ولكن . . لأن صاحبهـا يمزجها بدمه . . ويعطيها كل مشاعره :

فهي كالنواة : فيها شجرة كامنة :

ولكن لا بد من التربة التي تنضجها . .

على أن لكل إنسان نصيبه منها على قدر طاقته :

فمنهم من يفيء إلى ظلها . .

ومنهم من يأكل من ثمرها . .

ومنهم من يمر من تحتها . .

* * *

ولقد كانت الأسرة هي تلك الأرض التي تنضج ما في قلب « جليبيب » وهكذا تنبـأ الرسـول ﷺ . . وما كـان لمؤمن ولا مؤمنة أن تكـون لهم الخيرة . . بعـد ما اختار ﷺ .

* * *

غياب المقياس الحساس :

ولقد غاب هذا الميزان الحساس من حياتنا في تقدير الأشخاص . . وخاصة في مجال اختيار الرجل المناسب للبنت وهي ضعيفة التكوين . . وأولى بالرعاية من أخيها القادر على تدبير شؤونه بنجاح . .

ثم صار الأمر على ما يقول بعض المربين هنا :

مجدنا الأشخاص بذواتهم . . فصاروا هم المثل الأعلى . .

والمفروض أن نعجب بهم كممثلين للمثل الأعلى . .

لقد قدس الأولون العدل . . في الرجل العادل . .

ولم تقدسوا العادل بذاته . .

وقدسوا البطولة في البطل . . لكنهم لم يقدسوا نفس البطل .

فبقي البطل في حجمه الطبيعي عرضة للنقد إذا انحرف . . بقدر ما ظل في المجتمع الذي يقدس البطل نفسه فوق النقد والمساءلة . . ومن آثار ذلك :

أن الفرد في مثل هذا المجتمع : ينظر إلى الأمور والناس نظرة جزئية :

فيسقط تاريخاً حسناً لرجل . . لأنه أخطأ مرة واحدة !

وبالعكس : يسقط تاريخاً حافلاً بصور الشر . . من أجل صواب واحد[١] !

* * *

صدق نبوءة الرسول :

وصدقت نبوءته ﷺ . وهو المؤيد بالوحي الأعلى :

وها هو ذا الإيمان يعلن عن نفسه في شخص جليبيب الذي كان بالأمس مسلاة . . وملهاة ! ها هو ذا ينقض كالصقر على صفوف المشركين فيقتل منهم سبعة !!

وإذا كان قد قتل . . فإنه يعلم الأمة كيف يضحي المسلم بروحه . . لتبقى الأمة عزيزة الجانب مرهوبة القوة . . ما دامت باذلة أموالها وأنفسها . .

ولا يمكن لأي كان تعليق مهما كان بليغاً أن يبرز حجم الدور الحقيقي للبطل هنا . .

ولنترك فعله هو . . يعلن عن نفسه . . فهو أبلغ من كل مقالنا !

* * *

---

(١) راجع مقومات الشخصية المسلمة د . ماجد الكيلاني .

ثمرة الإيمان :

سيبقى « جليبيب » الذي فاجأ الأمة بحقيقته . . سيبقى عنوان الإيمان وما يمكن أن يفعله في الواقع . . مؤكداً غفلة الأمة الإسلامية على مدار التاريخ عن مواهب كثيرة تغيب . . ولا يحاول أحد اكتشافها . . وهو يطالبها اليوم أن تفهم دور الإيمان بالله تعالى في العودة بالأمة إلى سالف مجدها . . لتعتصم به في معترك المذاهب . . وليكون أساس التربية . . وطوق النجاة . حتى لا تتسول نظرية التربية . ونحن بالإيمان أغنياء .

يقول المرحوم الدكتور سعاد جلال :

(يجب أن نلاحظ دائماً أن الإيمان مركب من عنصرين . هما اللذان يكسبانه أهميته الذاتية المتعاظمة :

أحدهما : القدرة على الإيمان . .

فليس كل أحد قادراً على الإيمان .

وثانيهما : تعلق الإيمان بمثل رائع . أو حقيقة كبيرة ضخمة كالإيمان بالله تعالى :

إن خاصية الإيمان الصادق هي : تجافي المؤمن بنفسه عن النظر لمواطن الرغبة والرهبة . فلا يغريه المطموع فيه . ولا يزعجه المحذور منه .

وإن الإيمان الصادق هو أساس تربية الأمم :

إذا تعلمت الأمة أن تؤمن . وحصلت لها هذه الفضيلة النفسية الرائعة .

استطاعت بفضيلة القدرة على الإيمان أن تصل إلى كل شيء :

إن بعض الأمم مصابة بالعجز عن طبيعة الإيمان . . فهم مفتتة الرأي . مبعثرة الإرادة . مخربة من الأعماق .

مسلوبة بهذا التخريب من الحصول على أداة الإيمان . . الإيمان من حيث هو إيمان : فهي لا تملك أن تؤمن بشيء . . بأي مثل . . بأي عقيدة . . بأية حقيقة . . فكل الأمور عندها تشبه أن تكون متساوية في الاهمال وعدم الاكتراث .

إن هذه الأمة لا يرجى لها حياة . ولا يؤمل لها صلاح .

ليست مشكلة تربية الأمة على الحقيقة هو ما تؤمن به من حق أو باطل .

وإنما مشكلتها الرهيبة هي : فقدانها القدرة على الإيمان بشيء ما . وهذا ما أصيبت به الأمة الإسلامية في عصورها المتأخرة .

فكان أكبر أسباب تخلخل ركائز وجودها . وأفعل أسبابها انهزاماً)

* * *

صناعة الإيمان وصناعة الترف :

إذا كان المؤمن يعيش للناس أملاً . . فإن الكافر يعيش بهم فساداً . . ولقد كان « جليبيب » واحد من الذين منحهم الحق تعالى القدرة على الإيمان . . بهذه العسكرية الأبية . . فحقق أمل الأمة في النصر المبين . . ولم يسقط مدرجاً بدمائه حتى قتل من صناديدهم سبعة رجال . .

وكانت نهايته شهادة صدق على قدرة الإسلام على صنع الرجال . .

ثم على ما يفعله الترف بالأمة من استرخاء الإرادة وخور العزيمة . لنظل دائماً مسلحين بهذه العسكرية الأبية . . مباهين بها أمماً تحاول اليوم أن تطمس معالم القوة في الإسلام . . بينما هم من الترف في الموقع الأدنى . . وأين الفارغون من طاقة الإيمان . .

إزاء جيش صاغه الله تعالى من مثل جليبيب ؟ .

(لقد استغرق الترف هناك كل قوى الإنسان العامة . الواعية . واستنزفها في الشهوات . فلم يبقَ في النفس موضع لتقبل الحق . ولا فهم الخير . ولا إدراك الحسن في الاستقامة على الصراط المستقيم . ولا مقدار الإحساس بقبح الكبرياء والشر والإفساد . . عند هؤلاء المترفين) .

* * *

القائد يتفقد جنوده :

لا يمكن لأمة أن تنهض . إلا بحسن الإدارة . . وحسن اختيار الأعوان . . واكتشاف المواهب الغائبة . . أو المغيبة . . وهكذا يعلمنا ذلك المشهد الآسر : لقد كان ﷺ المثل الأعلى في هذا الباب . . فقد اختار رجاله . . وها هو ذا يسأل عنهم بعد المعركة . .

وبينما راح رجاله يبحثون عن الأسماء اللامعة . . كان هو مشغولاً بالجندي المجهول . . الذي لم يعرفوا سره . . ولم يسبروا غوره . . حتى إذا حمي الوطيس :

أظهر في الشدة . . قدره . . يوم أن اطلع في الظلمات . . بدره ! . . ثم انسرب كالضيف . . أو كالطيف . . هناك إلى جنة طابت ظلالاً . . وانسساماً . . وأصداءً . . ونداءً . مخلفاً من ورائه عملاً يدل بنفسه على عظمة صاحبه وإن لم يعرفه

أحد . . وإن لم يزين صدره وسام . . وكأنما يقول للأجيال : سيروا على نفس الطريق . . والنصر معكم . . وإن تأخر قليلاً . . وإن زها الباطل بعدده . . وعدده . . فالعبرة بالخواتيم :

في القادسية هزمت الفيلة الضخمة أمام البعير . .

وفي اليرموك : هزم القوس والنبل . . السيوف البواتر . .

لأن راكب البعير . . وحامل القوس . . كان ينطلق من قلب مؤمن . . وإرادة من صنع الإيمان . . وأين منه صاحب الفيل . . الذي لا يحمل في صدره قلباً . . ثم هو حريص على الحياة . . فهزمه من كان حريصاً على الموت !

* * *

عندما يفرح القائد العظيم :

ولقد سعد ﷺ ببطولة « جليبيب » . .

وهكذا يكون القلب الكبير :

أنه ليفرح بالأداء المتميز لجنوده . . ويفسح لهم الطريق ليصلوا إلى ما يستحقرون من علو وسمو .

ولئن كان يسعده أن أمره الله تعالى بأن يبدأ قوماً بالسلام . . وقال :

« **الحمد لله الذي جعل في أمتي من أبدؤهم بالسلام** » . إذا سعد بذلك . . فكم تكون سعادته « بجليبيب » الذي دوخ الله به الطغاة . وأذل بسيفه الشرك . .

* * *

فلنفهم الدرس :

إننا مدعوون إلى البحث عن المواهب المطمورة في زحمة الناس . . فما أكثر أمثال « جليبيب » فينا . . فلننح القشرة البادية . . فقد يكون وراء الأكمة أسود . . لقد كان « جليبيب » قصير القامة ـ لكنه أطال رقبة المسلمين . .

وكان دميم الخلقة . . لكنه جمل وجه تاريخنا بإكليل النصر . . وكان نكرة . . فصار بانتمائه إلى دوحة النبوة . . من الخالدين . . ولقد انعكس من هذا الشرف قبس على زوجته الوفية . . فعاشت من بعده . . غنية . . أبية . . وهي من ذكراه في قرار مكين .

* * *

وبعد :

فقد كان كل شيء حول « جليبيب » يحطم العبقرية . . ويقتل النبوغ . ويحجب بريق البطولة فلا تبين . . ولكنه مع ذلك شق الطريق . . ونفض عنه غبار التجاهل . . وفرض احترامه على مجتمع أسقطه من حسابه . . حين جعل منه مسلاة وملهاة . .

ولئن سكت التاريخ فلم يفسح له في صفحاته مكاناً بارزاً . .

فإن أمتنا جعلت من قلوبها مكاناً علياً . . يقتعده . . ولئن لم تستمتع به زوجته كما استمتعت زميلات لها بأزواجهن . . فيكفيها شرفاً أنها أطاعت رسول الله ﷺ . منحية رغائب نفسها كأنثى . .

ويكفي أنها صارت . . زوجة البطل ! وإلى الأبد .

اختيار
صادف أهله
شرف الجهاد

في غزوة أحد قال رسول الله ﷺ : « **من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ . .** » فقام إليه رجال ، فأمسكه عنهم ، . . حتى قام « أبو دجانة » فقال : وما حقه يا رسول الله ، قال : « **أن تضرب به العدو حتى ينحني . .** » قال : أنا آخذه بحقه يا رسول الله ، فأعطاه إياه . . وقال الزبير بن العوام بعد ذلك : وجدت في نفسي حين سألت رسول الله ﷺ ، السيف فمنعنيه . . وأعطاه أبا دجانة ، وأنا ابن صفية عمته . . ومن قريش . . وقد قمت إليه فسألته إياه قبله . . فأعطاه إياه . . وتركني . . والله لأنظرن ما يصنع . . فاتبعته . . فأخرج عصابة له حمراء ، فعصب بها رأسه . فقالت الأنصار :

أخرج أبو دجانة عصابة الموت . فخرج وهو يقول :

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل
ألا أقوم الدهر في الكبول أضرب بسيف الله والرسول

وقال رسول الله ﷺ حين رأى أبا دجانة يتبختر : « **إنها لمشية يبغضها الله . . إلا في هذا الموطن . .** » .

* * *

صور مشرقة للفداء :

عندما هزم المشركون في بدر على أيدي المسلمين المجاهدين . . مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية ممن فقدوا أبناءهم وآباءهم في بدر . . تدفعهم غرائز الانتقام . . في محاولة لتسليح الجيش ، ولم الشمل من جديد . . لإنقاذ الكرامة المضيعة . ويصور القرآن الكريم هذا بقوله سبحانه : ﴿ **إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم**

تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾ .

ولم يكن المسلمون ـ وفي طليعتهم الشباب ـ في حاجة إلى من يثير في صدورهم جذوة الحماس إلى استئناف القتال من جديد . . فقد جاشت نفوسهم بأشواق عارمة إلى ساحة النضال .

وإذا كان المشركون هناك في دوامة النقاش . . يغلبون الرأي حول ضرورة التجمع لضرب المسلمين . . وإذا تبجح اليهود فهونوا من شأن انتصار المسلمين في بدر . . زاعمين أن لقاءهم غداً سوف يثبت أنهم وحدهم الناس . . الذين يجيدون صناعة الموت . . إذا كان الأمر كذلك فقد كان المسلمون على الجانب الآخر . . يتسابقون إلى الموت . . كما يتسابقون إلى الحياة !! . على صورة من الفداء تبهر التاريخ بألوانها .

* * *

شمس لا تنطفىء :

ومن أبرز هذه الصور ما نحاول تأمله اليوم . . حين يتدافع الصحابة بالمناكب حول قائدهم ﷺ . . لينالوا شرف الجهاد في سبيل الله .

وعندما يقع اختياره على رجل يكلفه بمهمة فدائية . . فإن فرحته بهذا الاختيار وسروره بهذا التكليف لا يعادلها سوى الأسف الشديد في صدر زميل له . . فاته ذلك الشرف العظيم !!

إن أبا دجانة لم يستطع أن يخفي سروره بدوره الخطير . . ففاض البشر على جوارحه التي تختال تيهاً وفخراً . . وليرى أعداءه من نفسه قوة .

فإذا علمنا أن دوره الخطير قد يكلفه حياته . . برزت أمامنا روعة الفدائية التي صاغها الإيمان . . والتي تزري بشائعات اليهود حول قوتهم المزعومة . . في محاولات يائسة لإطفاء الشمس في كبد السماء . .

هذه الشمس التي لا تنطفىء أبداً . . كيف لا . .

ومن ورائها مدد من الزيت المبارك .

* * *

الشوق إلى الجنة

وحينما نقترب من الموقف نطالع من دقائقه ما يبهر الأبصار :

فالقائد هنا لا يفرض الدور على الجندي . . لكنه يفتح مجال الاختيار أمام كل جندي يثق بنفسه .

وإذ يقول ﷺ متسائلاً : « **من يأخذ هذا السيف بحقه ؟** » . . فإنه يستدعي بالتساؤل مواهب الصحابة . . ويوقظ عزائمهم ، لتنهض للقيام بدورها ما دامت تحس في نفسها قدرة عليه . .

وكانت ظاهرة صحية أن تسابق الرجال استجابة لتساؤل أثار فيهم الشوق إلى الجنة . . وفي مقدمتهم ابن عمته : الزبير بن العوام .

ويمسك القائد سيفه عن هؤلاء جميعاً ، ثم يؤثره أبا دجانة الذي سأل عن حق السيف حتى يراجع نفسه . . ويتحقق من قدرته على الوفاء بحقه . .

حتى إذا أحس نفسه بالقدرة ، هب على الفور كأنما نشط من عقال . . وتقدم ليحمله . . في صحبة أمل عظيم في الله تعالى أن يكون عند حسن الظن به . . لا سيما بعد أن منع الجميع منه . . دون .

* * *

دور الجندي المسلم :

وأنها لفرصة حبيبة إلى نفس الفدائي أن يضرب العدو حتى يحصد بالسيف رأسه . . فيوفيه حسابه . .

وقد كان في عرض الرسول ﷺ : ما يكشف عن دور ذلك الجندي المسلم في

معركة تجيء عقب انتصار بدر . . وما يفرضه ذلك من فدائية لا بد منها إذ يبلغ الصراع حينئذٍ ذروته في معركة حياة أو موت . .

ولا بد إذن من الجندي الجسور . . في معركة لا مكان فيها للخائف الحذر .

وكان هذا التسابق الواضح دليلاً على ارتفاع الأمة إلى مستوى مسؤولياتها . . وإدراكها لطبيعة المعركة في أحد . .

* * *

قيم أصيلة :

وهذه القدرة العسكرية التي زكاها الإيمان . . وتعهدها القائد العظيم لا تحجب أبصارنا عن التحول الاجتماعي الكبير ، وعن جوهر التربية المحمدية الرامية إلى تغير المفاهيم الخاطئة حتى بين يدي المعارك التي تشد إليها الانتباه . . ولا تبق اهتماماً بما سواها . .

وما كان للجيش أن ينتصر أبداً ما لم يكن له سند من قيم أصيلة يقيم كيانه عليها . . هذه القيم التي تبدو في موقفه ﷺ من ابن عمته الزبير :

فابن عمته غاضب . . لأنه تجاوز إلى الأجنبي !

مع أنه ابن عمته . . ثم هو من قريش . . بالإضافة إلى أنه قد سبقه إلى طلب السيف ؟! . . فلماذا لم يؤثره به ؟! . .

فانظر كيف كان العرض النبوي الحكيم فرصة ذهبية . . تعلن فيه الطبائع عن نفسها . . بما تظهره من مكنون سرها . . ولولا حكمة الرسول في الاختيار لما ظهرت هذه الأسرار . . لكنها تبدو . . ثم تلاحق بالعلاج والتقويم .

* * *

مقياس الاختيار :

ويحمل أبو دجانة سيفه . . ثم يمضي في جو نزيه عادل . . فمعاني القرابة . . والانتماء . . والأولوية . . كلها . . بمقدار ما يبذل الأنسان من نفسه . . فالمعركة أولاً والمعركة أخيراً .

إن قربك لإنجاز المهمة . وانتماءك للمعركة . . هو وحده مقياس الاختيار . . وهو وحده مناط الحكم لك . . أو عليك . .

وإذا كانت هناك أسماء لامعة . . تحاول فرض نفسها . . والاستئثار بموقف ما . . فإن بين الجماهير الغفيرة جنوداً بواسل . . يراهم القائد الملهم . . وإذا لم يكن الناس يعرفونهم فيكفيهم شرفاً أن « الله » عز وجل يعرفهم ببلائهم في المعركة . .

ويدخر لهم مقعد صدق عند مليك مقتدر . . كفاء ما يقومون به من جهاد . .

فالمعركة وحدها هي التي تبرز الكفايات . . لأنها وحدها مقر الامتحان العسير . . الذي لا يكتب المرء فيها تاريخه بقلمه . . ولكن . . بدمه . . وعرقه ! . .

* * *

كفايات نادرة

وهكذا نرى في موقفه ﷺ فراسة المرء من الذي ينظر بنور الله تعالى : لقد كان قلبه أكبر من ساحة القتال على اتساعها . . فاستوعب به ما حوله . . ومن حوله . . ثم وازن . . واختار . . فأتاح بالاختيار فرصة برزت فيها كفايات نادرة . . كان من الممكن أن تعيش أيامها في الظل بطاقاتها المعطلة التي لم تكتشفها يد صناع ! . .

ولا شك أن ابن العوام يدرك هذه المعاني جيداً . .

وما كان له أن يضيع عمره في نقد لاذع يستهدف به القائد وجنده . . أو في هجوم موصول على موازين المجتمع الذي لم يحقق رغبته . .

* * *

ثقة بالنصر :

بيد أنه يحاول مخلصاً أن يتحسس مواطن القوة في أبي دجانة والتي رشحته لحمل السيف دونه . . ليحاول مثله الوصول . . ثم أنه كجندي مثله مشغول بالنصر الذي يسره أن يتحقق على يد أبي دجانة أو على يده هو . . المهم . . أن ينتصر المسلمون . . ويخذل المشركون . . وليكن ما يكون !!

ويكتشف ابن العوام أحقية أبي دجانة بشرف الاختيار :

لقد راه حبه للحرية . . وتغنيه بها (ألا أقوم الدهر في الكبول) . . في القيود . . الحرية المحكومة بشريعة الله عز وجل . . المستهدفة سعادة الإنسان حيثما كان وليست هي الفوضى التي يروج لها أدعياؤها . .

وما أجمل أبا دجانة وهو يمشي تياهاً فخوراً بما يملك من ثقة بالله . . وفرح

بالجهاد في سبيله .. وأنها لمشية تستحيل في حلوق الأعداء غصة تشل حركتهم .. وتطأ من من كبريائهم ..

بقدر ما تعلي قدر المسلمين .. وترفع من معنوياتهم ..

وهو ما تحقق فعلاً عندما هزم المسلمون في أحد .. لكن نفوسهم بقيت متماسكة في أحلك الظروف بيقينها بربها .. وثقتها بنصره المبين الذي إن لم يكن اليوم فغداً ..

* * *

اليقين والزهد :

وبعد :

فقد قال ﷺ : « **نجا أول هذه الأمة باليقين .. والزهد .. ويهلك آخرها بالبخل والأمل** » .. وما حدث من أبي دجانة صورة من صور هذه النجاة التي كانت سمة العصر النبوي كله .. والتي كانت تستمد قوتها المعنوية والمادية من روافد اليقين ..

والزهد في الدنيا وما تحفل به من أسباب التفرق والنزاع ..

الذي يمتص من جسمها العافية ..

والأمة الإسلامية مطالبة اليوم أن تستلهم عزها من تاريخها المجيد ..

بالتخلق بأسباب النجاة كما تحدث بها رسول الله ﷺ : « **إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً** » .

* * *

رجال بلا نسب
يبلغون بالإيمان أعلى الرتب

(كان « أسلم الحبشي » راعياً ليهودي : يرعى غنماً له .

ومن حديثه ما رواه إسحاق بن يسار[1] :

أن راعياً أسود أتى رسول الله ﷺ . وهو محاصر لبعض حصون خيبر . ومعه غنم كان فيها أجيراً لرجل من يهود . فقال يا رسول الله : أعرض علي الإسلام . فعرضه عليه فأسلم .

وكان رسول الله ﷺ لا يحقر أحداً يدعوه إلى الإسلام . فعرضه عليه فقال الأسود :

كنت أجيراً لصاحب هذا الغنم . وهي أمانة عندي . فكيف أصنع بها ؟ فقال رسول الله ﷺ :

« اضرب في وجوهها . فإنها سترجع إلى ربها » . فقام الأسود فأخذ حفنة من التراب فرمى بها في وجوهها . وقال :

ارجعي إلى صاحبك . فوالله لا أصحبك . فرجعت مجتمعة . كأن سائقاً يسوقها . ثم تقدم الأسود إلى ذلك الحصن . ليقاتل مع المسلمين . فأصابه حجر فقتله . وما صلى صلاة قط .

فأتى به رسول الله . فوضع خلفه . وسجى بشملة كانت عليه .

والتفت إليه رسول الله ﷺ . ومعه نفر من أصحابه .

---

(١) أسد الغابة ج ١/٩٢ .

ثم أعرض إعراضاً سريعاً . فقالوا يا رسول الله : أعرضت عنه . قال : **« إن معه لزوجته من الحور العين »** .

* * *

تمهيد :

تنحصر مهمة الداعية أولا في :

أ ـ تجلية الحق على نحو تصير به حقائق الإسلام كالشمس الطالعة .

ب ـ تنحيه الأشواك من طريقه :

الشبهات . . التي تناوش العقل . .

والشهوات التي تهارش القلب . .

جـ ـ الإشراف والمتابعة . . حتى يخرج الزرع شطأة . . ثم يستوي على سوقه يعجب الزراع . . ويغيظ به الكفار . . الذين قد يرمونه بالحجر . . لكنه من علياته ليمنحهم أطايب الثمر . . فإذا هم من الحق بين واحد من أمرين :

إما أن يأخذوا طريقهم إلى الإيمان . . وإما أن يذهبوا إلى ما يستحقون من هوان .

* * *

وهكذا فعل ﷺ :

فقد عرض حقيقة الإسلام ببساطة . . وبلا تعقيد . . ثم وصل بها إلى الكفور . . والنجوع . . وعبر الصحراء المترامية . . لتصل إلى هذا الراعي . الأمي . . البسيط . . واضحة . . وبلا عوائق .

فلم يكن ليحمل أحداً على الإسلام حملاً . . كما أنه لم يتخذ من الدعوة سلعة تعرض في الأسواق . . في زحمة المساوماة . . والخداع . . والصراع . وبهذا الأسلوب الحكيم أعلن « أسلم » إسلامه .

فمن هو أسلم هذا الذي صار واحداً من أتباعه ﷺ ؟

« أسلم » بلا والد . . ولا والدة .

* * *

تأملت ما جاء في « أسد الغابة » فوجدت قبله « أسلم بن أوس » و« أسلم بن بجره » و« أسلم بن جبيره »

أما صاحبنا فهو : أسلم . . فقط . . بلا جذور . . وبلا فروع !

وقلت حسناً : فلنواصل المسير معه إلى نهاية الرحلة . . لنرى في شخصه رجالاً بلا نسب . . يصلون بالإيمان إلى أعلى الرتب . . ولئن كان له زملاء على طريق الإيمان . . يتسمون باسمه . . وهم بنسبهم في نقطة الضوء . . ولهم في التاريخ ذكر . . واهم في المحافل مكان . . فقد تبوأ هو مكانه العلي بين هؤلاء جميعاً بسيرته العطرة . . وموقفه العظيم . . .

ولئن قصرت لحظات إيمانه . . فقد أطالها بإيمانه الذي ولد قوياً . . والذي حفر له في القلوب ذكرى . . لا تموت . .

وجعل من هذا الموقف منارة على طريق الإيمان تبرز بركة الإيمان عندما يأوي إليه إنسان .

* * *

من هو أسلم :

إنه واحد من عامة الناس . . كأخوة له من قبل :

صهيب . . الأبيض . .

وسلمان . . الأصفر . .

وبلال . . الأسود . .

إنه الراعي الأسمر . . جاء من إفريقيا إلى آسيا . . وتعاقد مع يهودي على أن يرعى له غنمه . .

ولعل طبيعة المهنة . . وطبيعة صاحب الغنم تشكلان معاً صعوبة المهمة : بين غنم تحتاج رعايتها إلى صبر . . ومرونة . . وحكمة . .

وبين يهودي ربما استغل خبرته بثمن بخس دراهم معدودة . . وكان فيه من الزاهدين . . أو من المعاندين .

فإذا أضفنا إلى ذلك إحساسه بالغربة في بلاد بعيدة . . إلى جانب وحدته بلا أغصان متشابكة من أبناء العمومة والخؤولة . . تبين لك إلى أي حد كانت قسوة الظروف . . التي كان من شأنها أن تجمد في كيانه كل رغبة في الطموح . . راضياً من الغنيمة بحفنة الغنم التي صارت في دنياه كل ما يتمناه .

* * *

معنى اللقاء :

ولكن هذا الحصار المضروب على الأجير الفتي . . لم يردم في نفسه نبع الهدى . . ولم يطمس صفاء الفطرة . .

ومن خلال هذه الغيوم المتراكضة . . انفجر شعاع اخترقها . . طالباً الخلاص . . فتلقاه الهادي البشير . . بقلب مفتح على الكون كله :

ولم يعرض عليه الإسلام كقضية فلسفية فيها من الالزام . . ومن التشقيق ما يرهق العقل الغض الطري . . وينفره من الإسلام . .

لقد خسرت أمتنا كثيراً من طاقاتها يوم عرضت الإسلام من منطلق فلسفي محض . . لا يتجاوب مع الفطرة الباحثة عن الحقيقة . . بسيطة . . بازغة تشق بضيائها سدف الظلام . .

وليت شعري . . لو قدر لأسلم أن يذهب إلى مجمع علمي . . حاملاً رغبته في الخلاص إذن لعاد بمزيد من الشك . . الذاهب في متاهات الأرض حيران . .

وكم من علماء « أكاديميين » ولكن إيمانهم صغير . . إلى جانب فتى كأسلم . . يملك في قلبه إيماناً . . كالجبال . .

ذلك بأن شجرة الإيمان لا تتنامى بمزيد من الجدل الفارغ . . بقدر ما تتغذى بالعمل وبالذكر . . الذي يصير لها غذاء ورياً . .

وإذا كان لأسلم زملاء في المرعى : جمدوا جوارحهم . . فلم تسع . . وعطلوا عقولهم . . فلم تفكر . . وأهملوا ملكاتهم فلم تستثمر . . فقد كان أسلم واسطة العقد فيهم عندما حطم القيد . . وانطلق حراً باحثاً عن الحق . .

وسبحان من يخرج من الميت . . مولوداً لإيمان . . ومن بين فرث الشرك ودمه . . ذلك الإيمان . . لبناً خالصاً سائغاً للشاربين . .

ومن أشواك الجهل . . أزاهير الوعي المستنير .

* * *

كرامة الإنسان عندنا . . وعندهم :

أعلن « أسلم » إسلامه لما عرض عليه الرسول حقائقه . .

وتقول الرواية : (وكان رسول الله ﷺ . لا يحقر أحداً يدعوه إلى الإسلام)

فلم يكن ﷺ جباراً ولا متسلطاً . . ولكنه كان الرسول الإنسان الذي يسع قلبه

المتراحب كل راغب في الإيمان .. ولئن وسع قلبه الحيوان أن يعذب .. والشجر الأخضر أن يقطع .. فكم يكون تقديره للإنسان الهارب من قيد العبودية إلى مملكة الحرية .

* * *

ونذكر هنا قيمة الإنسانية المهدورة في مذاهب الأرض في الوقت الذي يصونها الإسلام فيه بل ويغالي بها :

لاحظ بعض الكتاب الصحفيين أن « يلتسين » أنقذ « جربا تشوف » .. وكأنما أنقذه من بين عجلات سيارة توشك أن تقتله .. ولكنه تعمد ضرب رأس « جربا تشوف » في الجدار . إهانة له . فسال دمه .

وسوف ينسى « جرباتشوف » الإنقاذ .. ولكنه لن ينسى الإهانة !

ولكن محمداً ﷺ ينقذ أسلم وأمثاله .. فيصيرون بالإسلام جزءاً من كيان أمة تعتز بهم .. ويعتزون بها .

* * *

بين الذكاء .. والعقل :

كان مع أسلم على أرض الجزيرة .. وكان قبله زعماء أذكياء .. من أمثال أبي جهل .. وعتبة وأمية ..

ولكن « أسلم » الذي نزل عنهم في سنه .. قد علاهم في قوله .. وقراره الحاسم .. فرمت به همته وراء سنه .. دونهم جميعاً ..

أجل .. لقد عاش أسلم واحداً من ألوف من البشر :

عاشوا معه .. وتنفسوا معه نفس الهواء .. وأكلوا وشربوا من نفس الطعام والشراب .. ولكنه سبقهم .. وبقي ذكره مخلداً .. في الوقت الذي عفى الزمن على سير هؤلاء الأذكياء .. مع ما كانوا يملكون من الجاه والمال والمنصب مما يراد به أن يشيع الذكر ويخلد الأثر ..

وكم من قصائد المديح التي تناقلتها وسائل الأعلام .. ثم صارت من بعد كلمات ميتة .. متعفنة !

وعامت قناطير الخشب فوق الموج .. بينما ترسب في القاع درهم من الماس .. هو أسلم .. الحبشي ؟!

ونذكر هنا ما قاله كاتب يعتز بقلمه . وهو يخاطب « لويس الرابع عشر » :

لقد نسي التاريخ اللآليء التي كانت في تاجك أيها الإمبراطور . .
ولكنه لا يزال يذكر الرقع التي كانت في حذائي !

* * *

كان أسلم عاقلاً :

أجل . . كان عاقلاً يعرف بهذا العقل مصلحته . . فأسلم . .

أما غيره فكان ذكياً أو عبقرياً . . ولكنه لم يكن يحمل في رأسه عقلاً . . يعقله . . وما أكثر ما كان يعرف أحدهم مواقع مصلحته . . لكنه تأبى . . فلم ينفعه ذكاؤه . . يوم تخلى عنه عقله الواعي . .

وكما يسبق الدرهم الواحد من الفقير . . مائة ألف درهم يجود بها غنى واسع الثروة . . فإن عقل الفقير الموصول بمدد السماء يسبق عقول رجال أذكى . .

لقد كان أسلم . . رجل حرب . . وعمل . . ولم يكن محترف سياسة يدور مع المنفعة حيث تدور !!

* * *

الإيمان يعبر عن نفسه :

لأن الحق يحمل في ذاته تطويع النفوس . . واستمالتها إلى الدعوة . . ولأن الرسول ﷺ قد أتم البلاغ بعرض الدعوة هذا العرض البسيط البليغ . . على أصح الوجوه وأكملها . . فقد جاءت النتيجة على ما يرضي الحق . . وانفجر ينبوع الإيمان في قلب « أسلم » دفاقاً . .

وهكذا الإيمان الراسخ :

لا يهدأ أبداً حتى يعبر عن نفسه . . تعبيراً فورياً . . وبلا تردد . . أن الإيمان الضعيف . . قد يكفيه أن تعبر عنه بنشيد منظوم . . منغوم في حفل عام !

وقد يكتفي بلافته تعلقها فوق جدار تضم آية من كتاب الله تعالى . . وتعبير خافت . . على هذا النحو لا يغذي بذرة الإيمان التي تظل تواقة إلى الزيت المبارك . . لتشتعل . . ناراً . . ونوراً . .

وهكذا كان « أسلم » :

لقد ولد إيمانه قوياً . . فجاء التعبير عنه قوياً . . في هذه الصورة الوفية . وفي زمان ضاع فيه الوفاء . . وقل الأوفياء :

لقد كانت الغنم أمانة عنده . . لصاحبها اليهودي . . ويتقاضاه إيمانه أن يرد الأمانة إلى صاحبها . . ولو كان يهودياً . .

وها هو ذا يعرض القضية على رسول الله ﷺ . . والذي أشار عليه بردها . . فردها . . فعادت بتوفيق الله تعالى . . لتؤكد لليهودي أن الإسلام غير متعطش لا إلى الدماء . . ولا إلى أكل أموال الناس بالباطل . . ولكنه دين الوفاء :

الوفاء في علوه الأعلى . . وفي امتداده المطلق . . وفي عمقه الضارب الجذور في أعماق المسلم . .

لقد وضع الله تعالى في يده ﷺ . . السخاء . . وفي قلبه الرحمة والوفاء . .

وفي طبعه اليسر واللين . . فجاء رجاله على شاكلته . . أسخياء . . أوفياء . . ميسرين . .

وفي مقدمتهم « أسلم » . . الفتى . . الأسود . . المغمور . . والذي دل بصنيعه على ما في الإسلام من سحر حلال . . يجذب الراغبين إليه . . لو وجد الدعاة المخلصون .

* * *

من العصا . . إلى السيف :

قد يستنسر البغاث بأرضنا يوماً . . وقد يصنع الباطل قوة يتحول بها إلى تيس مستعار ينطح الحق بهذه القوة الملفقة « أحياناً » ولكن الحق يصنع هذه القوة التي تهزمه كل حين !

وكان « أسلم » رمزاً من رموز هذه القوة التي صنعها الحق على عينه . . وفي لحظة من زمان . .

لقد ولد إيمانه راشداً . . فحملته همته على الفور لينال شرف الجهاد مع القوة التي تحاصر « خيبر » .

وترك عصا الراعي . . ليحمل السلاح . .

لقد كان منذ قليل يتعامل مع الغنم . . ثم ها هو ذا يتعامل مع البشر . . على أشرف مستويات التعامل . .

* * *

نهاية البطل :

لو وكل إلى قصاص ليجعل من هذا الموقف رواية . . لفرض عليه الفن أو

الحبكة القصيصة أن تجيء النهاية درامية . . يقتحم فيها البطل الحصن . . ثم يحصد بسلاحه أعداءه عن اليمين والشمائل . . ليأخذ مكانه بعد ذلك في الخالدين . . ولكن الحق تعالى لم يشأ أن تكون النهاية على هذا النحو المأمول . . وإنما . . لم يكد الفتى يتجه نحو الحصن . . حتى أصابه حجره . . فقتله وانتهت قصة حياته !

ثم لتبدأ الحياة مرة أخرى . وفي الآخرة جنات عدن تجري من تحتها الأنهار . . وفي صحبة زوجته من الحور العين . . مع أنه لم يدخل الحصن . . ولم يسبق تراب الأرض بدماء الأعداء . . بل لم يصلِ صلاة قط !؟ . .

فما معنى هذه النهاية التي خطها القدر الأعلى ؟

* * *

أسلم . . وأصحاب الجاه :

إن الحق تعالى . . يبين للمغرورين من أصحاب المناصب المهمة . والأسماء اللامعة . . أن هناك بين الكفور والنجوع . . من هو أفضل منكم ويمكن أن يكون قدوة لكم . لقد نجح أسلم فيما « رسب » فيه أصحاب الجاه والسلطان . . حيث هداه الله تعالى إلى الإسلام الذي كان بقلبه السليم صالحاً لتلقيه . .

لقد سمع عن الإسلام . . فلم يرضَ بمجرد السماع . .

بل جاء بنفسه ليشاهد . .

ثم لم تكفه المشاهدة فباشر الجهاد فعلاً فور إعلانه الإسلام . .

جاء « أسلم » على قدر . . مع سوق الخيرات التي أقامها رسول الله ﷺ . . فعقد معه صفقة . . اشترى بها الجنة . .

بينما المترفون هناك تقيدهم أغلال الجهل . . والأعراف الجائرة . . وتقليد الآباء في حياة آسنة . .

لقد أراد أن يهب حياته لواهبها سبحانه . .

وكانت صفقة رابحة حين قدم حياة . . فانية محدودة . . ليأخذ مكانها حياة أبدية خالية من الأكدار والأوزار .

* * *

أسلم والمتحمسون :

ألا وإن « أسلم » ليقول لبعض المتحمسين المتعجلين النهاية قبل أوانها :

لا تركزوا فقط على الأعمال الظاهرة . . ذات الأحجام والأرقام . .

لا ينبغي أن تشغلكم الظواهر عن ثروة الباطن .. وهي أعز ما يملك الإنسان .. وعليها مدار الصلاح والفساد . ولكم في أسلم قدوة حسنة .. حين استحق الجنة بنعيمها .. ولم يكن له في الواقع أعمال تذكر ..

لقد كان أسلم دليلاً يهدي الحائرين إلى ركيزة الإصلاح الأولى في بناء الأمم والجماعات .

يقول الدكتور سعاد جلال :

(السبب العام لهلاك الأمم التي يصيبهم الله تعالى بعذابه هو :

مناقضة سلوك الأمم للنواميس الكونية التي رتب الله تعالى عليها في هندسة الوجود الإنساني العام .. هندسة حياة الأمم الراشدة :

إن صلاح الأمم لا يتم إلا بصلاح المعاني الباطنة المستقرة في ضميرها . المصححة لمعاملاتها . والتي تعتبر مصادر أفعالها وحركاتها . ألا وهي :

الأخلاق .. فإنها المفتاح الوحيد . المنفرد بالعمل في بعث الأمم . وخلقها من العدم . إن كانت أخلاقاً فاضلة . أو الإطاحة بها من الوجود . إن كانت أخلاقاً فاسدة .

* * *

فكما يكون صنف من الأخلاق المعينة سبباً في إحياء الأمة .. واستدامة بعثها وارتقائها .. يكون صنف ثانٍ من الأخلاق .. مضاداً لهذا الصنف يسوق إرادة المتصفين به وحركات أفعالهم إلى الهلاك) .

* * *

ولك أن تتصور رجلاً خارق الذكاء بين أقرانه .. وهو يدل عليهم ويزهو؟ ما هي النتيجة المتوقعة ؟

إنها : الحقد .. ولا شيء سواه ..

أما حين تكون ثروتك في قلبك أخلاقاً طيبة مذية .. فما هي النتيجة المرجوة !

وكذلك كان « أسلم » بما ملك في قلبه من كنوز الخير ..

لقد كانت لحظات قليلة في عمر الزمن .. انغمس فيها قلبه في أنوار النبوة .. فكانت النقلة الهائلة الفاصلة بين حياتين ..

وجمع عمره كله .. فكان هذه اللحظة التي وجد نفسه عند منبع النهر

الطهور . . وعند منابع الأنهار . . تخضر الأشجار . . وتنبع الثمار . . **فكان له تلك** القوة الباطنة التي طوحت به إلى هناك . .

إلى جنات وعيون . . ومقام كريم .

إنه لم يصل صلاة قط . .

ثم لم يمت في ساحة الوغى بعد أن دوخ الأعداء . .

ولكنه لقي ربه قبل أن يركع له ركعة واحدة . .

ومع ذلك فقد لقي ربه الذي أكرمه ونعمه . . بما لم يدر في حساب أحد . . لفتاً للأنظار أن تدخل في الحساب ما يملكه الإنسان من عواطف الخير التي تعمر بها الحياة . .

وأحياناً يخدعنا ظاهر الحال . . فينسينا أقدار الرجال . . فنظلمهم . . من حيث نشعر . . أو لا نشعر . .

* * *

لقد وهب « أسلم » إيماناً من جنس إيمان أبي بكر . . فلم يكن يفضل أحد بكثرة صلاة . ولا بكثرة صيام . . ولكنه فضلهم بشيء وقر في صدره . . لقد كان مشهده . . لا يستلفت النظر . . ولكن سمرته كانت تخفي من ورائها ما نقتبسه من الآية الكريمة :

لقد كان وراءها من الفضائل :

﴿ أنهار من ماء غير آسن . . وأنهار من لبن لم يتغير طعمه . . وأنهار من خمر لذة للشاربين . . وأنهار من عسل مصفى . . ﴾

وكأنما كان قلبه الكبير . . عش الفضائل الأثير . . ترقد فيه ولا تطير !!

* * *

صفحات من التراث
طلب العلم

([1] اعلم أيها الحريص المقبل على اقتباس العلم . المظهر من نفسه صدرق الرغبة . وفرط التعطش إليه . إنك إن كنت تقصد بالعلم المناقشة . والمباهاة والتقدم على الأقران . واستمالة وجوه الناس إليك . وجمع حطام الدنيا . فأنت ساع في هدم دينك . وإهلاك نفسك . وبيع آخرتك بدنياك .

فصفقتك خاسرة . وتجارتك بائرة . ومعلمك معين لك على عصيانك . وشريك لك في خسرانك . وهو كبائع السيف لقاطع طريق كما قال ﷺ : « **من أعان على معصية ولو بشطر كلمة كان شريكاً فيها** »[2])

* * *

وإن كانت نيتك وقصدك . . بينك وبين الله عز وجل من طلب العلم : الهداية . دون مجرد الرواية . فأبشر : فإن الملائكة تبسط لك أجنحتها إذا مشيت . وحيتان البحر تستغفر لك إذا سعيت .

* * *

ولكن ينبغي لك أن تعلم قبل كل شيء . أن الهداية التي هي ثمرة لها بداية ونهاية . وظاهر وباطن .

ولا وصول إلى نهايتها إلا بعد أحكام نهايتها . ولا عثور على باطنها إلا بعد الوقوف على ظاهرها .

---

(١) عن كتاب : أدب المسلم في اليوم والليلة للإمام الغزالي تحقيق عن عثمان الخشت .
(٢) جمع الجوامع ج ١ ص: ٧٤٩ ط الهبة العامة للكتاب .

وهأنا مشير عليك ببداية الهداية لتجرب بها نفسك وتمتحن بها قلبك . فإن صادفت إليها قلبك مائلاً . ونفسك بها مطاوعة . ولها قابلة . فدونك التطلع إلى النهايات والتخلغل في بحار العلوم .

* * *

وإن صادفت قلبك عند مواجهتك إياها بها مسوفاً . وبالعمل بمقتضاها مماطلاً . فاعلم أن نفسك المائلة إلى طلب العلم هي النفس الأمارة بالسوء . وقد انتهضت مطيعة الشيطان اللعين . ليدليك بحبل غروره . فيستدرجك بمكيدته إلى غمرة الهلاك .

وقصده أن يروج عليك الشر في معرض الخير حتى يلحقك (بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً)[1]

وعند ذلك يتلو عليك الشيطان فضل العلم . ودرجة العلماء وما ورد فيه من الأخبار والآثار . ويلهيك عن قوله ﷺ : « **من ازداد علماً ولم يزدد هدى . لم يزدد من الله إلا بعداً** »[2]

وعن قوله : « **أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه** »[3]

وكان ﷺ يقول : « **اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع . وقلب لا يخشع . وعمل لا يرفع . ودعاء لا يسمع** »[4] .

وعن قوله ﷺ : « **مررت ليلة أسري بي بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت : من أنتم ؟ قالوا : كنا نأمر بالخير ولا نأتيه . وننهي عن الشر ونأتيه** »[5] .

* * *

فإياك يا مكين أن تذعن لتزويره فيدليك بحبل غروره . فويل للجاهل . حيث لم يتعلم مرة واحدة . وويل للعالم حيث لم يعمل بما علم ألف مرة .

* * *

---

(١) الكهف ١٠٣/١٠٤ .
(٢) رواه أبو منصور الديملي في مسند الفردوس من حديث علي بإسناد ضعيف .
(٣) رواه أبو داود الطيالسي وسعيد بن منصور وابن عدي في الكامل .
(٤) رواه الحاكم من حديث بن مسعود .
(٥) رواه ابن حبان من حديث أنس .

واعلم أن الناس في طلب العلم ثلاثة أحوال :

رجل طلب العلم ليتخذه زاداً إلى المعاد . ولم يقصد به إلا وجه الله والدار الآخرة فهذا من الفائزين .

ورجل طلبه ليستعين به على حياته العاجلة . وينال به العز والجاه والمال . وهو عالم بذلك . مستشعر في قلبه ركاكة حاله . وخسة مقصده فهذا من المخاطرين .

فإن عاجله أجله قبل التوبة خيف عليه من سوء الخاتمة . وبقي أمره في خطر المشيئة . وإن وفق للتوبة قبل حلول الأجل . وأضاف إلى العلم والعمل . وتدارك ما فرط منه من الخلل . . التحق بالفائزين فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له .

ورجل ثالث استحوذ عليه الشيطان . فاتخذ العلم ذريعة إلى التكاثر بالمال والتفاخر بالجاه . والتعزز بكثرة الاتباع . يدخل بعلمه كل مدخل رجاء أن يقضي من الدنيا وطره . « حاجته » وهو مع ذلك يضمر في نفسه أنه عند الله بمكانة . لا تسامه بسمة العلماء . وترسمه برسومهم في الزي والمنطق . مع تكالبه على الدنيا ظاهراً وباطناً .

فهذا من الهالكين . ومن الحمقى المغرورين .

إذا الرجاء منقطع عن توبته لظنه أنه من المحسنين . وهو غافل عن قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون** ﴾[1] ، وهو ممن قال فيهم رسول الله : « **أنا من غير الرجال أخوف عليكم من الرجال** » . فقيل : وما هو يا رسول الله ؟ فقال : « **علماء السوء** »[2] .

وهذا لأن الدجال غايته الاحتلال . ومثل هذا العالم وإن صرف الناس عن الدنيا بلسانه ومقاله فهو داع لهم إليها بأعماله وأحواله . ولسان الحال أفصح من لسان المقال . وطباع الناس إلى المساعدة في الأعمال أميل منها إلى المتابعة في الأقوال . فما أفسده هذا المغرور بأعماله أكثر مما أصلحه بأقواله .

إذ لا يستجريء الجاهل على الرغبة في الدنيا إلا باستجراء العلماء . فقد صار علمه سبباً لجرأة عباد الله على معاصيه .

---

(١) الصف ٢ .

(٢) رواه أحمد من حديث أبي ذر .

ونفسه الجاهلة مذلة مع ذلك تنمية وترجية . وتدعوه إلى أن يمن على الله بعمله . وتخيل إليه نفسه أنه خير من كثير من عباد الله .

فكن أيها الطالب من الفريق الأول .

واحذر أن تكون من الفريق الثاني .

فكم من مسوف عاجله الأجل قبل التوبة فخسر .

وإياك ثم إياك أن تكون من الفريق الثالث . فتهلك هلاكاً لا يرجى معه فلاحك . ولا ينتظر صلاحك .

فإن قلت :

فما بداية الهداية لأجرب بها نفسي . فاعلم أن بدايتها ظاهرة التقوى . ونهايتها باطنة التقوى .

فلا عاقبة إلا بالتقوى . ولا هداية إلا للمتقين .

* * *

والتقوى عبارة عن امتثال أوامر الله تعالى . واجتناب نواهيه .

* * *

الـفـهـرس